THE BOOK WAS DRENCHED

لندن

[illegible]

اريل سـنة ١٩٣٤

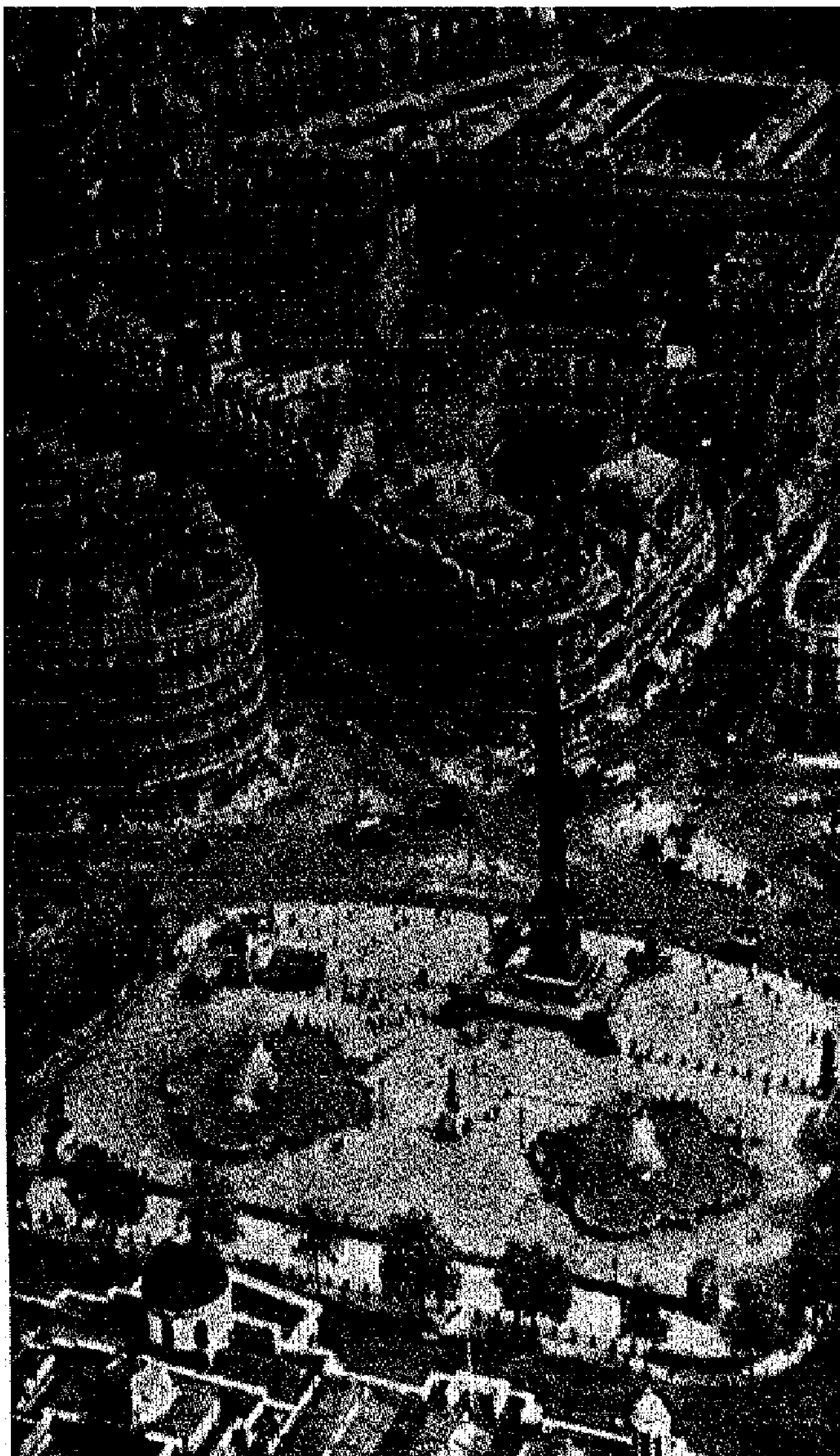
الإهداء

إلى الذين جمعتنا بهم الغربة، وربطتنا بهم المدن،

وإلى مَن سوف تجمعنا بهم،

الى الاصدقاء الذين لم أعرفهم بعد...

أهدى هذا الكتاب



قلب لندن

كلمة المؤلف

ليس هذا الكتاب دليلا للندن .

ولم أنشر هذا الكتاب ، وأنا معجب مأخوذ بلندن .

بل هو صورة صادقة ، نقلتها كما هي للندن، وقد عرفتها طالباً وزائراً ، صورة ليس فيها مجال للتعصب أو الغلو ، صورة لحياة الشعب الانجليزى ، فيها القوة كما فيها الضعف ، وفيها ما يعجب، كما فيها ما ينفر .

ونحن فى هذا الدور أحوج ما نكون الى تعرف العالم ، الى تعرف حياة الشعوب الناهضة الحية ، ومن واجب هؤلاء الذين أتيحت لهم الفرص للوجود فى هذه البلاد الناهضة ، أن ينقلوا إلى مواطنيهم صورة صادقة لها ، غيرمتعصبين فى نقلها تعصباً سخيفاً لوطنهم أو لتلك البلاد .

هذا واجب فى عنق هؤلا

وهذا هو الواجب الذى أقوم به اليوم

١٧ ابريل سنة ١٩٣٤

مقدمة

بقلم

الدكتور حافظ عفيفى باشا

وزير مصر المفوض فى لندن

كان من حظى أن أطلعنى مؤلف هذا الكتاب على كثير من أجزائه قبل اتمام طبعه.

تصفحت هذه الأجزاء فى أقل من ساعتين وكنت فى تلك اللحظات اللذيذة أشاهد شريط سينما توجرافيا قيما ومفيداً.

صحبنى المؤلف الى أغلب مشاهد لندن ، تلك المدينة الضخمة التى يزيد عدد سكانها عن سكان ممالك محترمة فى أوربا وفى القارات الأخرى .

وليست لندن عظيمة بعدد سكانها فحسب ، بل هى عظيمة بما تحوى من ثروات هائلة : فنية وعلمية ومادية. انها عظيمة بقدمها ذلك القدم الذى كساها رداء من الجلال والهيبة . عظيمة بتاريخها السياسى القديم . عظيمة بمجهوداتها الحديثة للاحتفاظ بمركزها العالى الرفيع .

بذلك أكبرت عمل مؤلف هذا الكتاب القيم ، فقد استطاع فى زمن قصير أن يجوب معى أنحاء تلك المدينة المترامية الأطراف .

ولم يكن المؤلف كالدليل الذى يكتفى بأن يصف لك ما تشاهد وصفا سطحيا جافا ، بل هو يسعى دائما أن يشغل مدارك القارىء بما ترى عيناه . فاذا دخلت معه دار البرلمان

الانجليزى لم يكتف بوصف بناء الدار وتاريخها بل ذكر لك فى كلمات معدودة متواضعة سر نجاح الحياة النيابية فى انجلترا .

واذا سار معك فى شوارع لندن لم يكتف بأن يصف لك ما تشاهد بل هو يصف لك كل حركة تراها ومغزى كل كلمة تسمعها . وإذاسار معك إلى برج لندن لتمضية بضع دقائق فى زيارتك هذا الأثر التاريخى ، أعاد إلى ذاكرتك شقا كبيراً من تاريخ عصر الاستبداد فى انجلترا .

نعم إن هذا الكتاب المتواضع يحمل فى صحفه القليلة، الكثير من الأبحاث العميقة والملاحظات الدقيقة والانتقادات النافذة . ولئن اختلفت مع المؤلف فى بعض ملاحظاته أو استنتاجاته ، فانى سررت كل السرور لتلاوة هذا الكتاب الذى جمع بين اللذة والفائدة .

...

أسفت لشيء واحد ذلك هو أن وقت المؤلف لم يتسع لزيارة طائفة من مستشفيات لندن الكبيرة أو دور الاحسان فيها . فانها من أهم ما يرى فى هذه المدينة العظيمة فهى أكبر هياكل الرحمة ومعابد البر . انها مبان ضخمة تكلفت الملايين فى اقامتها وتتكلف الملايين فى إدارتها ، وهى نموذج لحسن النظام واتقان العمل . وكل هذه الملايين جمعت وتجمع من البنس والشلن والجنيه التى يجود بها الفقير والموسر ، الرجل والمرأة من أهالى لندن الكرماء .

ويشرف على إدارتها وعلى جمع الأموال لها رجال ونساء يتطوعون بلا أجر لهذا العمل العظيم ، ولا يبغون من عملهم هذا إلا الاحسان للمخلوق وارضاء الخالق .

فالمريض، وضعيف العقل،والمقعد، والضرير، والمشلول،والأصم، والأبكم، واليتيم، يجد له مكانا فى قلب لندن ، تواسيه وتعالجه وتربيه وتعلمه ، قلوب رحيمة تواقة إلى عمل الخير بلا أجر ولا ثمن .

ولا أبالغ إذا قلت إن معاهد البر والاحسان تكلف المحسنين فى لندن سنويا نحو العشرة ملايين من الجنيهات، تجمع بأكملها من أهل الخير ولا تدفع الخزانة العامة لاعانتها شلنا واحداً. أليس هذا عملا عظيما ومثلا يحتذى ؟

حافظ عفيفى

مصر فى ٣١ مارس سنة ١٩٣٤



أيام الزهور فى لندن، لجمع التبرعات للمستشفيات

فصول الكتاب

فهرس الصور والرسوم

رسوم كاريكاتورية



لندن الامس



لندن اليوم

إذا كنت قد رأيت الكثير مما يعجب فى أخلاق الشعب الانجليزى . فقد رأيت كذلك الكثير من النقص ـ نقص أكده لى شعور الكثيرين من الانجليز بأنهم لايعرفون إلا الكمال . الكمال فى كل شىء .

ولو قدر . ونفض الانجليز أيديهم مما نعتبره عيبا منهم . فتغيرت بذلك طبيعتهم . فمن ذا الذى ينكر أنهم سيخسرون . وسيخسر العالم معهم الشىء الكثير !

من الشرق الى الغرب

كانت جيوبى ذلك اليوم منفوخة بالمذكرات وبالعناوين وبطاقات الزيارة بالتوصيات والملاحظات

وكانت هذه الملاحظات تهطل علىّ من كل من اقابله ، ومن كل من يسمع انى ذاهب الى اوربا . ومع ذلك فلم اكن اترك فرصة لهذا التبرع ، بل كنت اطلب النصيحة بنفسى واستمع للملاحظات كل من كنت أعتقـد فيه أنه يعرف شيئا عن اوربا . وعن انجلترا بوجه خاص .

وكانت المشاكل التى أطلب حلها أو بحثها لا نهاية لها . وكثيرا ما كنت ارجع لكتبي المدرسية الجغرافية . لدرس شيء عن الرياح وعن المد والجزر وعن الحرارة وعن طول النهار وعن أهمية البلاد التى سأمر بها فى رحلتى من مصر إلى انجلترا .

وكنت اعتقد انه لابد من هـذه الدراسة العلمية لطبيعة البحار والمحيطات والطبغرافية فرنسا وانجلترا . قبل أن اترك القاهرة . كأننى سأقود بنفسى الباخرة التى تقلنا من الاسكندرية إلى مرسيليا . أو كأننى سأعبر جبال الالب ، كما عبرها نابليون. وكانت هذه المعلومات تزيد فى مشاكلى ولا تساعد على حلها .

واذكر ان أهم تلك المشاكل كانت مسألة الملابس . اوربا ببردها القارس . بردها الذى سمعنا عنه أنه يجمد الأصابع وتاج الأنف حتى انه ليسقط دون أن نحس

سفوطه ؛ اوربا بلاد الأمطار التي تسقط كأنها أفواه القرب . اوربا ذات الضباب الذي كنت اقرأ عن عجائبه في روايات سنكلر وشارلوك هلمز . اوربا هذه لابد أن نعد لها العده .

لا اظن ان هذا التراب الأسمر يجد مكاناله في اوربا، وهذا الهواء لابد وأن يكون له اثر غريب على الوجوه وعلى الخياشيم في هذا العالم الآخر . لابد من هـذا. والا فاين العجب في اوربا !

كان هنا لك شيء من الاجماع عن مسألة الملابس . التي كانت كانت من كبرى المشكلات التي كنت احملها . وأطلب النصيحة والمشورى في حلها .

وكان كل هؤلاء الناصحين يدللون بتجارب قد سبقت لهم . عن اولئك الأبطال الذين سبقوني وذهبوا إلى باريس او الى لندن ؛ وعن الأدوات التي تجهزوا بها في رحلاتهم هذه . ولا زلت أذكر هذه النصائح الغالية .

الأحذية ذات « الرقبة » العالية لابد منها .

جوارب من الصوف السميك . لاتقل كثافة عن جوارب رجال البوليس

ممنوع لبس الخلاليب

ممنوع استعمال القباقيب

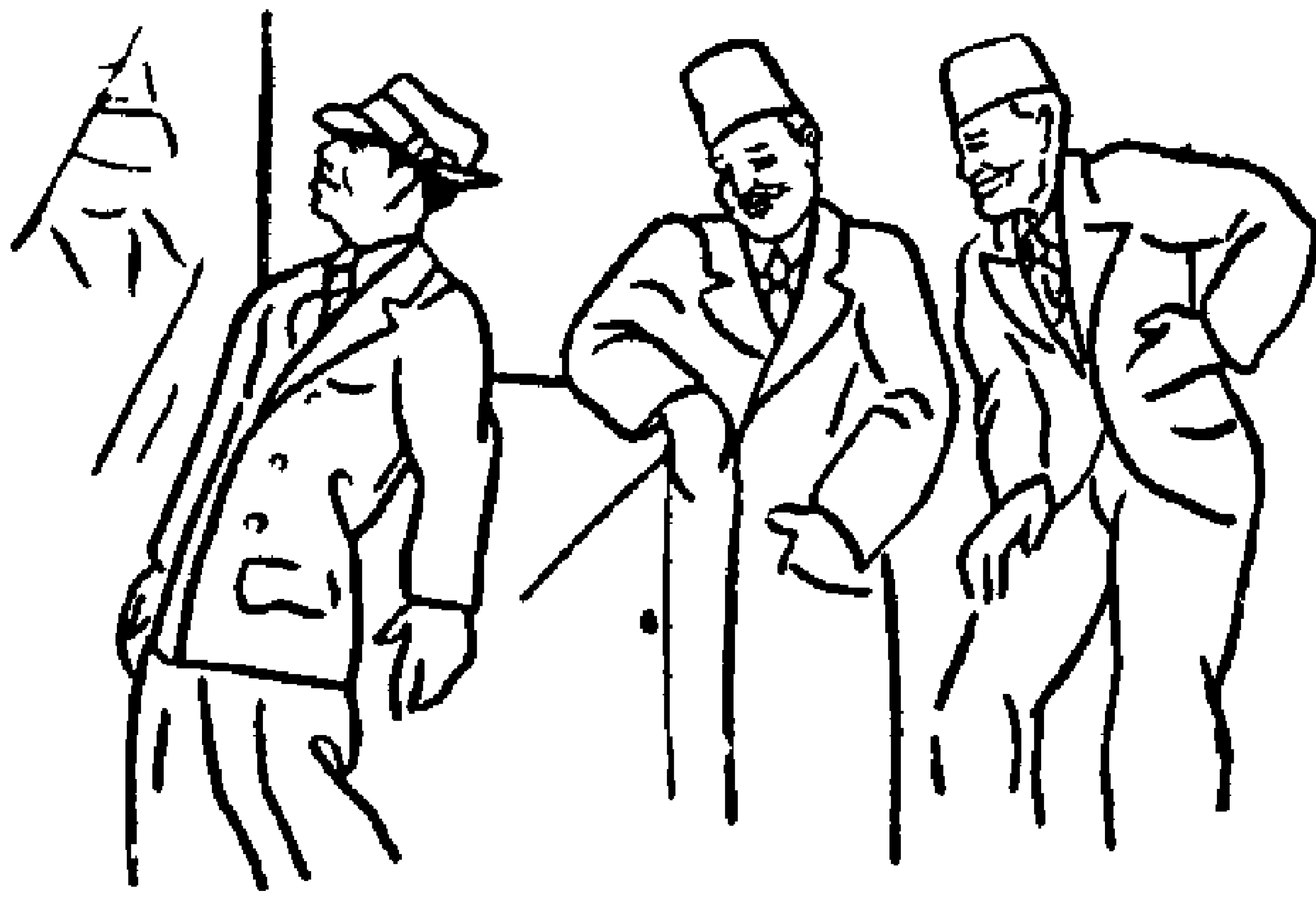
« صداري » البدن لابد وأن يكون محكمة الاقفال (لهذا عمدت الى تغيير صداري لابسي بحيث لا يظهر منها الا عقدة رباطة العنق)

قماش البدل لابد وأن يكون من الصوف الحسن الانجليزي . وكلما كان كثير تخطيط والبهدلة . كلما كان أقرب إلى الملابس الانجليزية .

لابد من معطفين على الأقل .

ثم تأتي مسألة القبعة .

كان شراء القبعة واختيار لونها من الأمور التى استغرقت وقتا ليس بالقليل . وقد اشترك فى هذه المهمة كثير من الأصدقاء — رعاهم الله — بأنفسهم أو بملاحظاتهم .



وعندما ذهبت بها إلى المنزل كانت موضع اهتمام أصدقائى

وكنت أراقب نوافذ المتاجر الأجنبية، وأدرس شيئا عن عالم القبعات من حيث الأثمان والألوان والوضع والمنظر . وكنت اراقب (الخواجات) فى الترام وفى الطريق ، لاكتشف اللون المناسب والشكل الانيق . وعند ما احمت العزم ودخلت إحدى متاجر شارع فؤاد، وقدر لى ان اشترى أحداها، أخذ صاحب المتجر، يحاضرنى فى استعمال القبعات وكيفية وضعها ومسحها، والفرق بين القبعة الفرنسية والانجليزية .

وعند ما ذهبت بها الى المنزل، كانت موضع اهتمام أصدقائى الزائرين ، وحاول كل منهم بدوره أن يجربها على رأسه

هذه هى القبعة التى كنت أعتقد أنه لا يسمح لكائن من كان، أن يهبط أوربا الا وهى على رأسه .

. . .

أذكر الآن قصة الملابس هذه . وأعجب لها لأنها قصة تتكرر . ويقع فى حبائلها كل من يسافر إلى أوربا لأول مرة . هذه المشاكل التى كانت تواجهنى منذ سبع سنين هى بعينها التى تواجه الشاب الذى يرحل الى أوربا اليوم .

اجلس قليلا فى النادى المصرى فى لندن وراقب الوافدين من مصر . الوافدين للدراسة أو للزيارة والاستشفاء !؟ شبانا ورجالا . وتفحص وجوههم وملابسهم . لترى كيف أنهم كانوا يدمنون التفكير فى هذه المسألة . كما كنت أفكر فيها .



« انظر هذا الشاب ... »

انظر إلى هذا الشاب الذي يدخل عليك وعلى رأسه كاسكت ، لا شك أنه قد نصح له في مصر أن يكون (اسبور) في انجلترا بلد الرياضة ؛ ومن مميزات (الاسبور) في نظر الكثير أن يلبس الكاسكت . ثم انظر لهذا الشاب الذي وصل اليوم رأسا من مصر . انظر الى البدلة التي يلبسها . ولا تحاول أن تسأل لماذا ! . دخل علينا هذا الشاب ونحن في حفلة شاي خاصة . ظننته أحد المدعوين . وكان يلبس بدلة كثيرة الألوان والمربعات بدرجة (برعالي) لعين . وكنت أظنه في بادئ الأمر كان مشتركا في كارنفال في أحد المصايف ونسي خلع ملابسه . ملابس رعاة البقر المكسيكية !

علمت أن هذا الشاب ذاهب إلى اسكتلنده للدراسة . ولعل أول فكرة حضرت له أن يبحث قبل مغادرته مصر عن ملابس اسكتلنده ذات الألوان والمربعات العديدة . لأنه مزمع أن يذهب الى اسكتلنده من غير هذه !

وكل هذه الملابس جديدة . فلم يلبسها بعد . لم يستعملها وهو في مصر . لم يستعملها الا بعد أن امتطى ظهر الماء .

وإذا عددنا هؤلاء الذاهبين الى أوربا لأول مرة فإن هؤلاء العائدين منها بعد سنين أعوام وقبل درجات — لا يزالون يفكرون هذا التفكير العجيب . هؤلاء الذين لا يفكرون عند رجوعهم الى مصر الا في شراء حذاء ضخم . وبدلة للجولف وحقيبتين من محلات هربون ، ثم آلة مصورة ومضارب مقرب ويتخذون استعدادا لمصر . استعدادا لاستعراض هذه الأدوات في مصر .

ـ « وماذا تصنع . . . . ببذلة الجولف وأنت لم تستعملها أثناء وجودك فى انجلترا ، وفى الوقت نفسه أنت لا تلعب الجولف ؟ »

ـ « ماذا يقولون عنى فى مصر ؟ إذا رجعت فى ملابسى العادية . الملابس التى لبس فيها الصبغة الانجليزية الأصيلة ؟ انهم لا يعترفون بدراستى فى انجلترا ، ولا بشهاداتى ما لم تؤكدها هذه الشهادات من أحذية ومن ملابس ؟



ماذا يصنع ببذلة الجولف ..

. . .

ومع هذا الحذر الذى يتوخاه الكثيرون عند رحلاتهم الى أوربا ، فقد يحدث ما لم يكن فى حسبان .

أرسل أحد الاخوان ملابسه إلى الغسيل ، والغسيل تقوم به شركات مختلفة فى المدن تجمعها من المنازل فى يوم خاص وتوزعها فى نهاية الاسبوع . أرسل صاحبنا ملابسه وكان من بينها سروال من السراويل الطويلة الفضفاضة ، التى تعقد حول الخوارب .

لم يعرف من وقع فى يده هذا السروال حقيقة أمره ، وربما ظنه بنطلونا من بنطلونات الصيف ، أو من ملابس السهرة الشرقية ، لأنه عنى بأمره عناية خاصة . فنشاه ، وكوى ثنياته ، وحمله الى صاحبنا وقد نفخه الهواء ، فدلى من قطعة من الخشب ، كأنه بوق عظيم ..

. . .

وليس بشراء هذه المعدات وهذه الملابس تنتهى المهمة ، إذ أن أمر استعمالها أشق من أمر اقتنائها . فقد سمعنا عن ذهب فى ملابس السهرة بلباس ربطة عنق حمراء ..!

والبيجامة فى مصر يعتبرها البعض فى حكم البدل الصيفية فترى الذين

يتخطرون بها من باب إلى باب فى بعض شوارع القاهرة ، أوالذين يجلسون بها فى الشرفات ، دون أن يشعروا بأن هـذه من ملابس حجرة النوم التى لا يراها الا صاحبها .

وهذا مايحدث لهؤلاء الاخوان فى انجلترا بلاد التقاليد . وفد خمسة من الطلبة إلى لندن وسكنوا احد الفنادق جميعاً ، فلماحان وقت العشاء ، نزلوا بجماعتهم إلى حجرة المائدة فكان منظراً عجباً : اضطرصاحبة الدار إلى إرسالهم ثانية إلى غرفهم لمراجعة الرأى فى ملابسهم : نزلوا أصحابنا بجلاليبهم، واللبو منهم فى بيجامة . والتف كل منهم بفوطة أو بشكير . ثم ساروا فى قباقيبهم يرجون سلم البيت ...

وهذا الاعتقاد بقوة البيجامة . وبجمالها ، وبغربيتها يجعل سلسلة المتاعب التى يقع فيها هؤلاء الوافدون إلى الغرب لاتنتهى .

فوضى الملابس فى مصر . مظهر من مظاهر الفوضى الاجتماعية . فالمصرى يلبس مايروق له و يقتبس مايجمل فى عينه ، دون اعتبار للجماعة . أو مراعاة تقاليد وطنية : وإن كانت هذه التقاليد لاتوجد مع الأسف . وإن وجدت فلا نجد الرأى العام الذى يرعاها ويحافظ عليها .

...

تركت القاهرة إلى الاسكندرية . والمذكرات والعناوين مازالت تتراكم فى جيبى ؛ وكنت أشعر وأنا فى محطة القاهرة بأننى نصف بطل ؛ وكنت أنظر لهـذا الجمع من أصدقائى بتيه وإعجاب . إذ كنت أعتقد أن من واجب كل معارفى توديعى على المحطة . عادة شرقية ليس لها معنى .

أذكر ذلك ، بينما أنا أسير منفردا على الرصيف عينه بعد ذلك اليوم بسنين ؛ لاأنتظر أحداً يودعنى . ولا أرجو ذلك من أحد . مع أننى ذاهب إلى الغرب من جنوبه إلى شماله ومن غربه إلى شرقه ؛ ولكن لم يعد الغرب يرسب فى نفسى الخوف والقلق .



شعرت بأنى نصف إله

ولم يعد الغرب يستهوينى كما كان من قبل ، ولم أعد أحلم وأتخيل كما كنت أتخيل .

ضاع السحر الذى كانت تخلقه الجدة، ويولده الخيال. ولم تبق إلا الحقائق الباردة .

. . .

هذه الحجرات الضيقة فى البواخر ، ليست مريحة . ولا بلذ لى أن أقضى بها خمسة أيام كاملة ـ رحلتنا من الاسكندرية إلى مرسيليا ـ أربعــة أسرة بعضها فوق بعض . ترتقى إلى الأعلى منها بسلم .

أطللت برأسى من حجرتى ، ونثرت حقائبى وبضاعتى من عاب وقراطيس وكتب وأوراق على أسرتها ، كأننى صاحبها الأوحد .

سارت بنا الباخرة وكان زميلاى طبيبين مصريين ، ممن رحلوا قبلى مرات عدة إلى أوربا . وكان ذلك من حسن الحظ . فقد أخذت دروسا عنهما . بعضها كانت بالاكراه . وكثيراً ما اعتبرت هذه الدروس تدخلا مهما فى شئونى الخاصة .

لم تخرج الباخرة من الميناء حتى دق جرس الغذاء . وآن السهية للطعام والاكل ومن ذا الذى يضيع هذه الفرصة، منظر ترك الوطن ليملأ معدته عما لا يدرى !

وحاولت الهرب ولكن تقابلت وجها لوجه مع الخادم الذى كان يبحث عنى . وذهبت إلى الحجرة ، كأننى ذاهب الى امتحان شفهى ، يتطلب جراءة وبفطة . ذهبت بكامل عدتى بمعطفى وبجيوبى المنفوخة ، وبشعرى المنكوش . نعم اذكر ذلك وقد مضى على ذلك اليوم سبع سنين ، لأننى رأيت وجهى فى المرآة العريضة التى كانت فى الطريق الى حجرة الطعام . رأيت نفسى كأننى « فسيونجى » تخرج بوجه مغبر من قطار الصعيد ..

لا . هذا لا يكون . يجب أن استعد لمسألة الطعام ، ويجب أن افكر فيها ، قبل أن ألقى نفسى . يجب أن استعرض ماقيل لى عن الطعام وعن اتيكيت الطعام .


لأنى رأيت وحشى فى المرآة ..

ماسم لحم الخنزير بالفرنسية ؟ مالونه حتى لا أقع فيه ؛ ما الأطعمة التى يضاف إليها النبيذ ؛ السكين فى اليد اليمنى والشوكة فى اليد اليسرى ؛ ... بدأت افكر بجد فى مسألة الطعام بعد مسألة الملابس .

وهكذا خرجت متلصصا من حجرة الطعام لكى لا يشعر بى أحد ، فيقتنصنى .

ولم أكن الهارب الوحيد ؛ بل إنى وجدت من شاركنى فى العملية ... ولنفس الأسباب أو لغيرها ...

* * *

كان كل ما أخرجه من حقيبتى جديدا . من قمصان وأحذية وجوارب وربطات عنق : واذكر الآن الابتسامة التى كانت تعلو وجه زميلى ؛ الابتسامة التى أرسلتها بدورى عندما رأيت صاحبها ذا الملابس المكسيكية .

وكان أحد رفيقىّ الدكتور « ح » لا يترك فرصة لابداء الملاحظة . والرجاء ، حتى لا أكسفه بعمل غير طريفة فى جلوس أو ملبس او طعام : وكانت هذه النصائح تأخذ فى بعض الأحيان صبغة الأمر والوعيد .

وكنت أجلس بجانبه على المائدة ، وكانت تعليماته تصدر لى بالعربية بصوت واطىء ؛ وحينا كان يصدرها « برغرة » من عينيه . أو زقة من كوعه . أو بابتسامة صفراء .

وبعد قليل كنت أسبق الجميع الى حجرة الطعام ، فشهيتى كانت مفتوحة ؛ ولم يكن لدى من عمل أقوم به أو تفكير خاص يشغلنى .

وبدأ البحر فى الثوران ؛ وأخـذ ضيوف المائدة فى القلة وقـد لازموا حجراتهم لا يتناولون فيها الا عصير الفا كهة،ولـكن هذا البحر لم يؤثر فى نفسى ولا فى شهيتى ؛ ولم يؤثر فى زملائى من حسن الحظ . فـكنا زبائن حجرة الطعام إلى نهاية الرحلة، وقوى العنصر المصرى حتى استقللنا بمائدة خاصة . نقهقه حولها ماشئنا ، وننفث عن صدورنا بالملاحظات القومية المعهودة !

وكان مما أجمعت الرأى على القيام به . تدوين يوميات خاصة عن حياتى فى أوربا ؛ يوميات أشبه بيوميات بيبى، واعترافات فيها روح جان جاك روسو .

وكانت هذه المذكرات تستنفد منى وقتا ليس بالقليل من كل يوم ؛ وسرت فى كتابة هذه المذكرات أياماً — نعم أياماً قليلة لا تتعدى اربعة أيام ! ووجدت المسألة ممضة تلهينى عن المشاهدة الممتعة التى ليس من ورائها غاية أو غرض .

لست أدرى الآن أين هى تلك الأوراق التى دونتها فى الأسبوع الأول من رحلتى الأولى إلى أوربا ، ولاشك فى أننى إذا اكتشفتها يوماً — وأرجو أن يكون بعيداً — سوف أجد فيها متعة وطرافة . لاسيما وان عين الغريب تلمح كل شئ ويستهويها كل شئ . ولم أترك موجة صدمت الباخرة إلا ودونتها ، ولا قرباً اقترب منا إلا ووصفته . ولا طعاماً أكلناه الا وذكرته . بل وكان الخيـال مائجا هائجا ، فانتقلت من النثر إلى الشعر . وكنت أشعر وأنا أسير على ظهر الباخرة فى الليل كأننى كولمبس يحـدوه الرجاء والأمل،وكنت أحس وأنا أدمن النظر الى الماء والسماء، كأننى كوك أو ماجلان.

وأين هذا الخيال اليوم ؟ وأين هذا الشعور اليوم ؟ وأين هذه اللذة التى أجدها فى التحديق إلى الماء وأنا فى البحر الأبيض أو الاسود أو فى المحيط أو فى البحر الشمال ؟

كانت تلك الروح روح فتوة وصبوة ، وكان ذلك الشعور شعور الطفل الذى يخرج من أركان بيته إلى الشارع المزدحم ، يخرج ليرى الحياة ...

وهكذا كان شعورى إذ ذاك .

أما اليوم، فقد أخذت تلك النشوة تبرد وتلك الجذوة تنطفئ، فعدت لا أحس بفرق عما إذا كان هذا القطار سيصل بعد ساعة إلى فينا أو الى أسوان. وهذه الباخرة تأوي مراسيها فى البندقية أو اسطنبول.

صارت صور الحياة متكررة جامدة لا تثير عجبا أو غرابة، كأن العقل البشرى عاجز عن الخلق وعن الابتكار؛ هذه القلعة التى أزورها على ضفاف الدانيوب تشبه القلعة التى أزورها فى رودس، وهـــذا القصر الملكى فى بوتسدام، يشبه ذلك فى سن رن. وهذا المسرح فى باريس يشبه ذلك فى فينا.

لا جديد تحت الشمس، للذى ضرب فى الأرض لكى يرى الحياة!

...

وصلنا مرسيليا، وجبنا طرقها وجلسنا فى مقاهيها وأكلنا فى مطاعمها.

وسار بنا القطار الى باريس مدينة النور؛ وكان الجو باردا ممطرا. وفى الساعات القليلة التى قضيتها لم أجد صورة من الصور التى تخيلتها عن العاصمة الفاتنة. فتركتها يائسا، راجيا ألا تخيبنى لندن كما خيبتنى باريس.

وسار بنا القطار إلى باريس

وسار القطار من باريس الى كاليه؛ وكنت أدرس طبيعة الأرض، وأنواع الأشجار، ومناظر القرى، وحياة الفلاح الفرنسى؛ ولكن أخذت هـــذه الحمية للدراسة تبرد شيئا فشيئا.

...

أقلتنا الباخرة من كاليه الى دوفر. وكنت مشتاقا لكى ألمس الأرض الانجليزية، كنت مغتبطا، كنت فرحا، أريد أن أرى الانجليزى فى بيته، الأسد فى عرينه،

أريد أن أمضى عن نفسى ذلك الاجلال المصبوغ بخوف ورهبة لهذا الشعب السكسونى .

. . .

ميناء دوفر بمصابيحها الغازية وبأبنيتها الحمراء القاتمة ، وبالبوليس الانجليزى البارد ، كل هذا كان خير مقدمة لكى نرى لندن .

نعم رأيت لندن فى ظلمة المساء؛ فكانت رهيبة. وتحت ستار كثيف من الضباب الاسود فكانت مفزعة

هذه لندن فى عين الغريب .

ولكن هل هى كذلك :



نعم رأيت لندن فى ظلمة المساء فكانت رهيبة

لندن التى أحبها

لقد طفت الشرق والغرب ، وقد زرت عشرات من المدن ، ولكننى لم أجد فيها جميعا ذلك السحر ، وذلك السر ، وذلك الجمال الذى يحيط بلندن .

نيويورك مدينة عظيمة ، بملايينها وبناطحات السحاب فيها ، وبقبيلها المشرد . وباريس براقصاتها العارية ، وبحياتها البوهيمية وبمرحها الذى لا يهدأ مصيدة للفراش . والقاهرة تحمل فى فابها جلال الموتى . واسطنبول تفتح لك نافذة تطل منها على أسيا وعلى العالم القديم . وموسكو بصلبانها وبقبابها توقظ الروح الغافية .

ولكننا ندير الرأس بحسرة من هذه جميعا ، إلى تلك المدينة ذات الملايين السبعة التى يغطيها الضباب ، ندير الرأس بحسرة إلى لندن الخفية مدينة الأسرار .

انه من العسير أن نحب من نعرف انسانا كان أم غير انسان . وهذا هو السر فى أننا نزهد فى المدن المخطوطة المنظمة . فهذه المدن الانجليزية تمثل حياتنا أبلغ تمثيل ، فلندن بمفاجآتها وبغرائبها تجذبنا اليها دائما .

إننى أحب فى لندن كل شئ . أحب كنائسها ، فالكنائس الجميلة تعظ بلا خطباء ولا وعاظ ، وليس يهم أن تكون هذه الكنائس فارغة فى يوم الأحد . إننى أحب السكون الذي يفيض به دير وستمنستر إننى أحب السربنتين فى أيام الصيف ، وقد تكدست ضفافه بالأطفال السابحين ؛ واحب ان أراه فى ضوء القمر بمائه الأبيض الفضى .

أما الستى فانها تثير الأعصاب فى النهار ، ولـكن اذا ماوقف فيها دولاب الأعمال فانها تصبح مهجورة فارغة ... بديعة فى الليل !

ان أولئك الذين يمقتون لندن ، هم الذين يعملون ويشتغلون بلا انقطاع ، ولا يرون الا الجدران الأربعة التى يعيشون بينها ؛ ولا يرون الا نوافذ المصانع المهشمة .

لابد وأن يكون هناك من يمقت شيئاً ما فى هذه العاصمة العظيمة ، من يمقت بعض احيائها الوضيعة ، أو من يمقت بعض سخافاتها أو دناستها ، ولـكنها مع كل هذا مدينة عظيمة ، عظيمة جداً . . .

انه لسعيد من يعيش فيها ، سعيد من يكون منها ، من يكون حجراً من أحجار لندن الحية . .

استيفن جراهام



ليلتى الاولى

جلسنا فى شيء من الراحة والهدوء، فى قطار الساعة السابعة الذى يبرح دوفر الى لندن . ثم طلبنا شيئا من الشاى ، الشاى الانجليزى بعد أن (ماعت) أنفسنا من شرب الشاى الخفيف الذى لاطعم له فى فرنسا وعلى ظهر الباخرة .

لم تبق إلا ساعة وبضع ساعة على لندن ؛ بعد سفر اسبوع كامل على البحر والبر . كنا كالحجاج لايهدأ بنا مكان ، ولانشعر براحة اذا ماقطعنا مرحلة من مراحل هـذا السفر الطويل، بل ان «مكتنا» التى كنا نقصدها كانت تجعل كل مكان نهبطه لامتعة فيه ولا راحة ، حتى باريس كانت فى نظرنا محطة نغير فيها القطار ليس الا ، وليست مدينة النور كما يدعوها البعض .

بقى على القطار خمس دقائق ، وكنا نضحك بصوت عال ازعج جيراننا : وفى لحظة تذكرت حقايبى ودرت بعينى اعدها ، وجدتها جميعا الا عابتى الصفيح ، علبة البلح !

لقد كنت كالحجاج أحمل معى كل شيء .

أحمل معى هدايا الشرق الى الغرب ، أحمل معى بعض كنوز مصر الى انجلترا ، احمل شيئا من بلح اسوان ، اسوان العزيزة .

ولقد كان صديقى الدكتور ح . . لايعجبه هذا الحمل من البلح ولا صندوق الكعك والغريبة ، وكان يرى اننى عتيق فى أفكارى ومحدث فى تصوراتى ، لهذا أبتسم لضياع هـذه العلبة التى كانت تلزق كل شيء حولها ونحن فى كابين المركب،



كنت كالحجاج أحمل معى كل شيء

وتجمع النمل ونحن على ظهر الماء ولسنا ندرى من أين كان ينحدر علينا .
ولكن هذا البلح كان تذكارى من اسوان . وكان التراث الوحيد الذى أحمله من أقاصى الصعيد .

خرجت أبحث عن هذه العلبة فى كل أركان المحطة وكنت جزعا على فقدانها وكنت جزعا خوفا من فوات القطار . لم أجد لها أثراً وهكذا رجعت يائسا الى العربة .

. . .

كان البوليس الانجليزى اكثر ما اثار اعجابى . وأكثر مايثير اعجاب كل زائر إلى انجلترا . أولئك المردة الضخام الطوال . بملابسهم الزرقاء القاتمة . بقلنسوتهم السوداء ذات التاج الذى يلمع فى قمتها . هم صور أخرى من تلك التى كنت احييها عن حرس بوتسدام حرس القيصرية الالمانية الزائلة . أجسام كاملة النمو ممتلئة صحة ونشاطا . يمثلون بحق عظمة الامبراطورية . ويتناسون نحو معرضخامة لندن . مأذنها الحجرية المغبرة من دخان الضباب والمصانع .

أين هذا البوليس الانجليزى من بوليسنا المصرى الهزيل أو المتمدد البطن الذى لا تراه الا متعبا ولا تراه الا نصف نائم . والذى تلمح فى وجهه الكآبة والحزن العميق كأنه يحمل هما ناء بأكتافه .

وأين هذا البوليس الانجليزى من البوليس الذي رأيناه فى باريس . البوليس القصير بشواربه المفتوله . وبقبعته المنبطحة . وبعباءته التى ترفرف على كتفه . لاينبى على شيء من العظمة . ولا يدل على انه يسيطر على شيء . حتى ولا على العربات والسيارات التى تسير على غير اتجاه فى باريس . .

من وراء نوافذ العربة وجدت أحد هذه الوجوه ذات القلنسوة السوداء التى تحمل التاج على قمتها يمعن النظر . وينقر الزجاج بأصبعه لكى أفتحها .

« انك بلا شك قد فقدت شيئا . أنك بلا شك كنت تبحث عن متاع ضاع منك

لم تجده . ماهذا الذي تبحث عنه، وأين تظن انك قد تركته؟ لقد كنت أراقبك وأنت تهرول وتبحث فى حجرة الجمرك وعلى الرصيف ، لقد كنت أسير معك بعينى وكنت أبحث وراءك ....

لقد نسيت أمر علبة البلح ، ولم اكن أظن أن هنالك من يعنى بشئونى الخاصة ، ولم أكن أظن أن هنالك عيونا ترقبنى وتتبعنى النظر . .

لقد كان خيرا لى أن أفقد هذه العلبة ، من أن يتداخل فى أمرى هذا البوليس الضخم الذى كان يثير فى نفسى كل رهبة ولا أقول كل احترام - غرست فى نفسى فى مصر منذ عهد المظاهرات والمدافع الرشاشة - لقد حاولت أن ابرأ من ضياع هذه العلبة، ولكن هذا الشرطى لم يترك لى مجالا للتفكير أو المناقشة بل انى تبعته ، وهو ممسك بذراعى يذرع الرصيف بخطواته المديدة التى لم أتابعها الا بالركض .



وهو ممسك بذراعى يذرع الرصيف...

بحثنا من جديد عن العلبة المفقودة فى أركان المحطة ، ثم خطر له أننى ربما فقدتها فى الباخرة التى أقلتنا من كاليه الى دوفر ؛ ومع تأكيدى له بأننى قد حملتها معى الى المحطة الا أنه لم يقتنع ، بل تركنى وركض الى الميناء ، وأنا أنتظره على السلم وقد تصبب منى العرق من الركض والجري ، ومن خوفى من فوات القطار ، وأخذت أسب البلح وفكرة البلح السخيفة .

عاد الرجل يحمل العلبة تحت ابطه ، العلبة التى أكدت له أننى حملتها معى إلى

المحطة ، لم يكلمنى ولم يناقشنى على تشبثى وخطئى ، بل قبض على ذراعى من حديد وأخذ يجرنى وراءه إلى القطار الذى أخذ يصفر وبدأ يتحرك .

دفعنى إلى العربة ، ووضع العلبة بين ذراعى ، وانحنى الىّ وابتسم ابتسامة خفيفة لاتكاد تلمحها فى ظلمة الغسق ؛ لست أذكر الآن هل شكرته على ذلك ، أو كيف شكرته ، ولكن الحقيقة اننى كنت أصوغ جملة الشكر وأرتب ألفاظها وأصححها ونحن نركض ، ومع ذلك فمن المحتمل اننى لم أقل شيئاً ولم أجاوبه الا بهزة الرأس ...

ما أعمق هذا الأثر فى نفسى الى الآن ، وقد مضت سبع سنين ، احتككت فى خلالها بأكثر من شرطى واحد فى لندن وفى غير لندن ، ولكن ذلك الشرطى ، شرطى دوفر لاتزال له صورة قوية فى نفسى ، صورة تدل على مبلغ احترامى واعجابى العميق الأثر بالشرطى الانجليزى .

والآن كلما أمر على دوفر فى الطريق الى مصر أو فى الطريق الى لندن ، أدور بعينى باحثاً عن ذلك الشرطى المارد علىّ اكتشفه ولعلى أشكره . ومع ذلك فكنت أظن فى كل مرة أن ذلك الجيل من رجال الشرطة قد انقرض ، ولم تعد قامتهم باسقة كما كانت ولم تعد ضخمة متهم واضحة كما رأيتها تلك الليلة .

ففى صورة ذلك الشرطى أجمع اليوم كل ما أحمله للشرطى الانجليزى من احترام واجلال ..

شرطى محطة دوفر ....

...

أخذت نافذة القطار تبتل بماء المطر أو الندى أو الرطوبة ، وأخذت تسود شيئاً فشيئاً ، فلم نعد نرى شيئاً من الطريق الذي كان يسير فيه القطار من دوفر الى لندن ، وكانت أنوار المحطات والقرى التى مررنا بها تظهر وتختفى فى ظلام تلك الليلة كأنها أنوار المشاعل أو الفتائل .

وصلنا محطة فكتوريا ، محطة لنـدن العظيمة ذات عشرات الأرصفة ، والتى اكتشفت بعد ذلك أنها ليست المحطة الوحيدة فى لندن ، فليس فى لندن « باب حديد » واحد بل كثير منها كل منها يختص بطرف من أطراف الجزيرة البريطانية :

إلى أين نذهب هذا المساء ؟ بالطبع لم يكن السؤال عن دور الملاهى والمسارح بل عن الفنادق والبنسيونات . قال ثالثنا الدكتور ح . . زرت لندن منذ أربع سنوات وقضيت فيها ثلاثة أشهر ، لقد كنت أسكن فى منطقة كذا ، لست أدرى بالضبط أين هى ولا المنزل الذى كنت أسكنه مع أقربائى . فلم تكن ملاحظته ذات فائدة :

أودعنا حقائبنا الكبيرة فى حجرة الأمانات (ويدخل فى ذلك علبة البلح بالطبع) وخرجنا نحمل كل منا حقبة من حقائب الكتب بها المعدات الضرورية للنوم .

وكان الدكتور ح . . يقودنا ، فاقترح أن نتناول شيئا قليلا من الطعام ، لاسيما وانه يعرف مطعما قريباً كان يتردد عليه منذ سنين مضت وهو لا يبعد كثيراً عن دار المحطة . وهكذا ذهبنا بحقائبنا الى مطعم هنالك ، ولست أدرى هل هو الذى كان يقصده الدكتور أم آخر يشابهه . الا أنه أكد لنا أنه هو ، وتخير لنا الأطعمة التى توافق مزاجنا ، الأطعمة التى جربها من قبل فأكلنا والسلام . وأثناء تجهيز الطعام كانت ملاحظاته تتوالى ولا أنسى محاضرته القيمة عن الخردل الانجليزى وطرق استعماله .

والدكتور ح . . من الناس الذين يقدرون حق الصداقة والمعرفة والعشرة . وهذه الطبيعة تتجلى فيه بمظاهر قد تعد فى بعض الأحيان غريبة نابية . فهو يحب دائمًا أن يتردد على الأماكن التي خبرها من قبل ، وكلما كان يتردد على مكان كان يعرف فيه ويصادق فيه أحداً . كان الدكتور ح . . يسكن بعد ذلك فى طرف لندن الشمالى فى مكان يستعمل للوصول اليه أكثر من وسيلة واحدة من وسائل النقل ، ومع ذلك فكان يقص شعره فى أقصى الجنوب ، فى مكان يدفع فى سبيله أكثر من شلن واحد للوصول اليه . وذلك لأنه عرف صاحب « الصالون » ولأن صاحب الصالون عرفه

وعرف مزاجه فى قص الشعر ! ! .

كان ظلام لندن مقبضاً عند ما خرجنا وعند ما بدأنا نفكر من جديد فى مسألة المبيت . وكنت أعرف أن فى لندن نادياً للمصريين فاقترحت أن نذهب إليه إذ ربما نجد فيه مكاناً لضيافة الغرباء ، ولكننا لم نكن نعرف مكانه ، والسؤال عن مكان ناد يجتمع فيه بضع عشرات من المصريين فى هذه العاصمة لايجدى ولا ينفع واقترح أحدنا أن نبحث عن ذلك فى دليل التلفون ، فكان ذلك وكان ان اكتشفنا موضعه .

. . .

سألنا أحد رجال البوليس فدلنا على الامنوبيس الذى يسير إلى بيكر استريت الشارع الذى فيه ولا يزال النادى الملكى المصرى ، وكان حسنا أننا لم نضطر الى تغيير فالأمنيبوس يسير من محطة فكتوريا رأساً الى هذا الشارع ويقف أمام النادى المصرى بدأ الليل يتقدم حينئذ، لهذا لم نر كثيراً من لندن فى رحلتنا هده من فكتوريا إلى بيكراستريت ، لم نر كثيراً لأن لندن تقفل متاجرها فى ساعة مبكرة . ولأن الظلام كان دامساً مغبراً .

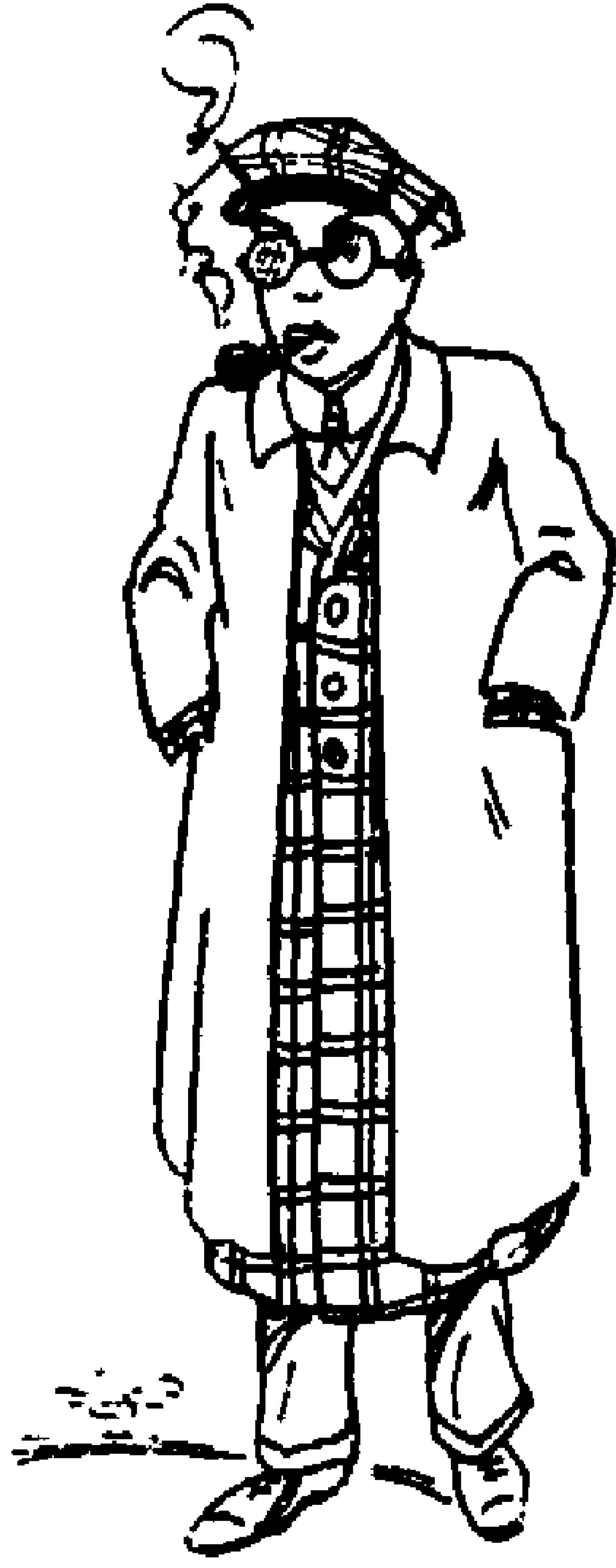
لم نجد داراً للضيافة فى النادى المصرى ، وكان اقتراحاً سخيفاً مى أن ننام ولو على مقاعد النادى الجلدية الوثيرة ، خيراً من الجولان فى هذا الليل المعتم فى لندن ولا ندرى أين نبحث .

لم نجد من المصريين فى النادي ليلتئذ ، غير اثنين أظنهما كانا من زائرى لندن اذ ذاك . ومع ذلك فقد دلنا أحدهم على منطقة تكثر فيها الفنادق والبنسيونات لا سيما للطلبة الأغراب . ولست أدري هل يشكر صاحبنا على نصيحة هذه أم لا ، لأنها نصيحته قد كلفتنا شيئاً ليس بالقليل.



وكان اقتراحاً سخيفا مى أن ننام ولو...

خرجنا نحمل جقائبنا . وخرجت أحمل فوق ذلك معطفين على كتفى لأن البرد بدأ يقسو إذ كنا فى الأسبوع الأول من اكتوبر . ومع اعتراض الدكتور ح . علىّ عن سيرى بمعطفين الا أننى أصررت على ذلك ، ولم أشعر بغرابة منظرى الا فى الصباح عند ما ذهبنا الى مكتب البعثة .



فكنت أسير بهذين المعطفين كأنى ألبس جبة وعباءة

كان أحد هذين المعطفين من الصوف البنى وكان فى تفصيله أقرب شبها بالمعاطف البلدية ، وكان الآخر من معاطف المطر الصفراء ، وكان قصيرا بعض القصر عن زميله. فكنت أسير بهذين المعطفين كأننى ألبس جبة وعباءة ، ولم أكن أرى فى ذلك ضيرا فى بادئ الأمر ، ولكن مودتى هذه لم تدم الا ليلة واحدة ، ليلتى الأولى فى لندن .

. . .

عند ما خرجنا نبحث عن منطقة الفنادق ، كان الظلام أكثر قتاما ، ولم يكن قاتماً فحسب بل كان مغبراً ، وكنت نرى هذا الاغبرار حول أنوار الشارع التى كانت تظهر باهتة صفراء .

وكانت الرائحة مقبضة ، أخذت تشتد وتشتد حتى كدت أختنق ، لقد ذكرتنى رائحة الأفران والطوابين فى القرى، حيث تحمى بالخشب الناشف والبوص وأقراص الجلة ! وقد ظننت فى بادئ الأمر أن هنالك حريقاً فى مكان ما !

وكان ذلك أول عهدى بالضباب ، بضباب لندن الاسود الذى ينتشر كأنه دخان الأفران والطوابين بسواده ورائحته المقبضة والمثيرة للعطاس .

ليلتى الأولى فى لندن ، كانت ليلة من ليالى اكتوبر ، الشهر الذى يشتهر بضبابه ويضرب المثل بشدته وسواده . وكانت الليلة تجربة غريبة لى ، تجربة لا أنساها ،

بل أذكرها كلما حل اكتوبر أو نوفمبر علي لندن وكلما اطلخم ضبابه ! ..

وصلنا المنطقة التى نبحث عنها وترجلنا من عربة الامنيبوس ، وأخذنا ندرس جانبى الطربق داراً داراً علنا نعثر على مكان نقضى فيه الليل . وفى بادئ الأمر قررنا أن يكون ذلك المكان بنسيونا لافندقا لغلو أسعار هذه الأخيرة .

وقد قادتنا الصدفة العمياء إلى جاوراستريت ، شارع جميع مساكنه بلا استثناء بنسيونات للطلبة الأجانب ، لأنه يقع خلف كلية لندن الجامعة ، وفيما نحن نحملق فى أبنية هذا الشارع ، قرأ أحدنا اسم « مدرسة طب المناطق الحارة » المدرسة التى سيدرس فيها رفيقاى ، لهذا عده الاخوان توفيقاً ، وأخذ الدكتور ح . . يغنى مدندنا ، وهو يغنى دائماً كلما يجد خبراً .

لهذا أجمع الطبيبان أن يبيتا فى احد بيوت هذا الشارع ، فلا يضطرا للبحث عن هذه المدرسة من جديد فى الصباح : وأخذنا نطرق الأبواب باباً باباً ، وكانت جميع هذه البنسيونات مشغولة ، ليس بها مكان خال لنا جميعاً ، وقد عرض بعض أصحاب هذه الدور أن يبيت بعضنا على المقعد،لم يكن ذلك ضيافة بل بدفع خمس شلنات.

سرنا من شارع إلى شارع ، وأخذ الضباب يشتد وكنا نسير صفاً واحداً ، يتقدمنا الدكتور ح . . الذى أبدل الغناء بالصفير فكان دليلنا .



وكنا نسير صفاً واحداً ، تتقدمنا الدكتور ح..

وأخذ الليل يتقدم فمرت الساعة الثانية عشرة، والواحدة والثانية ونحن نبحث ، ثم دخلنا فى حدود الساعة الثالثة صباحاً وقد بلغ منا الاعياء والتعب وأخذت أذرعنا تثقل بحمل الحقائب ·

. . .

ما ألذ النوم بعد البحث وبعد التعب والسهر ؛ ما ألذ أن نترك الضرب فى الطرقات تحت الضباب ، لنجلس فى حجرة مغلقة الأبواب ولو بدفع ـ كما دفعنا ـ عشر شلنات لأجل هذه الساعات الباقية من الليل .

كانت الحجرة باردة فى هذه الساعة المتأخرة ، وكانت فيها مدفأة ولكن لم أشعر بوجودها ، ولم أكن أعرف كيف أوقد غازها .

خلعت ملابسى ، وكان على السرير الذى أظنه أنه كان فاخراً لحاف زاهى اللون لعله من الحرير ، وكان سميكا · ولكننى عند ما جربته عند النوم وجدته خفيفاً ، خفيفاً جداً ، محشيا بالريش أو القطن المنفوش · لففت نفسى به ، وثنيت ركبتى لأنه كان قصيراً ، إلا اننى لم أنم لأن النوم على هذه الصورة لم يكن مريحاً ولأن هذا اللحاف الحريري الريشى لم يكن يدفئنى .

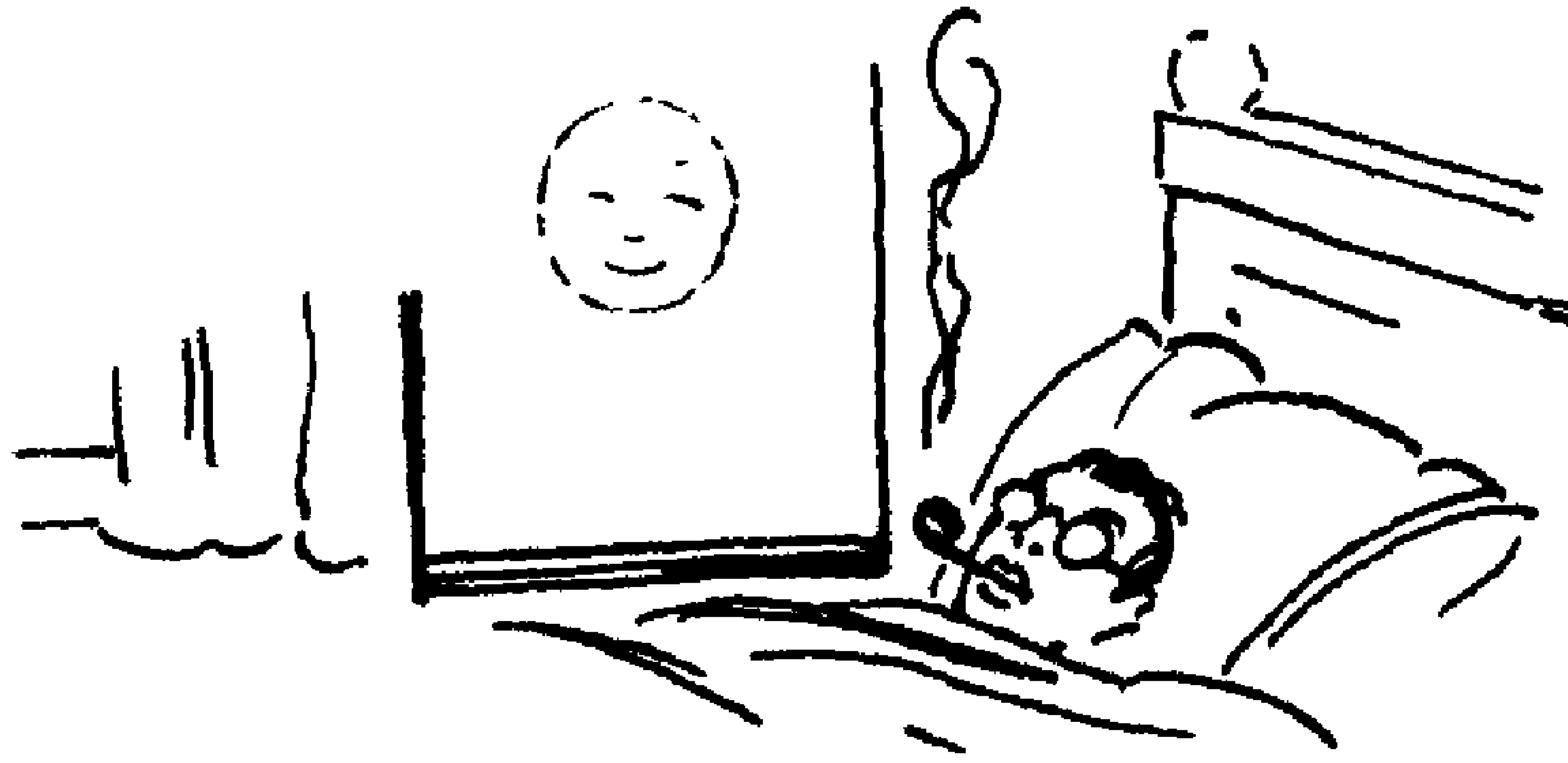
ولم يكن هنالك بد من أن أقوم وألبس جواربى ، ولم يكن هنالك من بد بعد ذلك من آن أقوم ثانية لألبس معطفى وغير معطفى حتى استعملت نصف ملابسى التى خلعتها قبل ذلك .

وهكذا نمت نوماً متقطعاً، أستيقظ كلما تخرج قدمى من حيز المعطف،أو كلما ينكشف صدرى . .

وفى الساعة السادسة أو السابعة ، ولم يكن ذلك الصباح مشرقاً متشمساً ، نقر الدكتور ح . . الباب ودخل لكى يسألنى شيئاً أو يقص علي أمراً ، فوجدنى أسب وألعن هذا البرود الانجليزى فى طريقة النوم . .

ولكن الدكتور ح . . لم يوافقنى على ملاحظتى . ولم أوافق نفسى على هذه الملاحظة . لأننى اكتشفت أننى كنت نائماً فوق ثلاث بطانيات من الصوف السميك قد عطيت بملاءة السرير البيضاء . . .

وفى الساعة السادسة أو السابعة صباحاً بدأت ليلتى الأولى فى لندن من جديد . .



لندن الجامدة

لندن فى نظر الزائر الأجنبي ، مدينة لانهاية لها ، مدينة لا مركز لها . ومدينة بلا مركز ، من العسير على الغريب فيها أن يكتشف حقيقتها .

وقد تختير الغريب -- إذا كان لبقا -- ميدان ترافلجار مركزاً تبدأ منه جولاته ورحلاته ، ولـكن ميدان بيكادلى وهايدبارك لا يقران مثل هـذا الاختيار ، لأن لندن مدينة بلا قلب واحد تتدفق منه الحياة إلى شرايينها العديدة .

لا يعيش أهل لندن فى لندن ، بل تحملهم عربات الامنيبوس والترام بعيداً عنها ، تحملهم بالآلاف من « السيتى » حتى البنوك حيث يعملون ، ومن « الوست اند » حيث يقضـون السهرة . يمرون بالزائر الأجنبي بوجوه جامدة لا تخبـر عن مهنهم وأعمالهم ، ولا عن ميولهم ونواياهم . ينظر إليهم الأجنبي بعجب ، كما ينظر إلى التماثيل ، التى لا تنطوى تحتها فـكرة ، والتى ليست بذات قيمة فنية .

قد يجد الزائر لندن ملأى بالمتاحف ، ولـكنه لا يجد فيها ما يستحق الفرجة بعد موكب عمدة لندن . ولا تستهويه ابنية لندن الغبراء حتى تربطه الحياة بها ، تربطه بها حياة العمل والعاطفة .

لا يعرف الأجنبي شيئاً عن الانجليزى إذا تفرس فى وجهه لأنه يخفى نفسيته ، كأنه أبو الهول امام معبد له تقاليده الخفية .

ولندن كأهلها ، لها هذا التأثير ، فكما انها مدينة لانهاية لها ، فهى كذلك مدينة خفية . والغريب عنها لا يعرف عن حياتها الاجتماعية ، إلا ان آلافا من أهلها مصابون بعسر الهضم من جراء الغذاء الذي يتناولونه بسرعة هائلة ، واللحم الذى يطهونه بطريقة غريبة ، والخضر التى يأكلونها بلا طعم . هذا هو طعام أهلها الذى تقدمه خادمات عصبيات منهوكات القوى، فى أركان أرضية مظلمة !

ليس فى لندن مقاهى تفيض حياة ، فكل ماتراه فى شوارعها يدل على فعل الحياة الآلية ، وعلى العمل المعقد الذى لاينتهى ... حتى أن الغريب ليفكر كيف يعيش فى مكان مثل هذا لايعرف الهدوء ..

...

ولكن إذا ما اكتشف الأجنبى ركنا هادئاً يزوى اليه ـ حجرة مفروشة فى منزل ـ فانه سرعان ماينسى انه غريب ، وسرعان ما يلفه دولاب العمل اليومى . وسرعان ما يعرف الكثير من الأصدقاء الذين يزاورهم ، لأن الانجليزى اذا ما فتح قلبه فتح بيته ..

قد يصارحك الفرنسى بأسرار حياته الخاصة بعد معرفة نصف ساعة ، ولكنه لايفكر فى أن يدعوك إلى داره

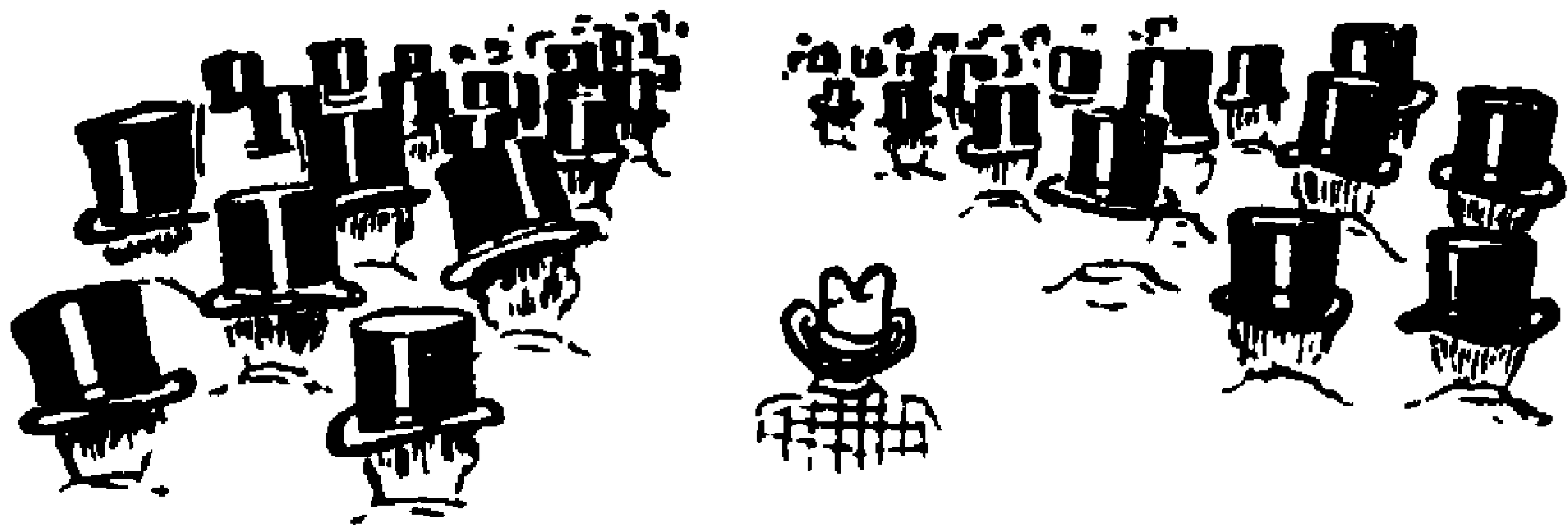
هناك كثير من الفرنسيين فى بعض البلاد الصغيرة ، ممن يجتمعون مرتين كل يوم، مدة ثلاثين سنة فى المقهى الذى اعتادوا التخلف اليه ، ومع ذلك فقد لايعرف الواحد منهم زوجة رفيقه ..

أما هنا فى انجلترا فقد تدعى إلى الغذاء ، ولو كنت فى مركز لا يمكنك من رد هذه الدعوة ، وسرعان ما تتبع هذه الدعوة أخرى لقضاء اجازة السبت والأحد . وتجلس بين مدعويك بلا كلفة ، وتتناول الطعام العادى الذى يتناولونه دون استعداد خاص

..

يعتقد الانجليزى بامتيازه ورقى نوعه ، لهذا فهو يجلس مع أى جماعة من أى جنس ببساطة وذوق، لشعوره المطلق بكماله وامتيازه ....

ج . ج . رنبير



مسلة كليوباترة

على ضفة التيمز ، وفى الطريق الواطئ الذى ينحدر من اشيرنج كروس ، ترتفع مسلة كليوباترة ، يحيط بها تمثالان من تماثيل أبى الهول الحديثة الصنع .

وتحت قاعدة هذه المسلة وضعت بلدية لندن فى عام ١٨٧٨ ـ وهى السنة التى اقيمت فيها المسلة فى هذا المكان ـ جرارا من الخزف احكم قفلها ، أشبه بالجرار التى خلفها قدماء المصريين . وتحتوى على كل ما يتمثل فيه ذلك العصر الفكتورى من ازياء ووسائل للمعيشة حتى اذا قدر لهذه المسلة أن تنتقل من مكانها إلى حيث ترمى بها يد القدر ؛ فان الجيل القادم ، سوف يخرج هذا الكنز التاريخى الى أحد المتاحف .

ففى هذه الجرار وضعت سترة كاملة من ملابس الرجال ، وملابس مختلفة للازياء النسوية ، وصحف مصورة ، وسجائر ، ومجموعة صور لأجمل السيدات فى ذلك العهد . وموسى للحلاقة ، ومجموعة كاملة للعملة من ربع بنس الى خمسة جنيهات .

وهكذا صار أقدم أثر فى لندن حارساً على هذه الكنوز الحديثة ، حارس عركه الزمن ، وعلمته التجارب كيف يكون أمينا .

. . .

مياه التيمز مرتفعة فائضة ، تصطدم الأمواج باحجار الشاطئ الصماء ، بينما تسير البواخر النهريه تدافع التيار ، بما تحمله من أخشاب وفحم ؛ منظر قبيح ممل .

كان ولدان يركبان ظهر أبى الهول . يلعبان . وكان السائرون من رجال ونساء

بقفون ، وينظرون بعجب الى النقوش الهيروغليفية التى قد جعلتها الشمس الغاربة واضحة جلية ؛ وبعض هؤلاء كان يدور حول قاعدة التمثال وينظر فاغر الفم ، يفكر فى معنى هذه الطلاسم ؛ ويشعر بأن وراء هذا التمثال الحجرى ، سرا وقصة . .

نعم . ان وراء هذا التمثال ؛ قصة يالها من قصة !

. . .

اربع وثلاثون قرنا مضت . . .

لم تكن لندن اذ ذاك ؛ غير بعض الهمج يصطادون فى مستنقعات التيمز .

اثينا لم تولد بعد ،

ودومة كانت مجهوله .

ولكن مصر وحدها ؛ كانت تحمل راية الحضارة . كانت وحدها تجاهد فى سبيل خلق أعرق حضارة عرفت على الأرض . وفى ذلك العهد السحيق ، وعلى ضفاف النيل ، كان هنا لك كهنة ، وكان هنا لك فلاسفة ، وكان هنا لك فنانون . وفى طيبة وفى قصر فاخر ، كان يجلس أعظم رجل فى العالم فى ذلك العهد ، كان يجلس طوطميس الثالث . ملك الوجهين ، ومانح الحياة والموت .

لعل طوطميس كان على مائدة العشاء ذات ليلة ، حينما فكر أن يخلد عظمته فى عين الزمن . حينما أمر أن تقام مسلتان على باب معبد عين شمس . وما أسرع ان بعثت الرسل إلى اسوان ، حيث محاجر الجرانيت الحمراء .

. . .

وها هو المهندس المعمارى يرسم تخطيطا لمسلة كليوباترة على الحجر . وها هى مئات من الظهور العارية قد انحنت على الصخر تحفره شهراً بعد شهر ، بأبسط وسائل الحفر ، تقطع الصخر بالصخر .

وفى حرارة الشمس المحرقة ، كان السوط يجد طريقه إلى هذه الظهور العارية التى

بللها العرق ، ويقرقع كأنه ألسنة الحيات ·

وبعد عام كانت المسلة فى طريقها من المحجر إلى المعبد ، وقد نقش عليها اسم صاحبها ، ثم نصبت مرفوعة الرأس أمام معبد الشمس فى هيلو بوليس . وعلى قمتها طبقة من الالكتروم تلمع فى ضوء الشمس ، حتى اذا مانظر الضارب فى الصحراء إلى مدينة اون فانه كان يرى عمودا ملتهب الرأس ·

وفى وسط زوبعة من الرمل ، تسير الجياد البيضاء تنهب الأرض وعلى رأسها يرفرف ريس النعام ؛ وعلى جانبى الطريق تقف صفوف الجنود ، وحملة المراوح ، وفى وسط الكهنة الراكعين ، يقف فرعون ينظر إلى مسلته ؛

« لابأس بها · · ان الآلهة قد رضيت الآن » هكذا ربما قال ·

· · ·

دارت طاحونة الزمن

كان موسى يرى هذه المسلة كل يوم فى طريقه إلى هليوبوليس · وكانت ضفادع الطواعين تثب على قاعدتها .

مائة سنة مرت ؛ وجاء رمسيس الأكبر ونقش اسمه عليها . ألف سنة أخرى ، وجاءت كليوباترة ونقلتها معها إلى الاسكندرية ، تسجل قصة أربع امبراطوريات ارتفعت وانحطت .

وبعد ألفين من السنين ؛ ظهر شعب جديد على الأرض ·

وهكذا حملت هذه المسلة إلى حيث الملك والقوة وهكذا اقتلعت من رمال الصحراء ، ووضعت على ظهر المحيط ، مغللة مقيدة ؛ لكى تنصب من جديد فى انجلترا .

وما أبعد الفرق بين هـذه الرحلة على مياه المحيط الصاخبـة المزبدة وفى جوه البارد القاتم ، ورحلتها الأولى منـذ نيف وثلاثين قرناً من أسوان إلى عين شمس ، تحوطها العيون وتدفعها الأذرع العارية فىضوء شمس مصر الباهرة ، وعلى ظهر النيل المقدس.

هنا ، منذ خمسين سنة مضت ، غرست هذه المسلة من جديد على ضفاف نهر بارد قاتم ..، ونقش عليها بيد مجهولة و بلغة حديثة فنية ، قصة حياتها فى أربعة أسطر .

. . .

وعلى ضفاف التيمز تقف مسلة كليوباترة مرتفعة الرأس ، تنتظر حكم الأقدار .

وفى ليلة أرسل رع فيها غضبه ، وست سخطها من الفضاء المظلم القاتم على رأس هذه المسلة ، فتفتت بعض هذا الـكساء الجرانيتى وسقط ..

وعلى رأسها ، وفىالضوء الـكشاف ، كنت ترى سمكة فضية تذرع الفضاء ، وتطن كطنين النحلة ، وتفقس بيضاً مهلـكا ترسله على الأرض ، فتخربها .

يالها من تجربة لمتعرفها مصر القديمة

. . .

هكذا تقف اليوم مسلة كليوباتره حزينة بائسة ـ أتعس تمثال فى لندن

إنها تنتحر .

فذلك الجرانيت الأحمر ، قد استحال أسود كالفحم ،وأخذ البرد والمطر يبرى جمالها يوماً بعد يوم خلال هذه السنين .

نعم هذه السنين الخمسين قدعملت فيها مالم تعمله الثلاثون قرنا التى مرت عليها وهى على ضفاف النيل .

. . .

وفى حلكة المساء ،
وتحت مياه المطر ،
وخلف ستار الضباب ،
تقف مسلة كليوباترة وحيدة ،
كأنها اصبع أسود مرفوع إلى السماء .
ينذر ولا يبشر ..



معرض مدام توسود

لست أدرى على أى أساس تقوم الشهرة ، وعلى اية قاعدة توزع . فالتاريخ يخلد أسماء كان أصحابها مصاب الانسانية ، ومع ذلك فاسماؤهم تقرع آذان الأجيال ، ويرددها الانسان فى كل عصر مع انهم قد عاشوا أعداء لهذا الانسان .

أتقوم الشهرة على المال والثروة ؟ أتقـــوم على العز والسلطان ؟ أتقوم عـلى العلم والحكمة ؟ أتقوم على البراعة والتفنن ؟ أتقوم على الدين والتقوى ؟ اتقوم على البطولة والفروسة ؟

قد تقوم الشهرة على بعض ذلك ، كما تقوم على اضدادها ، وكما تقوم على أتفه من كل هذا .

من هو ابو زيد الهلالى ؟ لا بل ومن هو جحا ؟ شخصيات خيالية لاأصل لها ولا حقيقة . ومع ان أبا زيد فارس خيالى الا انه اشهرمن كثير من الفرسان الذين عاشوا فعلا ، وحملوا السيف حقيقة . ومع ان جحا؛ شخصيته مبتكرة ، إلا أن اسمه قد عاش على ممر العصور ، مع أن خالقه ومبتكر أقصاصيه لا نكاد نسمع باسمه ، ولا نكاد نعرف عنه شيئا .

ولو كان حب الانسانية مقياس الشهرة ، لما تخلد اسم شارلس بيس فى انجلترا باجرامه ، وما تخلد اسم راسبوتين بفسوقه

فالاجرام يخلد اسم صاحبه ، كما يخلده حب الانسانية والعلم والحكمة والبطولة .

والحب والغرام أساس آخر تقوم عليه الشهرة . والجنون بالحب لا يقره مجتمع ، ومع ذلك يخلد اسم هؤلاء العاشقين، ويخلدون معهم أسماء من أحبوا ومن عشقوا . وترتل لهم الأغانى والاناشيد ، التى يتناقلها شباب كل جيل ، يحفظونها كآيات قد قدسها الغرام والحب .

والشهرة فى عالم المرأة يقوم الجانب الأكبر فيها على شهرة الحب والجنون بالحب . فكليوباترة لم يبق من ذكراها الا انها التى فتنت والتى أحبت ، لاالتى حكمت والتى ملكت اللهم الا على القلوب والنفوس .

. . .

تتواتر على خاطرى مثل هذه الافكار كلما أزور معرض مدام توسود ، وكلما أمر على بابه .

معرض مدام توسود ، عالم من الشمع .



يمثل لك فى مثل هذا المعرض شخصيات العالم البارزة مصورة فى تماثيل من الشمع نكاد تحاكى الحقيقة. هذه هى الشخصيات التى تقرع أذان العالم ، هذه هى الشخصيات التى كتب لها الخلود ، كتب لها أن تعيش وان طويت تحت الثرى ، وان لاقت فى حياتها بؤسا ونصبا ، ولم يرحب بها المجتمع فى الحياة ، الا انها وقد أمست فى ذمة التاريخ ، وصارت أسماء أصحابها ذكرى ، فانها تتنفس الحياة من جديد ، حياة الشهرة وحياة الخلود .

وما الفرق بين انسان من لحم ودم ، وانسان من شمع ودهان ؟ اذا كان كل منهما جامدا فى مكانه . جامدا فى تفكيره ، جامدا فى احساسه لايثار ولا يستثير ! وما أكثر هؤلاء الذين يعيشون معنا ، ويقضون فترة الحياة بسنيها المعدودة كما نقضيها . وهم ليسوا أقل جموداً من هذه التماثيل الشمعية :

وهكذا كثيراً ما تخطىء العين الفرق بين الانسان وغير الانسان ...

وهكذا تخطىء اذا مامررت فى معرض مدام توسود وحاولت أن تبيعك تلك الفتاة الانيقة برجراما المعرض فتبسم لك وتبسم لها ، وتظن انك ملكت ناصية الحياة . فاذا بهذا الوجه الباسم ، الذى ملأ قلبك عاطفة حارة ، اذا بهذا الوجه تمثال من الشمع . لايخفى وراءه قلبا يتدفق فيه الدم . بل عوارض من الخشب ومسامير من الحديد ! !

ألسنا نعيش فى عالم من الخيال والتصور ؟

. . .

إذا مامررت على هذه الفتاة الأنيقة . وعرفت كيف ان العين تخطىء وان سهام الغرام قد ترسلها عيون من الشمع المصبوغ ، اذا ما اكتشفت ذلك فانك تسير حذرا اذا مامررت على انسان صامت لايتكلم .

ولا تكاد تتخطى القاعة الكبرى ، حتى تمر على رجل من رجال البوليس ، واقف لايتحرك ولا يتململ من وقفته ، ولكنك تبتسم له ، ابتسامة العارف ببواطن

الآمور ، فان فتنتك تلك الفتاة بعيونها المكحولة ، فلن يهزأ بك هذا الشرطى الجامد . فتبسم له . فيبتدىء هذا ا الشرطى فى الحركة والحياة ، ويرد لك ابتسامتك ساخرا. وهكذا تخطىء ثانية وتخدعك عيناك، اذلم يكن ذلك الشرطى تمثالا من الشمع والاصباغ ، بل هو انسان حى .

أاسنا نعيش فى عالم من الخيال والتصور ؟

. . .

فاذا مادخلت القاعه الكبرى ، أخذت الألوان الزاهية وبريق التيجان ولمعان الأوسمة والسيوف المغمدة والمسلولة تخطف البصر .

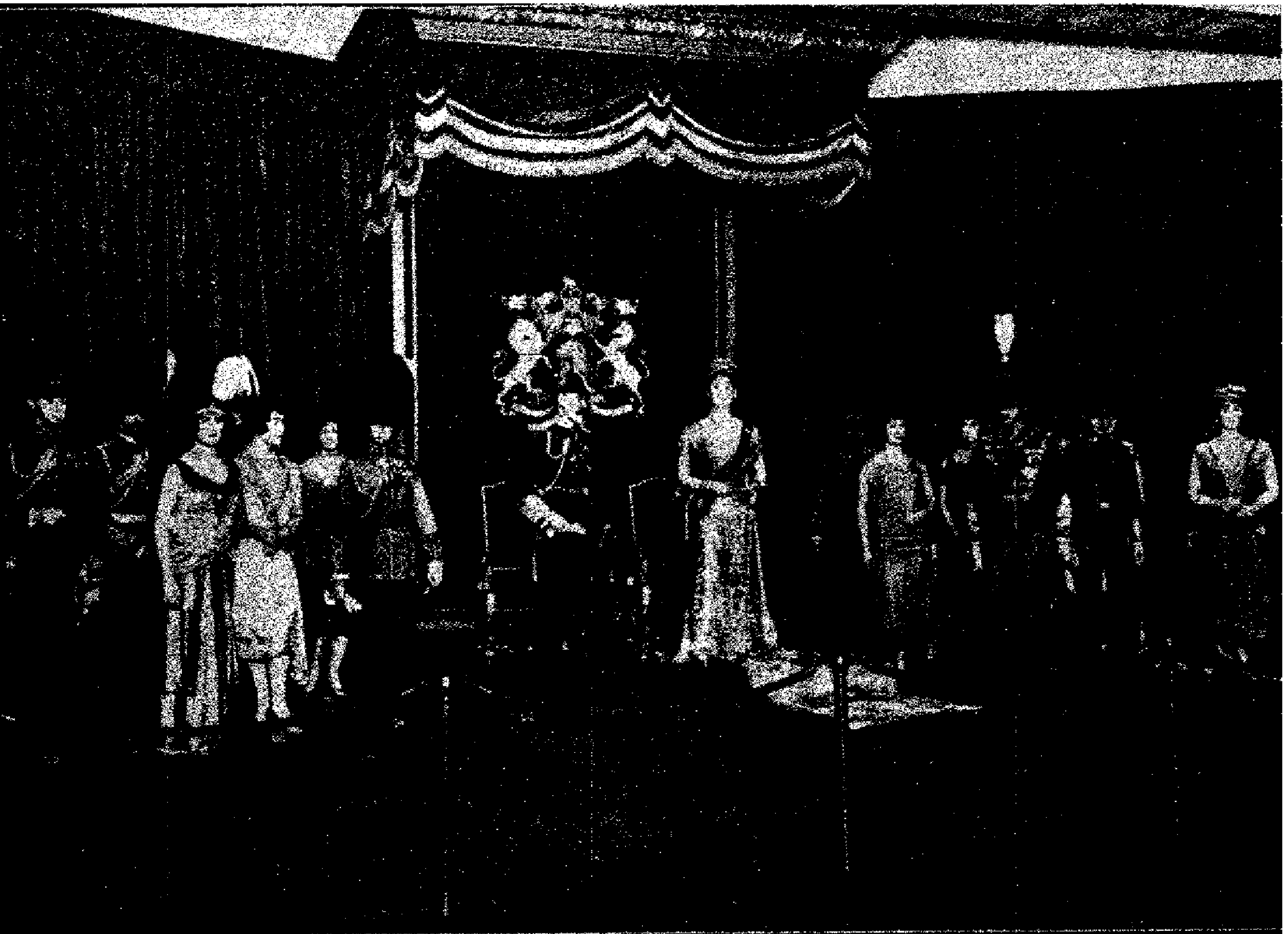
وفى وسط المكان ، تقف العائلة المالكه الانجليزية ، يتوسطها الملكان أمام عرشيهما يحملان التاج ويلبسان مسوح الملك . خير لك أن تسمع بها ولا تراها ، ألوان فاقعة زاهية ، وبريق الذهب ، ولمعان أحجار الماس ، لايبهر الا العين الفطرية البربرية ، فاذا ماأطبقت العين أجفانها ، تلاشت هذه العظمة ، عظمة مبنية على الألوان والأصباغ وانعكاس الضوء وانكساره ، عظمة لاترسب إلا فى قلب المرأة !

ألا تراها تقترب من الملكة وتمعن فى لباسها الحريرى ، وتدمن النظر الى عقد الماس (المزيف) الذى يتدلى على صدرها . ألا تراها تنظر بذهول الى التاج ، تلك النظرة التى دفعت زوجة ماكبث الى القتل والغدر !

لا، ليست هذه العظمة تستهوى قلبى . وليس هذ الجمع من الأمراء يجعلنى اقف شاخصا ، أو مفكرا أوساهما . عظمة تقليدية ، نخلقها لنعبدها .

وعن يمينك تجد جمعا آخر . وجوها تعرف بعضها وتعرف أصحابها من كتب التاريخ .

هذا نابليون بونابرت ، بخصلة الشعر المتدلية على جبينه وبيده فى (عبه) وبسراويله البيضاء الضيقة . ليس بالمديد فى قامته ولا الضخم فى جثته ، ولا القاسى فى نظرته ،



العرش الانجليزى

بل ان عينيه الساهمتين ، أقرب الى عيون الفنانين والشعراء والخياليين من عيون رجال الحرب والدمار .

ومن بجانبه ؟ لويس السادس عشر وولداه ومدام دي بنبادور . أليست هـذه المأساة مضحكة ؟ أو لعلها فـكاهة محزنة . هكذا جمع فنان المعرض من لم تجمعهم الحياة . ومن ارتفع الى العرش على اشلاء عاهله ، ومن مات فى سبيل حياة غيره .

...

وعلى مقربة من هؤلاء ، الوزراء الانجليز وهم وقوف بملابسهم الرسمية ، يتوسطهم ماكدونالد فى موقف خطابى ، وبجانبه مس بونفلد الوزيرة الانجليزية . وكم امرأة تمر على هذه السيدة وتحبوها بتلك النظرات الزائغة ، كما تحبو الأميرات والملكات ؟ وكم فتاة تقف امام هذه السيدة مطأطئة الرأس وتحمل لها فى صدرها الاكبار والاعجاب . لا الغيرة والحسد عند الصغير الضعيف ؟

وفى الجناح الآخر الذى يملأه السياسيون والقواد . لا أجد من يستأهل الوقوف وامعان النظر الا اثنين . لورد نلسن بوجهه الشاحب ، وبعينه المقلوعة . وبذراعه المبتور . عظمة مبنية على التضحية ، مبنية على عبر الأوسمة والتيجان وملابس الحرير وأطواق الذهب

ثم ذلك الجندى المغبر الوجه ، الكث الشعر واللحية ، المعفر الحذاء ، المرقع الملابس ، الذى يحمل ماتبقى له من زاد من خبز ناشف أسمر فى جراب ملطخ بالطين وغبر الطين . هـذا هو الجندى المجهول الانجليزى ، الجندى الذى كسب الحرب العظمى . أو « جونى » عائدا ظافرا الى انجلترا بعد سنى الشقاء والعناء .

شعب يتمثل فى فرد ، وفرد يمثل شعبا ، كل فرد من أفراده هذا الرجل . يموت هذا فى سبيل شعبه ، ويضحى الشعب فى سبيل هذا الفرد .

هذه العظمة التى ترتكز على الحروب والدمار أو على الملك والسلطان . ليس فيها

نفحة الخلود ، اذا لم يكن الموت الذي ترسله على ابناء آدم في سبيل حياة اسمى وارفع...

. . .

وفي ركن هذه القاعة ، وجوه أعرف أصحابها جميعا ، ووجوه تطل علينا في وحدتنا ، وترفرف علينا روحهم كلما رجعنا الى أنفسنا . هؤلاء حملة الاقلام ، لا حملة السيوف ، ورجال الفكر والخيال ، لا رجال الحرب والقتال .

في مؤخر الجمع ارقب شوسر بلحيته السوداء المستديرة وبوجهه السمح وابتسامته الهادئة ثم بثوبه من المخمل الأسود الذي يشبه الزعبوط . هذا شوسر الذي كتب لنا « قصص كونتربرى »

ومن الذي قرأ هذه الأقاصيص ولا يحب شوسر ! ومن الذي قرأ شعره الجذل ووصفه الممتع وفكاهته المستملحة ، ونقده اللاذع المقبول ، ولا تقف هنيهة بملء العين بهذه الصورة المجسمة لجوفرى شوسر .

وبجانبه وقف شكسبير بملابس عصره ، وقد وضع يده تحت خده يفكر ، ولكثرة ما نقرأ لشكسبير ونقرأ عن شكسبير ، صارت صورته قريبة الى الفكر والخيال ، حتى انها لا تهز قلب المتفرج فيقف مليا امام صاحبها .

وننتقل العين الى ملتن ، بملابسه البيوريتانية ، صورة لا تثير فيك اعجابا ، صورة لم يرد «هزات» ان تطل عليه في حلمه عند ما كان يفكر فيمن يحب أن يراهم من رجال الأدب الأقدمين ، ملتون من الذين تحب أن تقرأ لهم وتمعن في قراءتهم ، ولكنك لا تحب أن تعيش معه وتتحدث اليه ، وتحتفظ بصورته .

هذا ملتن الذي خلف لنا الفردوس المفقود ، وشمشون ودليله ، وكومس . هذا الذي تحدث لنا عما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ، ولو ان ملتن تحدث عن الأرض وعن أهل الأرض وعن نفسه ، لكان تصويره مهزولا جامدا .

واين ملتن من شخصية الدكتور جونسون ، وأين ملتن من شخصية سويفت .



ركن الأدباء والشعراء

وأين هو من بوب ! هؤلاء الذين عاشوا ملوكا للأدب فى عصورهم ، عاشوا بشخصياتهم وخلدوا شخصياتهم فى أدبهم . تنظر الى جونسون ، بجسمه الضخم وهو جالس فى وسط هذه الجماعه ، فتتصور جونسون وهو جالس فى « النادى الأدبى » فى فليت استريت ، منذ قرن ونصف مضى ، وتتصور حوله جرك وبوزول وجوها ناربنالد

وليس بعيدا عنه يقف « دين سويفت » مؤلف رحلات جلفر فيذكرنى ببشار ابن برد بضخامة جثته ، وبمزاجه السوداوي .

ثم يجلس فى المقدمة ادباء العصر الحديث . ويلز واقف كأنه انموذج فى نافذة أحد الخياطين ، وبرناردشو بذقنه الطويله وشعره المسترسل وبضحكته التهكمية ، لا يريد أن يثبت فى مكانه . جالورزى جالس ، يصلح أصول بعض رواياته .

فى الجانب الآخر يقف رجلان فى شبابهما . شاعران استمتع بشعرهما ، أحدهما فلاح ساذج ، والآخر استقراطى نبيل ، روبرت برنز الفلاح الاسكتلندى وشاعر الطبيعة ، وبيرونز شاعر الحب والشباب .

وبجانبهما يقف وولتر اسكت ، اسكتلندى آخر ببندقيته وبكلبه وبملابسه التى تشبه ملابس فرسان القرون الوسطى ، شخصية ما أبعدها عن شخصية مواطنه بيرنز . شخصية لا أحبها . وهكذا نخرج من القاعة الكبرى .

. . .

ليس فى القاعة المجاورة من شخصيات أحمل لها فى نفسى مثل هذا الحب الذى أحمله لأصحاب هذا الركن . شخصيات لم تجمعنى بهم رابطة ولا صداقة .

هؤلاء أبطال التنس والجلواف والكرة ، هؤلاء الطيارون والسباقون وحملة الأثقال ، هؤلاء الممثلون والممثلات . مالى ومالهم ، لم أتشرف بعد بمعرفتهم ، ولا أظن ذلك يوما

ولكن لماذا حشروا عاندى فى ركن هذه القاعة ؟ عاندى بأسنانه المهتومة ،

وبابتسامته الساذجة ، وبرأسه الأصلع ، وبنظارته وبعلايته البيضاء ، (يتربع) فى ركن هذه القاعة !

وبجانبه يقف ثائر آخر ، يقف ديفاليرا ، الزعيم الأرلندى ، وهكذا يجد غاندى سلوي، بين هؤلاء الرياضيين والممثلين .

ونترك هؤلاء لنصعد الى القاعة العليا ، لنزور ملوك انجلترا من وليم الأول الى



ادوارد السادس . وقليل من هذه الشخصيات تستحق الوقوف والتأمل . الملك جون الذى منح الشعب الانجليزى الدستور منـذ عشرات القرون ، أشبه بالشاعر

شوسر بجلبابه وبالحزام الذى يتمنطق به، ثم رتشارد الثالث وهنرى الرابع ، يقفان جنبا لجنب ؛ وقد اغتصب هنرى الملك من رتشارد اغتصابا بعد أن قتله . لعلهم الآن تناسوا على مر الأجيال حقدهم وحفيظتهم .

ثم هنا هنرى الثامن يداه فى خصره كأنه أحد الفتوات ، وبذقنه الدائرة ووجهه العريض وريس قبعته . يذكرنى بسانكوبانزا ، ثم ماذا ؟

هذا الجمع من الفتيات والنساء اللاتى يحطن به «ماشاء الله» عددتهن ثمانيا . بينهن الشقراء والبيضاء والسمراء والطويلة والقصيرة ، والضخمة الملظلظة والرفيعة الهيفاء .

وبجانبه انا بولين الفرنسية ، كأنها صبى . قصيرة ، نحيفة القد والوجه ، تحمل عصا أو سوطا لا أذكر . هذه الفتاة كانت زوجة لهنري هذا . ماأبعد الشبه : وما أوضح الاختلاف ! كم حزنت لها . ولكن من يدرى لعلها كانت تهزأ بى لو علمت؟

هنرى الثامن بجسمه الضخم وبلحيته الكثة وريس قبعته وبفرائه الأبيض وبساقه العارية ؛ وهو بين زوجاته الكثيرات . كأنه الديك شونتكلير فى قصة شوسر وهو واقف يرفرف وسط زوجاته . وكأن انا بولين بجسمها المهضوم زوجة شونتكلير العزيزة . برتيلوت .

. . .

وإذا عرجت على القاعة التى خفت ضوءها . ترى صورا أكثر حياة من هذه التماثيل الجامدة . مناظر مجسمة لبعض مواقف التاريخ الهامة .

الملك جون يسلم الماجنا كرتا الى ممثلى شعبه . نلسون وقد أصيب فى موقعة الطرف الأغر . نابليون على سرير الموت ، وغيرهم وغيرهم . .

وهنا وقفت جامدا أمام منظرين ، وأقف أمامهما جامدا كلما زرت هذا المعرض .

الأول يمثل مقتل مارى ملكة اسكتلندة ، والآخر مقتل غردون فى الخرطوم

المكان الأول غرفة من غرف «برج لندن» ماأشبهها بالباستيل فى باريس! الجدران

حجرية سوداء ، والوقت شتاء ، اذ ان نار الموقد تستعر بشدة وتعكس ضوءها الأحمر على الواقفين فى الحجرة . وفى وسط القاعة تركع الملكة الشابة الجميلة ، وهى مغمضة العينين على قطعة من الحجر أو الحديد .

ويقف الجلاد بملابسه السوداء وبغطاء وجهه الأسود يحمل الفأس التى سوف نفصل بها هذه الرأس الجميل البديع عن جسم صاحبته

وبين هؤلاء الواقفين بعض النساء لعلهن وصيفات هذه الملكه الشابة التعسة ينظرن بذهول ، ويبكين ويتضرعن

يالها من نهاية ؟ انى أبكى على الشباب وارثى الجمال، واندب الانوثة الغضة، ونست ارثى ملكا واندب سلطانا !



حمام ترافلجار

فى ميدان ترافلجار الفسيح ، وهو الميدان الفريد فى لندن ، وتحت ظل عمود نلسن الهائل ، وتحت أقدام الكثير من تماثيل الاسود الفرسان والقواد التى تحيط به — نجد مئات من الحمام الأسمر ، يطير ويحط على أرض الميدان وعلى حنايا هذه التماثيل ، ثم على أكتاف السائرين .

حمام أليف . لم يعد يخاف الانسان ، ولا يهرب منه — بل يهرع الى كل سائر يرمى له الحب وبفتات الخبز . وما أشبه هذا الميدان الفسيح بتماثيله ، وما أشبه هذا الحمام الوديع بميدان سان مارك فى البندقية .

وهدا الحمام رسول السلام ، ورمز الحب . ولكنه لم يجد مكانا يرفرف فيه إلا ميدان ترافلجار ، ميدان اخذ اسمه من الحرب ومن القتال . ولست أدرى ماذا كان يصنع هذا الحمام لو درى بهذه الحقيقه ؟

ولكن لعله يريد أن يكون رسول السلام فى ميدان بنى لتخليد رجال الحرب ، ويعلم الانسان كيف الخلاص من نير الحروب

. . .

ما أرق قلب هذا الشعب الذى لا يرضى بحبس الحمام ، بل يتركه طليقا ، ولكن بين تماثيل الفرسان والقواد الذين خلدتهم الحرب والنيران !

. . .

وتمر السيدة الريفية بميدان ترافلجار ومعها أطفالها، وتشير بأصبعها من نافذة عربة الامنيبوس إلى عمود نلسن الهائل ، تذكر أبناءها بموقعة الطرف الأغر التي أحالت مياه المحيط الى حمرة قانية

تذكرهم بنلسن العظيم ؛ لتذكي في دمائهم حرارة الفروسية وتنسى تلك المئات من الحمام الأسمر الذي يطير ويحط على حنايا هذه التماثيل ، وعلى أكتاف السائرين ، تنسى أن هذا الحمام رسول السلام ورمز الأخاء على الأرض ...



البرلمان الانجليزى

فى كل يوم من أيام السبت يفتح البرلمان الانجليزى أبوابه للجمهور، كما تفتح بعض القصور الملكية أبوابها ، اذا كان الملك والملكة لا يقتضيان اليوم فيها .

نفتح هذه الأبواب للشعب لكى يعرف ما يجرى وراء جدرانها ، لكى يعرف كيف يعيش من يحيون صورته بالوقوف وخلع القبعات ، لكى يعرف شيئاً عن المكان الذى يجلس فيه اولئك الذين يمثلونه فى التشريع والحكم ، لكى يعرف شيئاً عن المكان الذى يقضى فيه أمر امبراطوريتهم ويبرم .

الشعب الانجليزى لا يمنع عنه شيء ، ولا يقفل باب فى وجهه ، ولا يحرم حق المعرفة والدراسة العامة ، مدارسهم ، ومكاتبهم ، ومتاحفهم ؛ ومعارضهم ، ومصانعهم وقصورهم مفتوحة للجميع بلا قيد ولا شرط ولا بدفع اجر .

بل انهم يسجعون الشعب على الاحاطة بما يجرى وراء هذه الأبنية العامة ؛ ففى المتحف الامبراطورى ، تجد مكتبا لتسجيع الشبان على الاستعمار ؛ وللاستشارة المجانية التى تعطى لكل شاب يريد النزوح الى أى ركن من أركان الامبراطورية .

هكذا ينشأ الانجليزي شاعراً بأهميته الفردية ، شاعرا بحقوقه ، عارفا بواجباته ، لا بقراءة ذلك فى الكتب والمذكرات المدرسية ، بل بما يراه حوله من وسائل التشجيع ، ومما يراه من مظاهر السهر على حقوقه وعلى مصالحه العامة والخاصة

. . .

لا شك أن البرلمان الانجليزى أفخم بناء فى لنـدن ، تشعر وأنت واقف تحت جداره الأسود ذى النوفذ المشبكة والزخارف القوطية القديمة ، بأنك فى ظل معبد من معابد الصين أو الهند . وقفة تشعرك بالرهبة ، وبالعظمة والوقار ؛ كذلك الشعور الذى تملكك وانت واقف تحت ظلال الهرم الأكبر فى ظلمة المساء .

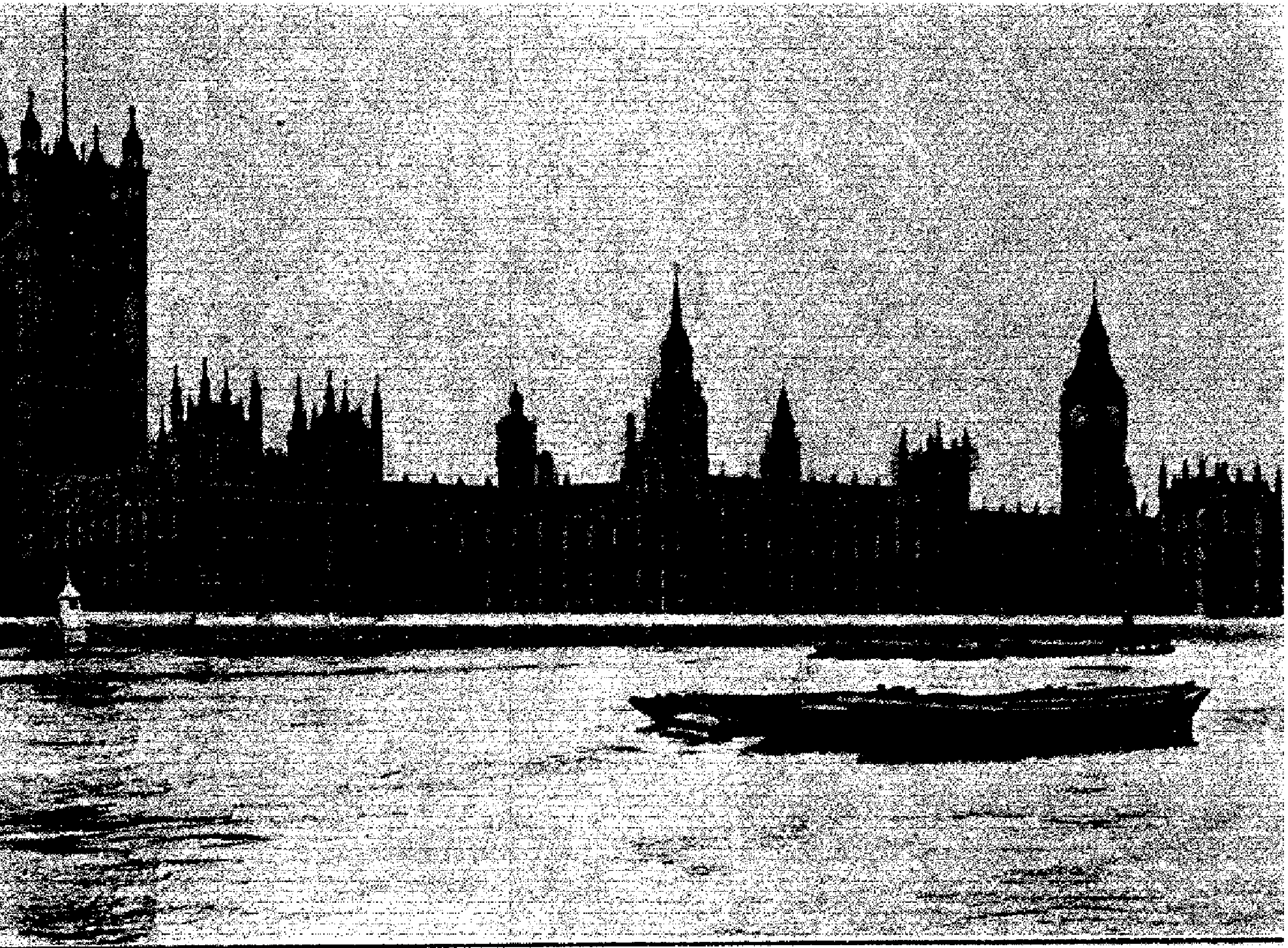
البرلمان الانجليزى صورة ممتازة للندن ، ومن أى وضع تلتقط هذه الصورة فانها تترك فيك أصدق اثر عن لندن . لندن التى تلمح جمالها فى عظمتها وضخامة ابنيتها السوداء .

وقفة على كبري وست منستر فى الليل ، فى الليلة المظلمة العابسة ، تحت المطر وتحت الضباب الأسود ، تشعرك بجمال البرلمان الانجليزى الذى يقف كأنه البرج الحصين ، أكثر سوادا من الليل والظلام، تنبعث من نوافذه اللا نهائية أنوار تظهر ضئيلة خافتة من وراء زجاج هذه النوافذ المشبكة .

وتحت أقدامه يجرى التيمز ، يجرى الآن كما كان يجري عاما بعد عام وقرنا بعد قرن ، وهذا البناء الشامخ يطل عليه من الضفة اليمنى ؛ يجرى التيمز بمياهه البيضاء الباهتة ، كما يجرى النيل حول قصر أنس الوجود ، يلثم اقدامه للتبرك .

البرلمان الانجليزى فى لندن ؛ كبرج ايفل فى باريس ، وكقصر الدوق فى البندقية ، وكالقلعة فى القاهرة،وكناطحات السحاب فى نيويورك ، لاتراها الا وتعرف من النظرة الاولى ان هده لندن وباريس والبندقية والقاهرة ونيويورك .

البرلمان المجرى الذى يطل على الدانيوب قـد يشبه بعض الشبه هذا البرلمان الانجليزي وان كان لايرسل الرهبة التى يفيضها هذا البناء على النفس ؛ الرشستاغ « برلمان برلين » ابعد منه شبها ؛ هو تحفة فنية بديعة ، بناء أنيق ، بقبابه الذهبية ، وتماثيله وأعمدته ودرجاته الرومانيه العريضة؛ وهو أصلح مايكون دارا فخمة للاوبرا ، أو متحفا لطرائف الفن، أو كاتدرائية .



البرلمان الانجليزى من التيمز

...

من أحد الأبواب العديدة ، التى فى طرف البناء الخلفى ، يسمح للزائرين بالدخول .

أى شعور يتملكك وانت تعتلى الدرجات القليلة التى تقودك الى البهو الأوسط ؟ أى ذكريات تختاج فى نفسك وأنت تلج هذا البهو الواسع الرحب بسقفه المرتفع وجدرانه المزينة بالصور الزيتية المنقوشة وبتماثيله النصفية والكاملة ؟

التاريخ الانجليزى قديمه وحديثه يمر امام ذاكرتك، تذكر الحروب والمواقع التى حددت اتجاه هذا التاريخ ، تذكر الملوك الذين تربعوا على عرش هذه الجزائر من وليم الفاتح الى جورج الخامس ، تذكر الملكات اللاتى زهت انجلترا فى عصورهن ، تذكر الياصبات والملكة فكتوريا

ولكن لا . ان ذكريات أخرى تجعل كل هذه الأسماء تتلاشى من مخيلتك . ذكريات الساسة الذين بنوا هذه الامبراطورية بخططهم وبمعاهداتهم وبدسائسهم ، إنك تذكر الخطباء الذين كانت ترن أصواتهم فى جدران هذه القاعات ، إنك نكاد نسمع صدى صيحات الاستحسان أو الاستهجان التى كانت تتردد فى هذه القاعات .

إنك نكاد تسمع توماس بيرك يتكلم عن استقلال أمريكا ، حين كانت مستعمرة انجليزية ليس الا .

إنك تكاد تسمع صيحات شردان بلهجته الارلندية ، وتتصور جلادستون ودزرائيلى بجسمه الناحل وبنظراته النافذة ، عند ما كان يتحدث عن الهند ، وعند ما كان يشرح مسلكه تجاه قناة السويس ، وعند ما كان يتنبأ لنواب ذلك العهد الفكتورى بأهمية هذه الترعة التى لا تشق الا الصحراء ..

تنتقل من هذه القاعة وتسير من قاعة إلى قاعة ، جميعها من الرخام وجميعها مزينة بتماثيل الملوك والقواد والساسة ، وعلى جدرانها عشرات الصور الزيتية البديعة المنقوشة على هذه الجدران .



قاعة مجلس اللورداب



قاعة مجلس العموم

هذه الصور تمثل لك مراحل التاريخ الانجليزى ، تمثل لك المواقف التى كان فيها الملوك ينزلون للشعب عن رغباته ويرضخون لمطالبه ؛ مثل هذه الصور التى تزين بها قاعات البرلمان الانجليزى لها معناها ومغزاها ، لم تختر عبثاً ، وليس فيها مذلة للملك ، بل انها تذكر النائب الانجليزى الجديد الذى يسير فى طريقه إلى قاعة المجلس ، ان أولئك الذين كانوا يجلسون على هذه المقاعد التى يجلس عليها اليوم ، هؤلاء قد جاهدوا وعملوا فى سبيل تثبيت أساس هذه الدار .

ثم تسير فى سراديب طويلة ضيقة ، على جانبيها القماطر المتلاصقة المشحونة بالمراجع والكتب والتقارير ومحاضر الجلسات التى يرجع تاريخها إلى قرون .

تقارير فى كل موضوع ، كتبت فى عهود وعصور مختلفة ، تجعل النائب الانجليزى يزهو بنفسه إذا ما أراد دراسة بعض المشاكل الراهنة ، يزهو بنفسه عندما يجد عشرات التقارير والدراسات التى قام بها أخصائيون ونواب ووزراء مرت عليها مئات السنين ، وما زالت تنتظر من يفحصها ويراجعها من جديد !

. . .

وبعد أن تنعطف يميناً وشمالا وشمالا ويميناً ، ندخل قاعة مجلس العموم ، وهى من خشب البلوط المنقوش نقشاً دقيقاً ، ذات أعمدة متدلية من الخشب أشبه بقاعات بعض الكنائس ، وهى ليست دائرة بل مستطيلة ، ذات بابين متقابلين .

والداخل من أحد البابين يجد مقعد خطيب المجلس ، ومن الآخر رئيس المجلس ، وبجانبه مقعد يسع جالسين ، هذا مخصص للنائب الجديد ، يجلس فيه قبل أن يقسم يمين النيابة ، وأمام هذين المقعدين قضيب من النحاس يفرد فيقفل الطريق إلى داخل القاعة . على هذا القضيب النحاسى يقسم النائب الجديد اليمين ، ثم يرفع ليفسح له الطريق ...

ومقاعد النواب ليست مستقلة بل متجاورة ، وهى مكسوة بالجلد الأحمر

الزاهى ؛ ولعل هذه المقاعد قد صنعت منذ عهد بعيد ، أو لعل حركة النواب على هذه المقاعد دائمة ، لأن بعضها باهت قد تسلخ غطاؤه .

وإنك لتعجب كيف لايفكر نائب فى تجديد مقاعد زملائه ، بل كيف لايفكر رئيس المجلس فى ذلك وهو يجلس على مقعد باهت متسلخ ؟! ولكن هذه ملاحظة شرقى قد ربط فى عقله العظمة بالوجاهة ، والجاه بالفخامة ؛ فالنائب الذى يفكر فى اهمية انسلاخ الهند من الامبراطورية لايفكر فى انسلاخ جلد المقعد ، والذى يفكر فى تجديد سياسة أو قانون ، لايفكر فى تجديد أثاث قاعة المجلس .



حيث يتناول الاعضاء الطعام . .

وفى الجانب الذى يواجه موقف الخطيب ، شرفة الزائرين والزائرين الممتازين ، وفى الجانب الآخر منها شرفة عالية مسورة بالقضبان والزجاج ؛

ما أشبهها بشرفات النساء فى الشرق ! وليست هى أكثر من هذا . نعم هذه شرفة السيدات الزائرات للمجلس . وقد سورت بالقضبان ، لكى لا يتسنى لهؤلاء الزائرات أن يقذفن النواب أو الخطباء بالزجاج أو غير الزجاج ، إذا كن لايرضين عما

يجرى بين النواب ، كما حدث أكثر من مرة .

هذه القضبان وهـذه الحواجز لم تصنع لمنع فتنة النواب بالزائرات الفاتنات ، بل لمنع أذاهن وخطرهن على الرءوس والأنوف ؛ نعم هذه المقاصير المسورة فى البرلمان الانجليزى ، اقرار بطبيعة المرأة الثائرة ، التى لا تحتكم لعقلها كما تحتكم لعاطفتها .. ومع ذلك فان فى هذه العاطفة الثائرة نبلا . جدير بالمرأة الانجليزية أن تذكره وتتيه به

. . .

تخرج من باب المجلس الآخر وتسير فى ردهة فارغة عدا ما بها من التماثيل والصور والمشاجب وردوف للخطابات ، فتدخل قاعة مجلس اللوردات

وهى قاعة أقدم من زميلتها تاريخاً ، وأفخر أثاثاً ، وأقل حجما . ولكنها لا تختلف كثيراً عن جارتها فى نظامها وفى ألوانها .

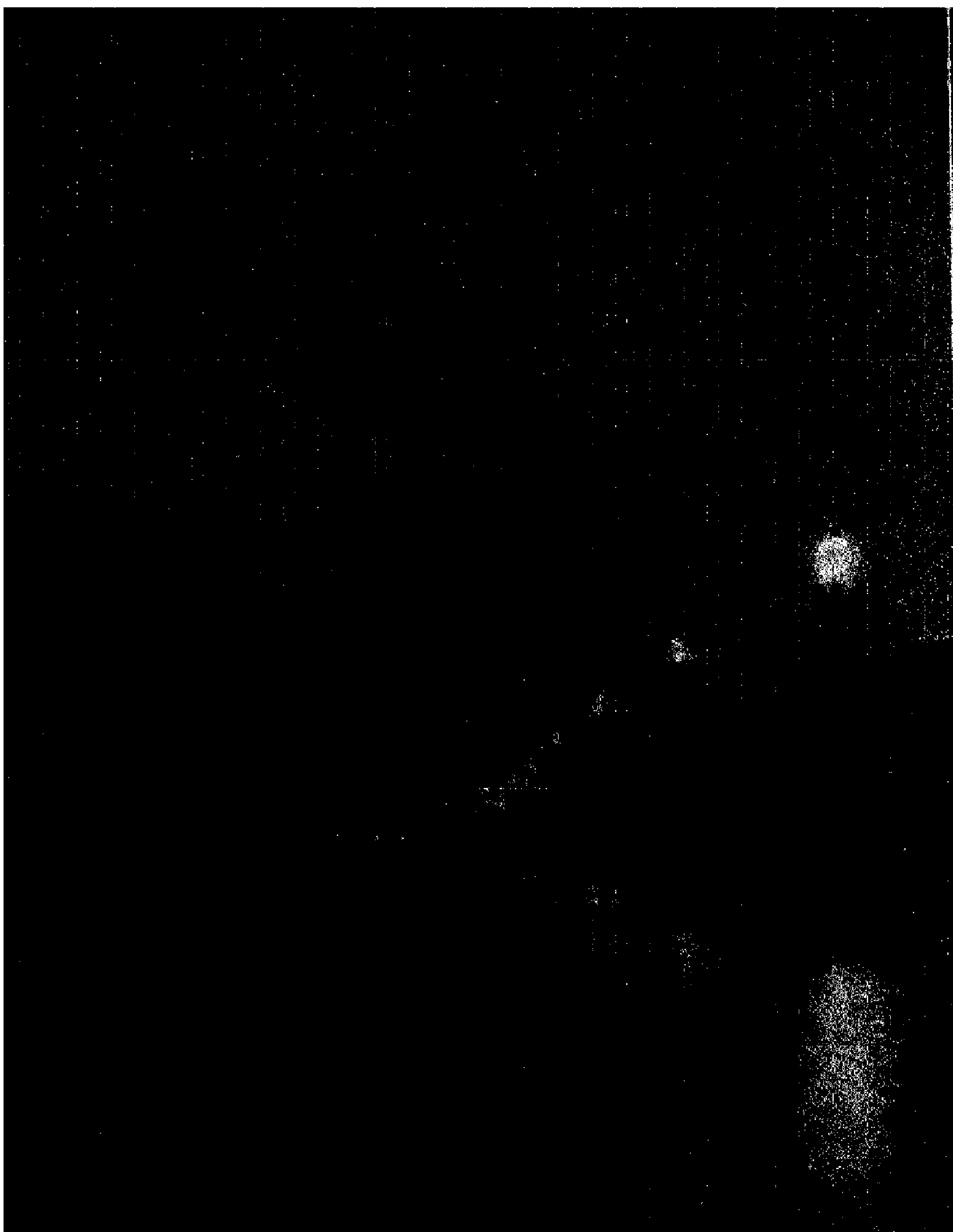
ومن الردهة التى توصل بين القاعتين . نسير فى طريق متدرج على جانبيه الكثير من تماثيل الخطباء ورؤساء الوزارات والساسة ، نسير فى درجات نازلة إلى قاعة وستمنستر .

وهذه القاعة فارغة من كل شئ حتى من التماثيل والصور ، قاعة الجدران مرصوفة بأحجار ضخمة ، تشعر فى ظلامها وضخامتها ووحدتها باللانهائية . .

وقاعة وستمنستر أقدم أجنحة البرلمان الانجليزى ، فعلى أرضها الحجرية القاتمة ، تشاهد لوحات من النحاس تلمع فى الظلام ، لوحات تذكر السائر بحوادث هامة حدثت فى مكانها ، من ملوك وقفوا وجها لوجه أمام نوابهم الساخطين ، ومن وزراء أقيلوا . ومن ساسة تصافحوا إلى غير ما هنالك مما يرتبط بتاريخ الدستور الانجليزى .

. . .

ومن قاعة وستمنستر المظلمة التى تشبه بعض ابهاء جامع السلطان حسن ، تخرج



الليل على كبرى وستمنستر

إلى ضوء النهار إلى الميدان الفسيح المسور الذى يحيط بدار البرلمان الانجليزى

ونحت البرج الذي يطل على هذا الميدان من ناحية وعلى التيمز من ناحية أخرى ، تسمع دقات « بج بن » ساعة البرلمان الضخمة، التى تدق من حين إلى حين كأنها أجراس العرس ...

. . .

وفى الليل ، وأنت على كبرى وستمنستر تشاهد هـذا البرج وساعة « بج بن » المضيئة فى قمته، كأنها حارس ساهر على هذا البناء .

جناح الدمعة

الوقت مساء . قاربت الساعة السادسة . وقد رفعت الأقراص البيضاء من صناديق البريد فى شوارع لندن وطرقاتها ، التى كتب عليها «الساعة الخامسة والنصف» جمع بريد المساء الكبير ، الذى تفخر به لندن ، البريد الذى ينحدر على دار البريد العام فى لندن كأنه الجارف الثلجى ، والذى لا يلبث طويلا حتى يخرج ثانية وقد فحص ورتب إلى كل ركن فى لندن قبل الساعة السابعة من اليوم نفسه.



فى دوريه اليومية . .

...

فى غرفة مستطيلة فى دار البريد العام فى لندن، وفى هذه الساعة، تجد ألفاً وثلاثمئة رجل يفحصون بريد الساعة الخامسة

والنصف. وفى طريقك إلى هذا المكان تجد جيشاً من موزعى البريد يحملون أكياسهم التى فرغوا مابها ، بعد ان أودعوا الأقراص البيضاء التى كتب عليها « الساعة الخامسة والنصف » ومفاتيح صناديق البريد .

وفى هذه القاعة تجد سيوراً متحركة قد حملت بالخطابات تقذف بحمولتها فى سلال وأسبتة، فاذا ما وضع خطاب فى إحدى صناديق البريد الكبيرة التى حول دار البريد العام، فانها تسير رأساً على هذه السيور المتحركة إلى غرفة « الختم » ثم يرفع العمال هذه السلال المحملة إلى طاولة قد غطيت بالخطابات حيث تتخاطفها الأيدى وترتبها بوجوهها إلى أعلى ، لكى تمر تحت آلة الختم التى تبصم ألفاً من هذه الخطابات فى الدقيقة الواحدة ، وتنقش عليها تاريخ التوزيع والاعلان المعروف « اشتر البضائع الانجليزية »

فاذا بصم البريد سار إلى طرف الغرفة حيث يختلط بتيار آخر من المكاتبات التى وردت الى لندن من الأقاليم فى الوقت نفسه . هنا تفحص هذه المكاتبات بحسب المناطق التى توزع فيها ، فخطابات همستد تسير فى ناحية . ونورود إلى ناحية أخرى، وبارك اين إلى ناحية ثالثة . وهكذا .

وتنتظر هذه الأكوام من الخطابات موزعى البريد الذين يفرزونها ويقسمونها الى أكوام أصغر فأصغر ، بحسب الشوارع وبحسب نمر المنازل . وفى عملية الفرز هذه لا ترى موزعا يشابه آخر ، فكل له طريقته .

...

نترك هؤلاء الموزعين حول الموائد يفرزون هذه الخطابات كأنهم يلعبون الورق بطريقة غريبة سريعة . نترك قاعة الفرز ونسير الى فناء دار البريد ، حيث السيارات الحمراء التى كتب عليها « البريد الملكى » تنتظر أكياس البريد لتوزعها على مكاتب البريد المحلية فى لندن .

وفى لحظة تطن آلاتها وبعد أخرى ترتج أبوابها وتطير محملة بخطابات من كل نوع؛

بخطابات الضرائب المتأخرة ، بخطابات تبدأ « سيدى .. ، لقد أسفنا كثيراً ، لتعلم أن الوصل المرفق مع هذا لم يدفع ... » وبخطابات تبدأ « عزيزتى لقـد مضت مدة كأنها أجيال، منذ أن رأيتك .. » و بخطابات تجارية تبدأ « بالرجوع الى مكاتبتكم بتاريخ ١٨ الجارى أفيدكم . . . » ملايين من هذه وتلك

...

ان متوسط المكاتبات التى نفرز كل يوم فى بريد الساعة الخامسة والنصف فقط تبلغ ١٤٦،٣٩٥ خطابا ، ٣،٩٨٣ بطاقة ؛ ٥،٧١٥ خطاباً مؤمنا عليه . وهذه إذا أضفنا اليها الدوريات والمظاريف فانها تصل الى ٢٦٠،٢٨٠ مكاتبة يومياً فى مثل هذه الساعة .

ولكن هذه ليست أكبر نسبة للتوزيع لأنه فى توزيع الساعة السابعة والربع من صبح الاثنين ، يبلغ هذا المتوسط ٦،٦٤٢،٧٠٠ فى حى الستى فى لندن ، حى البنوك .

...

وفى الطابق العلوى ، غرفة البريد الأجنبى . بعض مئات الآلاف من المكاتبات قد أرسلت الى كوبا وإلى مصر ، والى جمهوريات أمريكا الجنوبية التى لاتكاد تلمح أسماءها حتى تذكر كتب الجغرافية المدرسية .

وفى ركن من أركان هذه الغرفة ، قد وضع البريد الخاص بالأسطول الانجليزى فى صناديق صغيرة على كل صندوق اسم بارجة . وعلى هذا القسم كتب بخط واضح « مكاتبات القباطنة » ، لان مكاتبات كل قبطان توضع فى كيس خاص به

...

ننزل هذه القاعة الى الطابق الاسفل ثانية ، حيث ترى تيار الخطابات الأبيض قد بدأ يهبط ولا تلمح الا طرفه مختفيا فى صناديق التوزيع .

وفى خارج المكان تسمع دوى السيارات ، وخبطات الأبواب ، وموزعى البريد يسيرون بأكياسهم على أكتافهم كأنهم جيش يسري فى الظلام .

ولا تكاد تدق الساعة السابعة حتى تهدأ الحركة فى قاعة الفرز الكبيرة التى قد هضمت بريد الساعة الخامسة والنصف .

...

وعلى حين فجأة تسمع نقرات آلات الفرز ، ونرى جيش الألف والثلاثمائة يعمل حول المائدة الواسعة ، وقد امتلأت من جديد بأكوام الخطابات البيضاء . هذا هو بريد الساعة السادسة والنصف .

...

وفى ركن من أركان الحجرة يقف رجل له عين الصقر الخطى ، ونظرات البوليس السرى . يفحص الخطابات الغريبة التى يرسل اليه ليحل رموزها . ونراه يقرأ مظروفاً كتب عليه « مسجون بلندن » ثم يلقيه بامتعاض فى صندوق كتب عليه « أعمى » *

رحمة الطبيعة

الضباب فى لندن لايحتمل ،

والمطر فى لندن لايحتمل ،

والبرد فى لندن لايحتمل .

والضباب والمطر والبرد اذا اجتمعت فانها لاتطاق .

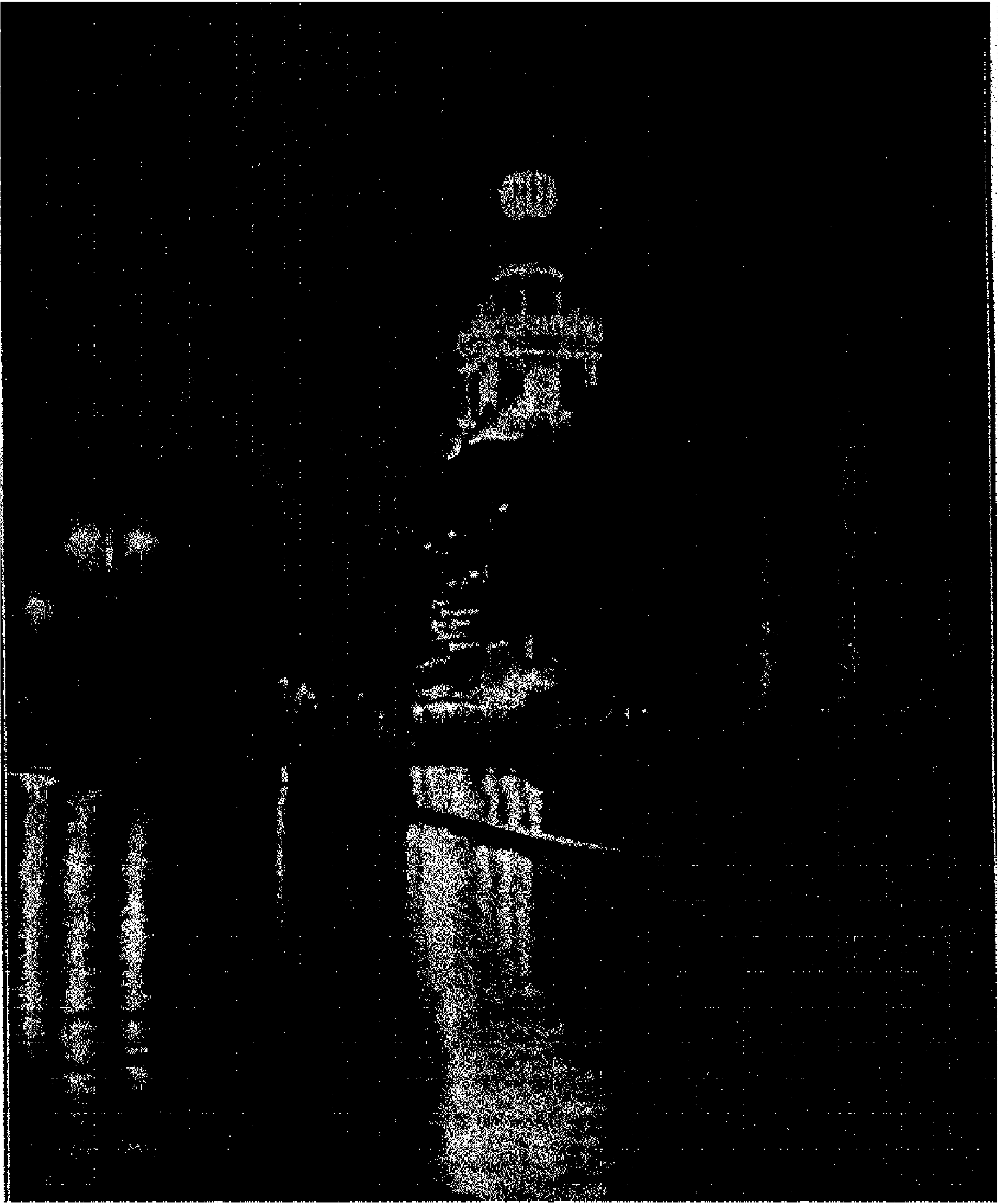
وفى ليالى نوفمبر كثيرا ماتجتمع هذه الثلاثة ؛ كثيرا ماتجتمع فتجعل الحياة فى لندن، والعمل فى لندن ، مقبضا .

والضباب فى لندن معروف بالضباب الأسود تمييزا له عن درجات أخرى من الضباب ؛ وفى هذا الشرف تشارك « مانشستر » العاصمة .

ضباب كأنه الدخان ، دخان الأفران والطوابين التى تنبعث ايام « العجن والخبز » فى القرى فى مصر . ينبعث ولا أدرى من ابن فيملأ كل مكان ، ويزحف اليك وأنت فى حجرتك من تحت الأبواب ومن بين فتحات النوافذ .

فاذا أحكمت ابصاد حجرتك كدت تختنق ؛ وإذا خرجت الى الشارع قابلك فى وجهك فملأ انفك وخياشيمك ، وتراه زاحفا عليك كأنه الغازات الخانقة .

ولندن فى الضباب ، لاتنسى ذكراها . فأنوارها القوية الكشافة ، التى تجعل ظلام الليل لايحس ، لاتجدى مع هذا العدو العنيد الذى تسلطه الطبيعة على العاصمة فى أيام الشتاء .



الليل والمطر فى ميدان ترافلجار

فهذا النور الأبيض الناصع الذى يتدفق من مصابيح الشارع العالية ، ومن مئات المخازن التجارية المتلاصقة ، يستحيل لونه أحمر خابيا كأنه نور الفتائل . فقد ترى مصباحا مضيئا ، ولكنه لايضيء شيئا ، لا يضيء الا نفسه . وتلك السلسلة من

مصابيح الشارع تستحيل نقطا من الضوء تظهر وتختفي كأنها تحت رحمة الأمواج .

وفى هجمات الضباب العنيفة ، تعجز هذه المصابيح ، ولا تكاد تحس بوجودها إلا اذا كنت على مدى قريب منها . فتسير تتلمس الجدران تلمسا ، وتحذر ان تنتقل من جانب الشارع الى جانبه الآخر وأنت لاتدرى بما يخبئه لك القدر اثناء انتقالك .

وفى ليالى الضباب هذه ، تعطل الكثير من القطارات عن السير ، واذا سار بعضها سار بسرعة لاتزيد عن سرعة القطار الاول الذى اخترعه استيفسن ..

وتعطل البواخر عن الاقلاع وعن عبور بحر المنش مهما كان فى ذلك من غرم أو ضياع للمال أو الوقت ، وفى شوارع لندن تعطل مركبات الترام والامنوبيس ، أو تندر . واذا سارت انتقلت ببطء وحذر وملأت الجو بنفيرها .

ولندن بضبابها الأسود فى نوفمبر ، هى لندن ببردها القارس فى ديسمبر ، هذا البرد الذى جعلنى فى ليلة من ليالى الشتاء أقدم حذائى طعمة للنار ولا أشعر ؛ فبينما كانت أصابع قدمى متثلجة كان (بوز) حذائى تلتهمه نار المدفأة التى هرعت اليها كالمجنون ..!

وهذا البرد لايهاجم إلا الأنف وأصابع اليد وأطراف القدم ؛ يهاجمها حتى لاتشعر بوجودها ، فتتصلب الأنامل حتى انك لتعجز عن أن تخرج شيئا من جيبك . وتتثلج الأنف حتى انك لتشعر بأنه جسم بارد غريب حط على وجهك !

...

والمطر ضيف لا يزور غبا ليزداد حبا ؛ ومع ذلك فهو ليس ممقوتا كما نكرهه فى مصر ؛ اللهم إلا اذا جاء على غير حساب ؛ وقد امتلأت هايد بارك بمن خلفوا قبعاتهم ومعاطفهم فى البيوت . وفى غير ذلك فهو لايعوق رجلا أو فتاة أو طفلا عن عمله أو عن لهوه .

بل فى ليالى المطر قد يحلو السير ، ويذكى نار الغرام برذاذه المتساقط . .

فمن عاش تحت الضباب وتحت البرد وتحت المطر ؛ فانه يعرف ما الشتاء فى القاهرة ، وما غروب الشمس فى اسوان ، وما سحر الصحراء فى هزيع الليل ...

يوم الاحد

فى مقدمة كتاب « إعترافات آكل أفيون » وصف الشاعر الانجليزى دى كوزى ذلك اليوم الذي ذهب فيـه إلى الصيدلى فنصح له بأخذ جرعة من هذا المخدر لتهدئة أعصابه الثائرة ، وللتخاص من انقباض صدره ، ومن الملل الذى كان مستولياً على نفسه ·

...

كان ذلك اليوم يوماً من أيام الأحـد ، وكان الوقت صيفاً · وقد دفعت الوحدة والانقباض والملل دى كوزى إلى أن يسير فى شارع أكسفورد ، أبهج شوارع لندن إذ ذاك ، ولا يزال من أبهجها اليوم ، يصخب بالسائرين والسائرات ، وبالعربات والسيارات، و بمخازن البيع الفخمة المتلاصقة ، التى تفنن أصحابها فى الاعلان عنها .

ولـكن ذلك اليوم كان من أيام الأحد ، وشارع أكسفورد فى يوم الأحد غيره فى بقية الأيام · ولندن فى يوم الأحد غير لندن فى يوم السبت · وانجلترا فى يوم الأحد غير انجلترا فى غير يوم الأحد ·

ذلك الشارع الذى يبهج ويفرح ، قد أغلقت أبواب مخازنه وندرت فيه العربات ، وقل أن تجد فيه سائراً ، إلا عابر طريق يسرع الخطى . وليس فى ذلك كله ما يفرج عن كربة صدر مقبوض ، كصدر الشاعر دي كوزى .

ذهب دى كوزى « كما ذكر فى اعترافاته » إلى صيدلية صغيرة ، قد ترك نصف

بابها مفتوحاً ، ذهب بعد أن شعر بأن اقفار الشوارع من السائرين من ناحية ، وحرارة ذلك الصيف من ناحية أخرى ، قد زادت من انقباض صدره ، وولدت فيه قلقاً هستيرياً .

فى ذلك اليوم القبض للصدر بوحدته واقفاره ، وفى تلك الصيدلية الصغيرة ، عرف دي كونزى الأفيون كدواء ، ثم عرفه كمخدر ، تناوله بعد ذلك إلى حد الادمان .

. . . .

هذه صورة ليوم الأحد فى لندن فى القرن الماضى ، ويوم الأحد اليوم ، لايختلف كثيراً عن هذه الصورة .

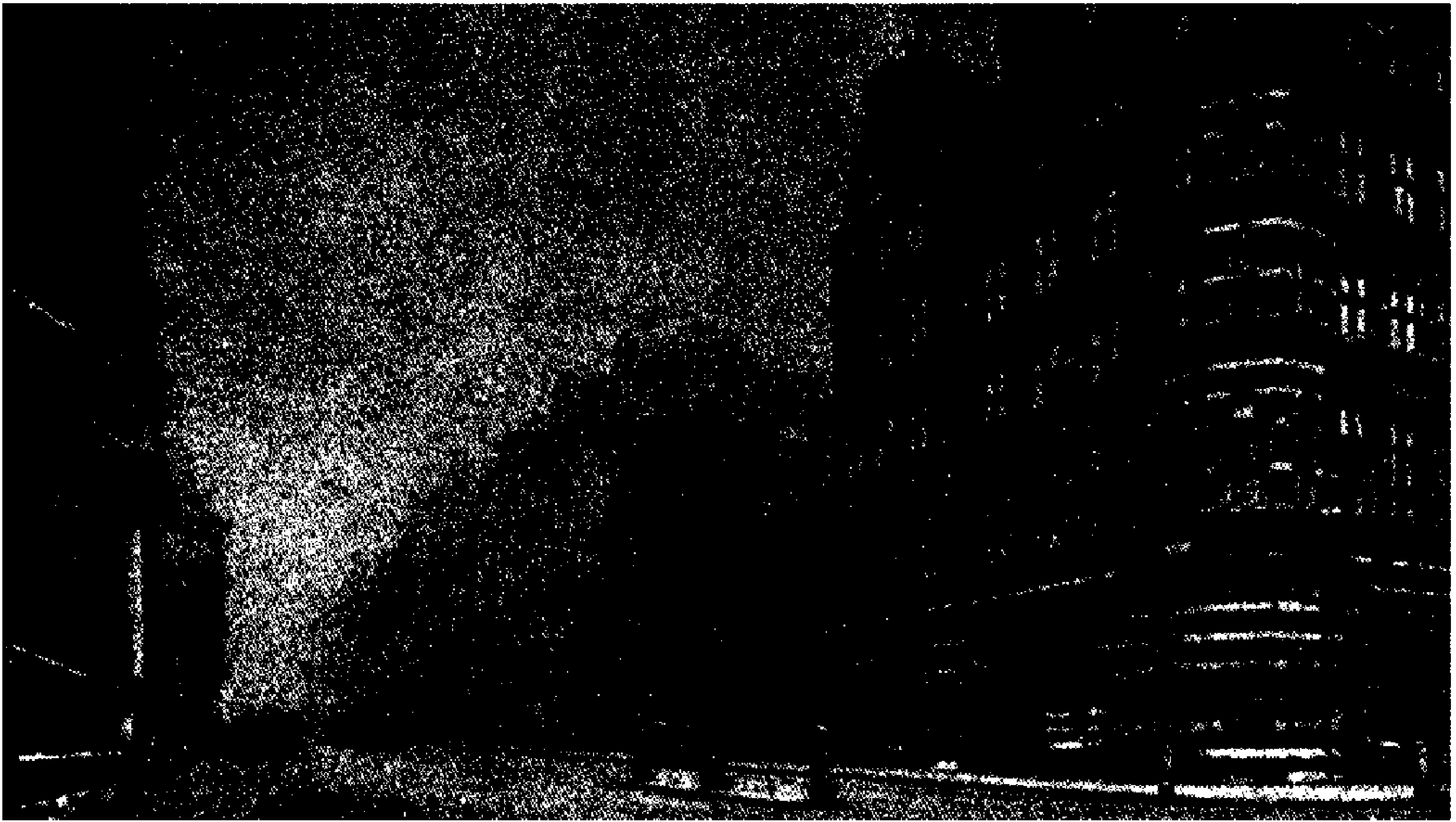
يوم الأحد يوم راحة ، ويوم عبادة ، ويوم نزهة ومتعة . ولكننى لا أعرف فيه شيئاً من ذلك . صحيح ان مخازن البيع والشراء ، والشركات والبنوك والمدارس والمصانع ، بل والمطاعم والصيدليات تقفل أبوابها ، ولكن هل معنى الراحة أن ننام هذه الأربع والعشرين ساعة لكى نشعر بأننا فى يوم راحة ؟ هل معنى ذلك أن نربض فى قعر بيوتنا ، لا هم لنا إلا أن نتناول طعام الافطار والغداء والمساء ، وأن نستيقظ وننام وننام ونستيقظ ؟ هذه راحة تنهك الأعصاب ، وتولد الصداع ، وتدفع إلى تناول الاسبرين أو الأفيون والمورفين كما دفعت دى كونزى .

تصور أنك تخرج من دارك فلا تجد سائراً فى الطريق ، لا تجد مطعماً تأكل فيه ، لا تجد مخزناً مفتوح الأبواب تقطع الوقت بالنظر اليه ، لا تجد مسرحاً أو ملهى أو سينما ، بل انك لا تجد « كما فى بعض البلاد الصغيرة » وسائل من وسائل النقل ؛ المحطات خالية ، والشوارع مقفرة من عربات الترام .

يوم الأحد يوم عبادة ! حضرت فتاة من أهل ويلز الى لندن ، وويلز فى انجلترا أشبه بأقاليم الصعيد العليا ، أو واحات سيوه والعريش . ولشد ما أثار عجبها يوم الأحد ، أن وجدت الخادمة تمسح درجات الدار ، ولشد ما أثار عجبها أن رأت أهل البيت

يوقدون ناراً يوم الأحد ويشربون الشاى ساخناً والطعام طازجاً !

ولماذا هذا العجب ؟ لأن يوم الأحد يوم عبادة ، لانار توقد ، ولا بيت ينظف ، ولا طعام يطهى . أثر من آثار القرون الوسطى ، حيث كانت سيطرة رجال الدين على أشدها . قوة الكنيسة وسلطانها يجب أن يجد له منفذاً فى يوم من أيام الأسبوع ، وقد ألهت الناس الحياة والجهاد فى سبيل الحياة ، عن الكنيسة وعن أصحاب الكنيسة ولا أقول عن الله وعن عبادة الله .



شوارع لندن المقفرة

وفى كل شارع فى لندن تجد كنيسة ، كما تجد مسجداً فى كل شارع وحارة ودرب وزقاق فى القاهرة . وهذه الكنائس تفتح أبوابها طول يوم الأحد ، وتعلن عن نفسها باعلانات كبيرة ملونة ، كما يعلن عن المسارح والملاهى . عصر بروباجندا فى التجارة والسياسة ، وها قد لحقت البروباجندا الدين . وبعد ذلك هل تجد الجموع غفيرة فى هذه الكنائس التى تصلصل نواقيسها من الساعة الثامنة صباحاً ، بينما لا يستيقظ أهل

لندن يوم الأحد قبيل الحادية عشرة أو بعد ذلك ! ! ؟

والى عهد قريب كانت الرياضة محرمة يوم الأحد ، والسينمات لا تفتح يوم الأحد، ووسائل النقل معطلة ؛ ولكن أخذ القوم ، بل وبعض رجال الدين، يشعرون بهذا التطرف الذى لا معنى له ولا يقره الدين نفسه . فنجحت هذه الحركة فى لندن أخيراً كما نجحت فى غير لندن . وأخذت الملاهى والملاعب والسينمات تفتح أبوابها ، تحت شروط خاصة فى بادىء الأمر ، ثم بغير قيد بعد ذلك .

...

وهذه هى الصبغة الدينية التى يصطبغ بها يوم الأحد فى انجلترا ، هذه الصبغة التى لا تجدها فى بلد آخر فى أوربا ، فبرلين وباريس وفينا وغيرها ، قد تقفل أبواب معاملها ومخازنها وبنوكها يوم الأحد ، وقد يهرع العابدون والعابدات إلى الكنائس ولكن الحياة الاجتماعية ، وبهاء العاصمة ، يكون على أشده فى هذا اليوم ، الذى وان كان يوم عبادة ، فهو يوم راحة ومتعة ورياضة .

...

يوم الأحد فى بعض أحياء لندن يذكرنى بأيام الأعياد فى مصر لاسيما فى الأحياء الوطنية الصميمة ، حيث يسير الغلمان والفتيات جماعات فى أثوابهم الزاهية الألوان ، الجديدة التى لم تغمر فى الماء بعد . وفى يوم الأحد تجد مثل هذه الصورة فى لندن بين طبقات العمال ، لكل واحد من هؤلاء بذلة خاصة لا يلبسها إلا يوم الأحد ، والذوق الفطرى فى اختيار هذه الملابس واضح فى ألوانها الفاقعة. كما أنه لا يغيب عنك أن الثنيات التى تشاهدها فيها تدل على أنها كانت محفوظة طوال أيام الأسبوع . ولا تخرج فى الهواء الطلق إلا فى يوم من أيام المواسم ! !

وتجد هذا الاصطناع فى لباس يوم الأحد، عند الكثير من أفراد الطبقة الوسطى ،

فالملابس الرسمية تشاهدها بكثرة فى هذا اليوم . القبعة السوداء المكورة ، البذلة السوداء ذات السراويل المخططة ، والياقة المنشاة العالية ، والمظلة السوداء ، والقفاز ، ثم احدى صحف اليوم . هذا هو جنتلمان يوم الأحد ! !

وكل من فى لندن غريب يوم الأحد ، فمن تجده فى شوارعها من النادر أن يكون من أهلها ، فهؤلاء ينتهزون يوم العطلة ، ورخص تذاكر السفر ويهرعون إلى لندن ، ولكنهم بالأسف لا يرون فيها إلا أنفسهم . .

وأهل لندن بدورهم ، لا سيما فى فصل الصيف يهرعون إلى الشاطىء ، حيث لا يرون كذلك الا أنفسهم هناك .

ولو أنك لا تجد كثيراً من السائرين فى يوم الأحد ، إلا فى بعض مناطق خاصة ، الا أن الحانات ترحب بزبائنها يوم الأحد فى الساعات القليلة التى تفتح فيها أبوابها ، فاذا وجدت (زحمة) فى ركن من أركان الشارع ، فلتعرف أن هذه الزحمة حول حانة ، حيث تدار كيزان الجعة ولا أقول أقداحها ، فى الشارع من شدة الازدحام وهم وقوف وهن واقفات !

ولكن من الخطأ أن تتذكر حانات كلوت بك ، اذا أردت أن تأخذ صورة حقيقية للحانات الانجليزية ، التى لا يكاد يرى السائر ما بداخلها ، فهى محكمة القفل ، حتى أننى — وقد مضى لى فى لندن شهور — كنت أظن أن ليس فى لندن حانات البتة ؟

* * *

وهايد بارك فى يوم الأحد ، تزدحم بالوافدين والوافدات اليها . فهى أشبه من ناحية بحديقة الأزبكية يوم الجمعة . ولكن وجوه الاختلاف أكثر من وجوه التشابه

ومن عادتى أن أذهب الى هايد بارك بعد ظهر كل يوم أحد ، لا سيما اذا كان الجو معتدلا . ومن عادتى أن أقضى ساعة وساعتين وثلاثة أستمع لما يلقى على منابر هايدبارك

من الخطب ومن الأحاديث ومن المناقشات فى كل فن مستطرف ومستظرف ؛ من خطب دينية أشبه فى طريقتها وقدم ابحاثها بخطب الجوامع ·



هايد بارك يوم الأحد

وأستمع الى المجادلات السياسية ، وأستمع الى الأبحاث الفلسفية وشبه الفلسفية ، وأستمع الى الابحاث الاقتصادية والمجادلات الاجتماعية · وأستمع بلذة الى الكثيرين ممن يخطبون فى كل فن وفى كل باب ، ويخلطون بين الدين والسياسة والاقتصاد والعلم ، يخطبون لأجل الخطابة ، ويتجادلون للذة المجادلة ، ويتناقشون لغرض المناقشة ليس الا · وماأشبههم ؛وما أشبه هذه المنابر والحلقات ، بالسوفسطائيين فى بلاد الاغريق منذ عشرين قرنا مضت أو يزيد .

...

وفى يوم الأحد يجتمع أفراد العائلة الواحدة حول مائدة الغداء وحول مائدة الشاى · وقل أن يجتمع شمل العائلة فى غير أيام الأحد .

وتناول الطعام على مائدة واحدة ، حلقة اتصال بين أفراد البيت الواحد ، فالأب الذى لا يحضر من عمله الا متأخراً كل مساء يجد فرصة لأن يجتمع بأولاده ، ويتحدث إليهم .

غداء يوم الأحد فى العائلات الفقيرة والمتوسطة ، له امتيازه ، لذلك من العسير أن يترك أحد أفراد العائلة فرصته ، ويتناول الغداء فى خارج البيت.

...

هذا يوم الأحد فى أيام الصيف التى كثيراً ما تكون شمسها دفيئة ، فتدفع الكثيرين إلى الخروج إلى هايد بارك أو التخطر فى ريجنت بارك أو بيكادلى . ومع ذلك فهو يوم مقبض،يشعر الانسان بالوحدة فيه وهو يعيش فى بلد سكانه تزيد على ستة ملايين . فما بالك بيوم الأحد فى أحد أيام الشتاء ، والمطر يتساقط والضباب يملأ كل مكان كأنه دخان الأفران .

وحدة بين الملايين ، أشبه بوحدة السجين . وعبوس الطبيعة ، عبوس يرسب فى القلب .

...

ومع ذلك فيوم الأحد يوم راحة ، وعبادة ، ومتعة ؟ !

الستى

ليست جاردن ستى فى مصر ، تشبه بعض الشبه الستى فى لندن؛فان كانت الأولى حى الترف والجمال ، فان الثانية حى المال والأعمال .

الستى هى القلب النابض للامبراطورية الانجليزية ، حى البنوك والشركات التى بنتْ استراليا ، واستغلت امريكا ، وشيدت جنوب افريقية .

حى الستى حى الحركة والنشاط ، نشاط لاتجده فى أى ركن آخر من أركان لندن ؛ وحركة هستيرية لا تشاهدها فى شوارع اكسفورد أو الريجنت أو الاستراند مع ازدحامها .

والوجوه التى تشاهدها تنتقل من دار الى دار فى حى الستى لاتشاهدها إلا نادرا فى غير هذا الحى . والملابس السوداء الرسمية والقبعات العالية غالبة بين رواد الستى ! هؤلاء هم الذين يقبضون على أزمة الثروات العامة ، والذين إذا عبثوا بالثقة الموضوعة فيهم أو تهوروا فى مضارباتهم لم يجروا الشقاء والفاقة على رؤسهم فقط، بل ويرسلونها جحيما على رءوس الآلاف والملايين ، الذين ائتمنوا هـذه الشركات بما لديهم من قليل أو كثير من هذا المال .

تسير فى لومبارد استريت ، أحد شوارع الستى ، فـكأنك تسير بين قلاع على جانبى الطريق ، أبنية من الحديد والأسمنت المسلح والحجر ؛ بنيت ولم تترك وسيلة من وسائل التحصين إلا استخدمت لحمايتها .



بورصة لندن في حي السيتي

هذه الأبنية الحديدية المسلحة قد بنيت لأجل المال .

وهذه الأوراق المالية التي تقبر في بطون الخزائن الحديدية والتي لاترى ضوء النهار والتي قد تنتهي الى أن تحرق ولا تصل الى يد أحـد من الناس ؛ هذه الأوراق التي استخدمت الـكهرباء والأبواب الخفية لحراستها ، ورصاص المسدسات لحمايتها ؛ هذه الأوراق قد طبعها الانسان لـكي يمنعها عن يد الانسان ؛ وزخرفها الرسام لـكي تعبد وتقدس وهي من صنع يديه !

...

تسير تحت أعمدة البورصة ، وترى الخارجين والداخلين عارقين في أفـكارهم ، يسيرون كالمجانين قد اجنهم المال الذي عبدوه ، وجعل طعم الحياة فاترا على شفاههم ، يقامرون وراء جدرانها بكل مالديهم من مال وجاه وسعادة ، جنون بالمال في سبيل المال ! فالمال الذي كان وسيلة ، قد صار غاية ؛ والمال الذي كان يجب أن يكون خادما ، قد صار سيداً على نفوس أصحابه ،

وما ذا يرجو هذا الرجل الذي جمع الآلاف والآلاف من هـذه الأوراق ؟ وأية لذة يؤمل فيها ، اذا زادت هذه الآلاف ألفا جديدا وهو لايرى منها الا الشيك الذي يرسله إلى البنك ؟ وأية متعة يجدها اذا جمع هذه الحزمات من أوراق البنكنوت حوله ونام عليها ، أو حملها على رأسه ؛ أو نثرها في كل ركن من أركان داره .

اذا فعل ذلك لرموه بالجنون ! ولـكن الجنون في جمع هذه الأوراق أمر مشكور ؛ والعبث بها على هذا النسق لايقره عليه أحد .

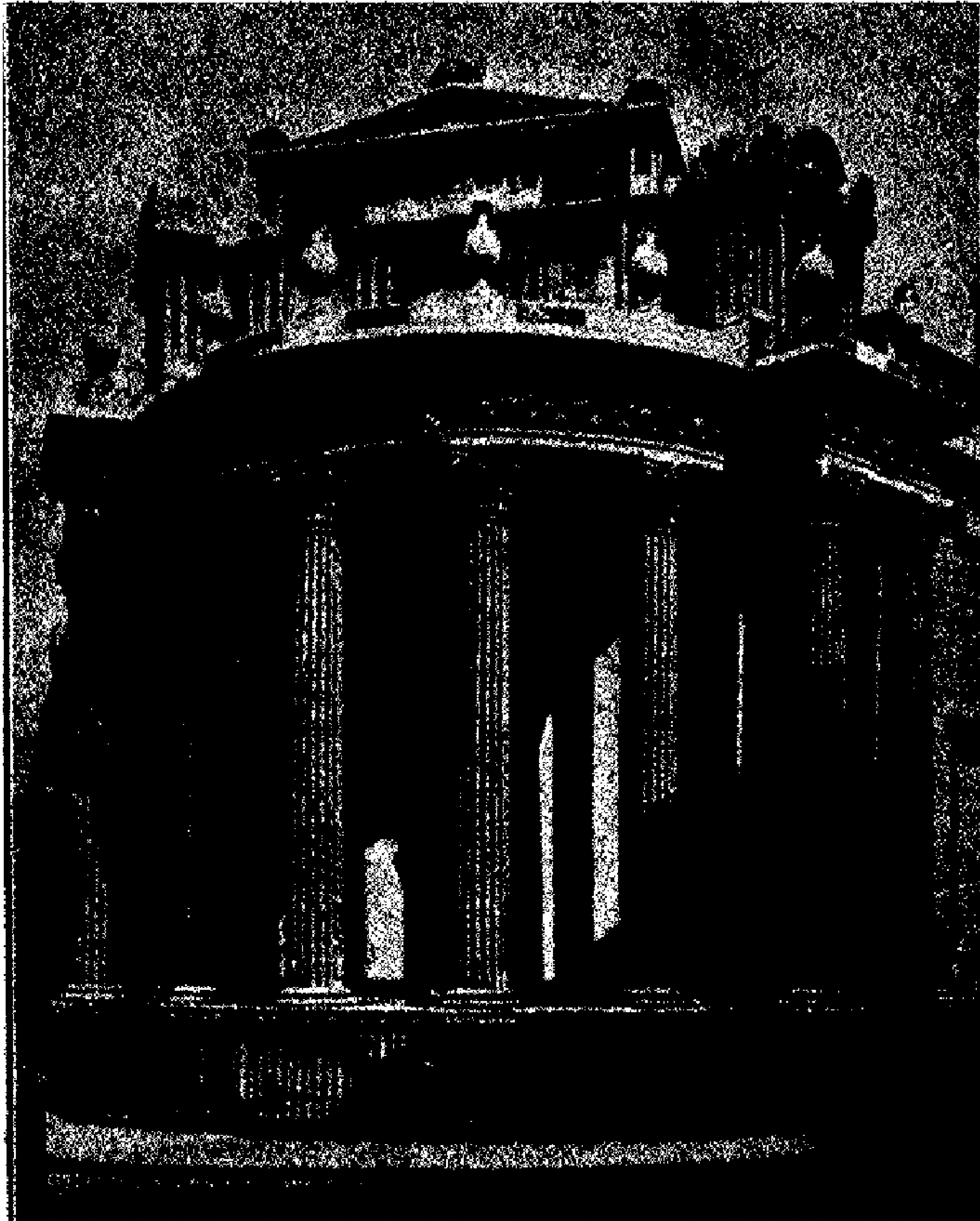
كان الـكاتب الانجليزي رتشارد استيل كلما سار عند هذا البناء نفسه منذ قرنين ، كان يشعر بأنه أسعد مضارب في البورصة ، لأنه كان يشارك كل رابح سروره وغبطته ولـكن الربح لا يكون إلا بخسارة آخر ؛ فاذا ثقلت احـدى كفتي الميزان شالت الأخرى . أما أنا فلا أشعر هذا الشعور بأنني أسعد الناس حول بناء البورصة ، لأنني

أفكر فى هؤلاء الذين قامروا فى سبيل المال وفى سبيل سعادة موهومة بسعادة بيت وأطفال وزوجة ! .

. . .

وإذا كانت الساعة الرابعة ؛ وعرجت على السّتى وسرت فى لومبارد استريت أو ميدان البورصة ؛ شعرت بالوحدة والوحشة المقبضة .

لم يبق فى هذا المكان الذى كان مزدحماً منذ ساعة أو نصف ساعة ؛ الا الذين كتب عليهم أن يحرسوا هذا المال وراء الخزائن والسراديب الخفية ؛ كتب عليهم أن يمنعوا الأيادى من العبث بهذا المال ؛ وقبل ذلك أن يمنعوا أيديهم من لمس هذا المعبود المقدس .



انك لتشعر بالوحدة ، وأنت بين ظلال هذه الأبنية الضخمة الماثلة التى تشبه المعابد الرومانية ، أو قلاع القرون الوسطى ؛ تشعر كأنك فى مقبرة قد اقفرت بعد أن ذهب المشيعون عنها ، ذهبوا بعد أن ملأوا المـكان بكاء وعويلا ؛ ذهبوا بعد أن دفنوا عزيزهم وخلفوه وحيداً . . .

وهأنذا أشعر كأننى غريب فى الستى ، وأشعر بأن هذه الوحشة قد خلفها المـال المحبوس وراء هذه الجدران ·

المال الذى صنعته أيدينا لـكى نقطع الحياة فى البحث عنه .

فى طرقات لندن

ما أمتع أن يعرف الانسان شيئاً عن هذا العالم ، وهو يعيش فيه دون أن يشعر به أحد !

إنه لا يعرف هذه المتعة إلا الذين لديهم ميل للسياحة وللاستطلاع ، أولئك الذين لا يقدرون قيمة ما يشاهدونه بما يجدونه من نفع أو فائدة ؛ بل لان لذة المشاهدة ، واتساع أفق تفكيرهم هو كل مايرغبون فيه، وهم يسيرون دون أن يعيرهم أحد التفاتا.

...

حدث ذات ليلة ، فى الأسبوع الماضى . وأنا فى رتشموند ، أن أصابنى أرق أقض مرقدى وجعلنى أفكر فيا لا أريد انأفكر فيه فاستيقظت فى الساعة الرابعة صباحاً ، وقد عزمت على أن أقضى الأربع والعشرين ساعة القادمة فى لندن، أتنقل فيها دون عاية خاصة حتى أكل من السير والنظر ، فأنام من شدة الاعياء .

...

إن الوجوه التى تراها فى لندن فى ساعات اليوم والليل المختلفة ، وجوه متباينة غريبة عن بعضها كأن أصحابها يعيشون فى بلاد مختلفة .

فأولئك الذين تراهم فى الساعة السادسة سرعان ما يتركون مكانهم لاولئك الذين يظهرون فى الساعة التاسعة؛ وهؤلاء إلى جيل الثانية عشرة الذين تختفى وجوههم ويتركون

مكانهم إلى طبقة أرستقراطية قد أخرت موعد الظهر ساعتين . . !

. . .

وعندما تركنا الشاطىء كان يصحبنا فريق من الفلاحين وبائعى الخضر يقصدون أسواق لندن تعلو وجوهم ابتسامةرضاء ، تقر لها النفس . وكان شاطئا النهر ، والناس الذين قد تجمعوا حوله ، والمزارع التى تحيط به ، منظرابهيجا لا يقل جمالا عن أى بقعة أخرى على الأرض ، بله التيمز نفسه بما يحمله على مياهه من قوارب محملة بثمار شاطئه ، قد أضافت جمالا إلى هذا الجمال . وقد كنت تعرف من وجوه هؤلاء القوم ومن لهجاتهم الأسواق التى يقصدونها فى لندن .



أحد أسواق لندن فى القرن الماضى

ولم يحدث فى رحلتنا ما يستحق الذكر ، فقد وصلنا فى الساعة السادسة صباحاً إلى كبرى الاستراند ، ومعنا عشر قوارب أخرى محملة خوخا ، مرسلة إلى إحدى شركات الفاكهة .

. . .

وعندما وصلنا كان حراس الليل يتركون مكانهم إلى من أتى ليحل مكانهم قبل أن يتفتح الصباح . وبينما كنا فى طريقنا إلى السوق كان منظفو المداخن يمرون بنا إلى عملهم الباكر ، وقد حدث أن احتد الجدل بين أحد هؤلاء وبين فتاة من بائعات الفاكهة ، عن حواء والشيطان ومهمة كل منهما !

ولا أظن هنالك أمتع من أن تقطع الوقت فى سوق «كوفنت جاردن» تنتقل من مخزن فاكهة إلى آخر ، بينما يحيط بك جمع من الفتيات الصبوحات الوجه ، يبتعن من هذه الفاكهة ويحملنها إلى دورهن ، ولم أترك هذا السوق بمناظره المتجددة إلا وقد بلغت الساعة الثامنة .

. . .

وهنا استأجرت عربة ، وتبعت بها عربة أخري استأجرتها فتاة ، من هؤلاء الفتيات اللاتى يعشن لأنفسهن ويعشن لكى يوقعن غيرهن فى حبهن .

وإذا تقابل سائقان من سائقى العربات فى الطريق أشارا بأصابعهم اشارات خاصة عن مقدار مكسبهم فى ذلك اليوم ؛ ويرسلون هذه الاشارات الخفية فيما بينهم ليدلوا عن المكان الذى يذهبون اليه . وفى لحظة عرف سائق عربتى المكان الذى يقصده السائق الآخر ، وكان سانت جيمس .

وقد كان سائق عربتى كيساً فاختصر الطريق ودار حيث تلاقى بعربة الفتاة ، وتظاهر بأنه يهدد رفيقه ليفسح له الطريق حتى اضطر الفتاة الى أن تفتح نافذة العربة وتطل بوجهها المحجب لتسأل عن الخبر ، وكانت النافذة صعبة الاغلاق فتركتها مفتوحة !

بعد ذلك أخذت الوجوه الارستقراطية تختفى ، عندئذ فكرت فى أن أسير على قدمى اقتصاداً . مع أننى أشعر بارتياح للتجوال بالعربات ، خوفاً من مواجهة جموع

المتسولين ومغنى الشوارع . وقد حدث هـذا فجأة ، فبينما كنت أنصت الى احد هؤلاء المغنين فى ورك استريت ، إذ بشحاذ يعرفنى هجم على ، وبدأ يوجه الى الأنظار عما يقصه على عن فقره ، وعن حاجته الملحة الى ست بنسات ليروى غلته من أقرب حانة ، لئلا يموت ظمأ اذا لم أسعفه ؛ ودفعت المهزلة الرعاع الى تبادل النكات ، فلم أجد بداً من الهرب الى أقرب عربة .



احدى خانات لندن المندثرة

وكانت مظاهر النشاط والحياة والعمل بادية فى كل مكان مررنا به ، وكنت شديد الاغتباط بكل ذلك ، واشتد هذا الاغتباط عندما أخذنا طريقنا الى الستى مركز لندن التجارى ، بأبنيتها الفاخرة ، ومتاجرها الأنيقة ، ومعروضاتها الزاهية . وهكذا سرنا حتى وصلنا الى برصة لندن القلب التجارى للعاصمة .

وأخذت أرقب بلذة ذلك الجمع الغفير الذى يروح ويغدو حولى يقوده الرجاء والأمل بالكسب والثراء ، وقد كنت أشعر بأننى أسعد رجل فى البورصة ذلك اليوم،

لأننى كنت أشارك كل رابح فى سروره وغبطته .

ثم عرجت على المتاجر النسوية ، وفيها الأصابع البضة تعمل بجد فى لف الشرائط والوجوه النضرة منهمكة فى بيع المشابك .

ثم أخذت طريقى الى احد المطاعم حيث كان كل من فيه يتناول طعامه من «حساء وقديد اللحم» فى صمت وفى سكون ، هذه الطبيعة وهذا الجمود الذى جبلنا عليه ، كأنه ليس من العقل أن نتحدث الى بعضنا الا اذا كنا معارف، لا على اننا ناس ليس الا

. . .

وقبل الساعة الخامسة تركت الستى الى كوفنت جاردن ، وقضيت المساء فى احدى المقاهى حيث كنت انصت الى أحاديث كثيرين ممن كانوا يتناقشون عن القمار وعن الحظ وعن الحب وعن الفنون وعن السياسة. وقد طال الجدل فى شئون السياسة حتى سمعنا ناقوس حارس الليل ولم يبق فى الطرقات الا هو يصيح « انها بعد الساعة الثانية »

وهكذا تركت المكان الى مخدعى يقودنى خادم ، أخذت أسأله عن شئونه وحياته الخاصة ، ونفحته متساخيا ست بنسات. ولما كنت فى حجرتى أخذت فى تدوين هذه الملاحظات الدقيقة التى سمعتها ، ولعمرى ماذا يستفيد القارىء من هذه الملاحظات التى لا قيمة لها ؟ . . .

رتشارد استيل

ندن فى ١١ أغسطس سنة ١٧١٢



حتى سمعنا ناقوس حارس الليل . . .

مكتب الامتعة الضائعة

فى بناية اسكوتلاند يارد المعروفة ، وعلى الجانب الآخر من وست منستر وامام البرلمان الانجليزى ، مكتب للامتعة الضائعة فى لنـدن ، أو على الأصح مخزن لهذه الأشياء المنسية .

لم أدخل هذا المـكتب زائرا أو متفرجا ، بل زبونا ، ولم أدخله مرة واحدة ، بل أكثر من مرة .

ومن الذى يعيش فى لندن ولاينسى ؟ ولا ينسى نفسه فى بعض الأحيان ! وانا من هؤلاء الذين ينسون أنفسهم فى بعض الأحيان ، وان كنت لا ابحث عنها فى هذا المـكتب . .

ان مثل هذا المخزن لم يوجـد إلا لأن بعض الناس ينسون ، ولم يوجد الا لأن بعض الناس أمناء، فالنسيان وحده لايخلق هذا المـكان الا اذا اقترن بالأمانة

. . .

تدخل هذا المـكان فتجد مئات الأشياء الضائعة ، تجد الآلاف منها ، حتى انك لتذهل كيف ان هنا لك آلافا من الناس رجالا و نساء تشغلهم الحياة عن أن يفـكروا فيما يحملونه . يتركون هـــــذه الأشياء فى القطارات وفى الترام وفى الامنوبيس وفى عربات التاكس .

ودرجة النسيان تزايدت بتزايد الحركة ، وكثرة وسائل النقل ؛ فالمسافر الذى صار

متقيدا بالدقائق والثوانى ، لاتتاح له فرصة ليفكر فى شئونه الخاصة . وسرعة وسائل النقل من ناحية اخرى قد جعلت التذكر لايجدى ولا يفيد ؛ وعند ما كان العهد عهد العربات،كان ميسورا للرجل أن يركض وراء العربة اذا خلف فيها شيئا،أما اليوم فاذا ماترك الامنوبيس فان الركض أو النداء لايجدى ولا ينفع فى الوصول اليها .

بالأمس فقط خلفت أكثر من شيءواحد فى ميلان، وقد كنت مسافرا من لندن إلى البندقية ، ولم أكن اعرف أنه لابد من التغيير فى هذه المدينة ، مع محاولة سيدة ايطالية كانت بجانبي تفهيمى هذه الحقيقة بلا جدوى

لايعرف الم النسيان الا من ذاق مرارته ولا يعرف لذة الوجود بعد الضياع إلا من وجد شيئاً فقده ولو كان تافها ضئيلا .

. . .

حذاء ، ولثام ، وعلبة حلوى ! مجموعة غير متناسقة ! وهكذا لاتعجب إذا زرت مكتب الأمتعة الضائعة فى لندن ، لأنك تجد فيه كل شئ ، كل شئ تتصوره ، كل شئ يمكن لانسان أن يحمله .

ليس فى أن ترى حذاء مفقوداً شيئا من العجب ، ولكن كيف يتسنى لرجل أن يترك (جرامافونا) بأكمله فى القطار ؟ وكيف تنسى سيدة حقيبة ضخمة ، أو علبة كبيرة بها ملابس حريرية جديدة ؟ كيف ينسى هؤلاء الناس معاطفهم وقبعاتهم ؟؟ كيف يسيرون بدونها ولا يشعرون !

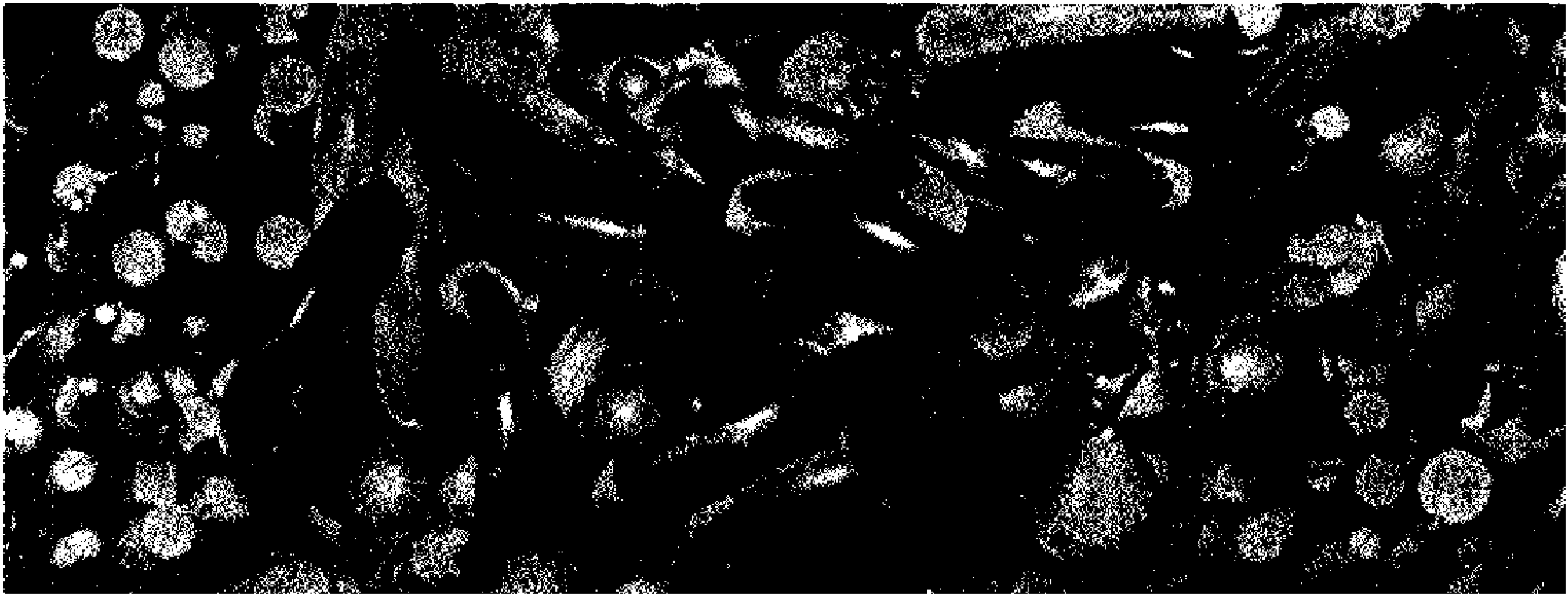
سأل أحد الصحفيين الانجليز عن أغرب ما وصل الى مكتب الأمتعة الضائعة فى لندن ، فعدد له الموظف أشياء لا تكاد توجد فى عربات الترام والقطارات .

« حمل إلينا بعض أصحاب عربات التاكس ، دباً صغيراً قد نسيه أحد الزبائن فى عربته . وكانت مشكلة حفظ هذا الدب لا يستهان بها ، حتى جاء صاحبه وهو اسكتلندي عاش فى المستعمرات واسترد بضاعته . وخيرا فعل .

وفى مرة أخرى وردت إلينا لفافتها عظام انسانية ، وفى مرة أخرى كبد محفوظ وهذه بلا شك خلفها بعض طلبة الطب ٠

• • •

وأكثر الأمتعة ضياعاً ، المظلات والعصى ؛ فانك إذا دخلت ردهة هذا المكتب ، تجد مئات بل آلافا من المظلات لاترى منها الا رءوسها الناتئة وقطعة الورق المتدلية منها والتى كتب عليها تاريخها ونمرتها .



آلاف المظلات والعصى لا تظهر إلا قبضاتها . .

انك لتعجب كيف يتسنى لرجل أو امرأة أن تبحث عن مظلتها المفقودة ، بين هذه الآلاف من المظلات الممتدة رواقاً رواقاً من السقف إلى الأرض . قبضاتها جميعاً متشابهة ، لأنه إذا ابتكر زى جديد لا سيما من أزياء السيدات فانه ينتشر كالنار والهواء ٠

وفى هذه القاعة تشاهد أحدث الأزياء وأكثرها انتشاراً فاذا كان الزى الغالب فى ألوان هذه المظلات اللون الأزرق رأيت هذه القاعة يغلب عليها هذا اللون

راقب هؤلاء الداخلين تجد أكثرهم من السيدات ؛ وليس ذلك لأن السيدات أكثر نسياناً أو لأن لديهن من مشاغل الحياة ما يلهيهن عن التذكر ، بل لأنهن

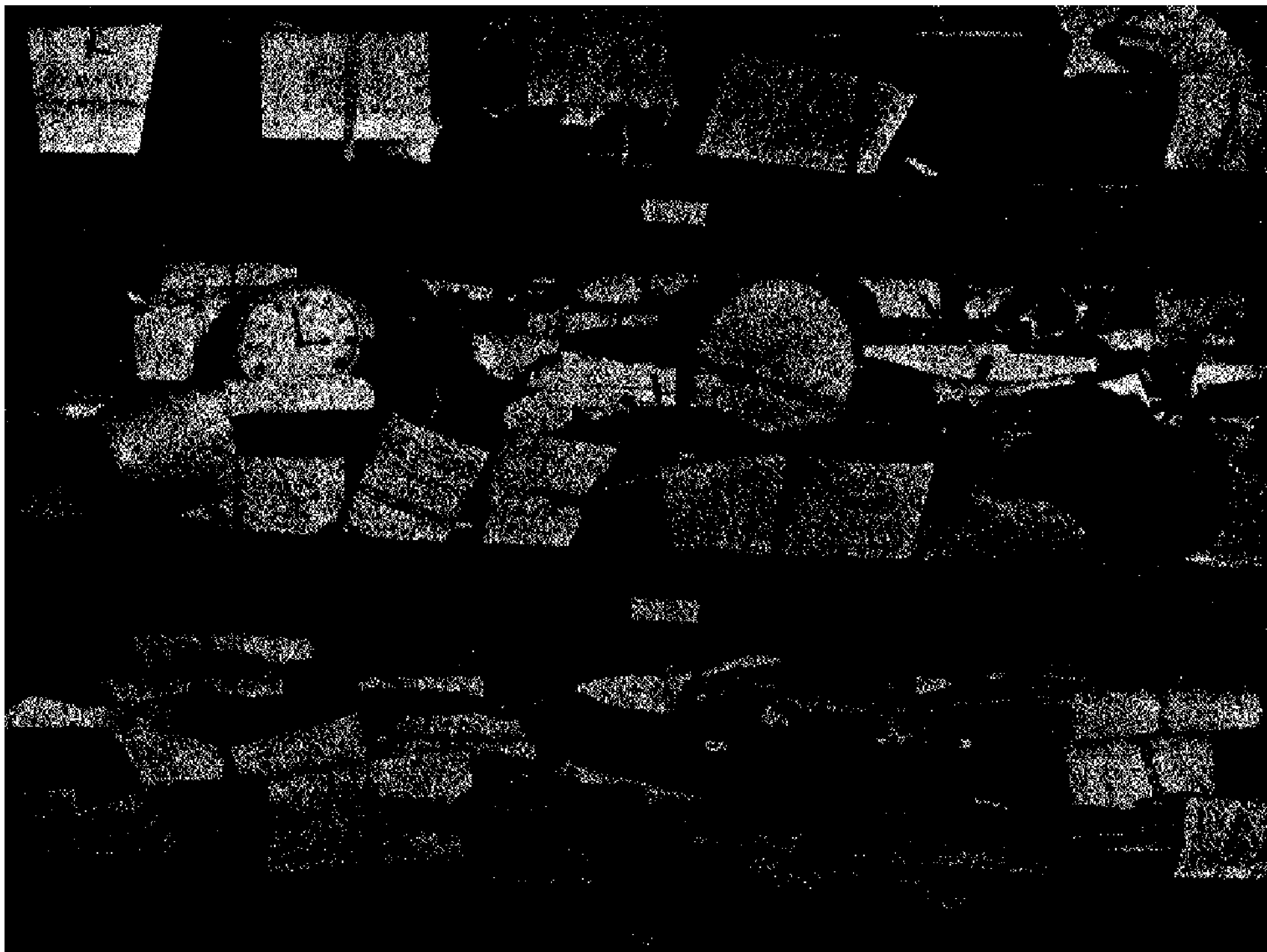
أكثر اعتزازاً بما يملكن فاذا ماضاع منهن شيء ولو كان تافهاً بحثن عنه بجد وعزم .

وبين هذه الآلاف من المظلات قد تلمح السيدة مظلتها فى لحظة وتهرع اليها ؛ يا لها من عين فاحصة ، بل ياله من قلب يدير صاحبه إلى حيث يحن !

ثم راقب القادمين للبحث ، وانظر الى لهفتهم وإلى عيونهم الزائغة وهم يشرحون أمرهم إلى عامل المكتب ؛ ويذكرون الكثير من التفاصيل ، وكثيرمن هؤلاء أيضاً من السيدات ؛ لأن المرأة أكثر الناس عطفاًعلى الغير ، وأكثر الناس طلباً للعطف؛ فهى تشعر بأن مصيبتها مصيبة الجميع ؛ وانماينتابها يجب أن يعرفه الجميع ·

· · ·

ولو كان لكل الناس عزم المرأة فى البحث عما يضيع منها ، لخف الحمل ، ولكن الكثيرين يتألمون ولا يتكلمون،ويتذكرون ما يضيع منهم ولا يحاولون البحث عنه.



لانك تجد فيه كل شيء . . .

وفى كل ثلاثة أشهر ، تجرى عملية تصفيـة ! ولولا ذلك لـكان سيل المظلات والعصى والقبعات والحقائب لا ينتهى ، ولا يمكن أن تتسع له جدران هذا المـكان .

وفى كل ثلاثة أشهر توزع هذه الأمتعة على من وجدها من عمال القطارات والترام والامنوبيس والتاكس ؛ توزع على غير أساس سوى أن كل من وجد شيئاً أخذه لنفسه ولو كان لا يصلح له .

وهكذا تجد سائق التاكس الضخم يخرج حاملا مظلة نسوية صغيرة ؛ أو زوجا من القفازات ! ..

ولـكن، أليست كذلك الحياة حظا وقسمة !

ضيوف الشارع

فى ضوء النهار ، وفى ضجيج الحياة والعمل ، وفى زحام الطرقات فى هذه العاصمة الصاخبة لا تكتشف تلك الوجوه التى جعل أصحابها هذه الطرقات وهذه الشوارع بيوتهم ودورهم ·

لعل أحداً منا لم يشعر هذا الشعور ، شعور من يضرب فى الأرض دون أن يقصد داراً معينة يأوى إليها إذا ماتعب أو سأم السير، ودون أن يبحث عن مكان يستقل به وحده دون أن يشاركه فيه أحد، ذلك لأنه قد جعل هذه الشوارع وهذه الميادين والطرقات داره وبيته ، ومن الذى يشاركه فى ذلك ؟ لا يرضى بهذه الملكية سواه · فهو فى الحقيقة ضيف الشارع وصاحبه .

قليل منا من رأى ضيف الشارع فى بيته وقد خلت الشوارع والطرقات من الناس ، ولم يبق إلا رجال البوليس وبعض أصحاب التاكس يتخطرون فى ملابسهم السوداء، وتترجرج نمرهم المعدنية على صدورهم ·

...

أخذت أدق باب منزلى ، فلا من مجيب. فقد خلفت المفتاح ، ومن نكد القدر ان صاحبة الدار صماء لا تسمع . فكان من العبث أن أسمع الصم دعائى .

خرجت لأبحث عن فندق أقضى فيه ليلتى . فأخذت الساعات تتوالى وأنا أطرق باب الفنادق القريبة فلا أجد مكانا خالياً ، مرت الحادية عشرة والثانية عشرة. ثم الساعة

الواحدة والثانية والثالثة ، وأخذت لندن تقفر، ولم تبق إلا وجوه جعلت الليل نهارها ، ولم يبق من مظاهر الحياة والبيع والشراء ، إلا تلك المقاهى الليلية المتنقلة ، حيث يباع الشاى والساندوتش ويقف أمامها هؤلاء الضاربون فى أرض الله بلا غاية ولا حساب للزمن ؛ ومن حين لآخر تجد بعض فتيات من فتيات الشارع بطابعهن المعروف، يتحدثن مع رجل البوليس فى ركن الشارع ، ويحيين رجال التاكس إذا مررن بهم .

أخذ اليأس يتطرق إلى نفسى وأخذت أفكر كيف أقضى هذه الساعات الباقية من الليل ؛ ولكن فجأة انقلب هذا اليأس شهوة غريبة ، فلم أعد أشعر بتعب السير أو اعياء السهر ، وأخذت أغنى وأصفر ، وأضحك إلى نفسى .

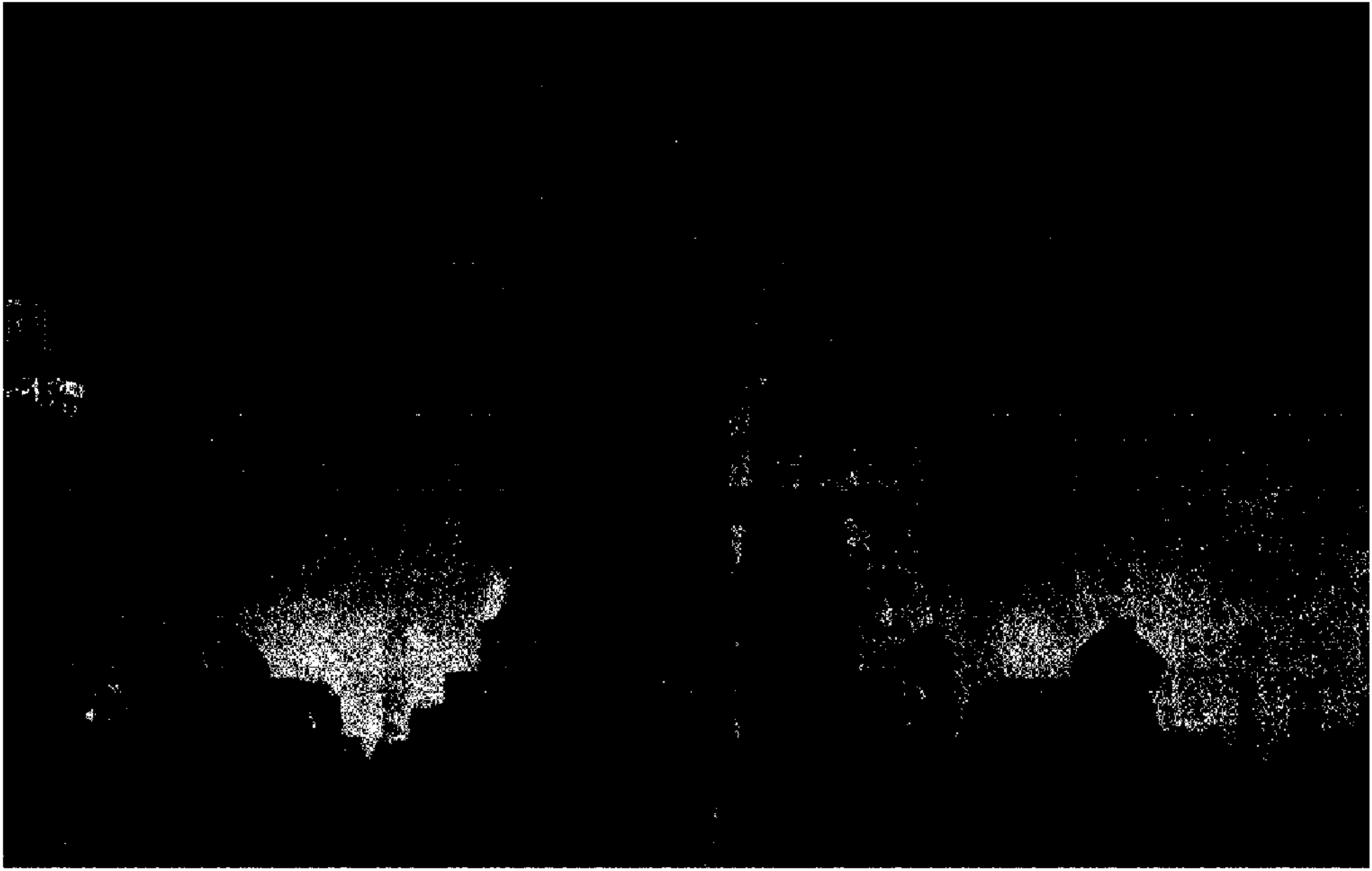
ولماذا البيوت والمنازل ؟ ولماذا لا نعيش أحراراً نبيت فى أى مكان ، ونسكن أى ركن ؟ لماذا لا نعيش ضيوف الشارع . قيدنا أنفسنا فى هذه الحجرات الضيقة ، حتى تحكم سلطان العادة على نفوسنا .

ما أجمل الليل فى هذه الساعة المتأخرة ؛ وما أجمل ميادين لندن ومتنزهاتها الصغيرة وما أفتن الجلوس تحت إحدى تماثيل ميدان البرلمان أو ترافلجار !

قد يجد الشباب فتنة وسحراً فى هذه الحياة الحرة الطليقة فى الهزيع الأخير من الليل؛ وقد أجد متعة وجمالا فى هذه المتنزهات لكى أجلس وأدمن التفكير ، ولكى أتصور وأتخيل ، وأحلم . ولكنها حرارة الشباب وقوة الفتوة هما اللتان ترسمان هذا السحر وهذا الجمال .

فانك إذا تلمست الراحة بين هذه المقاعد ، لم تجد ذلك الشباب الذى يبحث عن السحر والجمال والحرية ، لم تجد تلك القلوب الحارة التى تتدفق بدم الفتوة ؛ لم تجد أحداً من هؤلاء .

ليس ضيوف الشارع من عشاق الحرية ، بل من هؤلاء الذين أعجزتهم الفاقة ، وأعجزتهم السن عن أن يطلبوا الراحة والدفء وراء جدران البيوت . .



وتحت أقدام تمثال نلسن يجلس هؤلاء الضيوف . .

على ضفاف التيمز ، على مقاعده الحجرية المبللة بالندى ، وتحت مسلة كليوباترة المصرية يجلس هؤلاء الضيوف ، وتحت أقدام تمثال نلسن يأوى هؤلاء الضيوف ، وفى ظلال البرلمان الانجليزى ، ودير وستمنستر ، وفى تلك الحدائق التى ارتفعت فيها تماثيل الساسة والقواد الذين بنوا الامبراطورية الانجليزية ، وعلى المقاعد الحديدية الجامدة المتفرقة فى الحديقة ينام هؤلاء الذين لفظتهم الحياة . ينام هؤلاء رجالا ونساء ، وقد هدهم الكبر وعجزوا عن العمل فطفقوا يجاهدون الطبيعة فى بيتها ، وقد وهن عزم الشاب عن جهادها!

هذان الزوجان يجلسان على المقعد جنباً إلى جنب وقد التفا بأسمالها حتى لا تكاد ترى وجهيهما؛ لم يبق لهما من أمل فى هذه الحياة إلا أن يقضيا السنين الباقية من حياتهما بل الشهور والأيام جنباً إلى جنب . لقد ارتقيا درج الحياة خطوة خطوة ، وقد سارا سوياً فى ربيع الحياة ، كما قطعا مراحل الحياة الأخيرة فى جهاد ونضال .

لا يملكان إلا الحب ، حبا ثبت على ممر الأيام ، حبا غسلته مياه المطر التى تسقط

على رأسيهما فى ليالى الشتاء الطويلة ، حبا قدسته الفاقة والفقر .

وماذا فعل هؤلاء الساسة والمفكرون فى سبيل هاته النفوس الشريدة، ماذا فعل هؤلاء القواد فى سبيل هؤلاء الذين يجاورون تماثيلهم ويصحبونهم فى الليالى الموحشة المظلمة ؟

...

ولكن من يدرى لعل هذه النفوس قد استولت عليها الشهوة التى استولت على غيرها من قبل، استولت عليها النزعة البوهيمية التى لا تقر ولا تهدأ فى نفوس أصحابها .

لعلهم يهزأون بنا ونحن نمر بهم سراعاً إلى بيوتنا وقد انهمر المطر أو عصفت الريح، لأننا نهرب من الطبيعة ، أمنا . لاننا نهرب من الحياة ، ونفر من الحرية !

لندن فى الظلام

لم يكن غريباً أن تجد فى سنى الحرب الأولى، كثيرين ممن كانوا يجدون متعة وجمالا فى ظلام الشوارع والطرقات فى الليل ، ممن كانوا يقولون ان لندن لم تكن فى وقت ما أكثر جمالا . نعم ، قد يكون ذلك . ولكن هذه حقيقة مرة .

لقد كانت مرتفعات بيكادلى دائما جميلة جذابة ، وكان التيمز من كبري وستمنسر إلى بلاك فراير فتانا فى الليل، تسرى مياهه بين الأضواء والظلال المنعكسة عليه من الضفتين ، وكانت هايد بارك دائما أشبه ببرية مظلمة ، كثيرة المصابيح ، تعكس نورها على مياه السربنتين المترجرحة فترسم عليها ما يشبه الكتابة الصينية .

أما شلسى ففى ظلام دامس ، وكانت شلسى قبل ليالى الحرب كذلك شديدة الحلكة كأنها قرية فى برية موحشة. وإذا كانت شلسى مظلمة إذ ذاك، فان الايستاند كان أشد حلكة وظلاما ، كانت المصابيح التى تنير دروبه وأحياءه القذرة الملتوية لايكاد ضوؤها الأصفر الباهت يكشف عن مظاهر الفقر فيها .

وإن كانت الذاكرة تخوننا اليوم عن أن نذكر بدقة ما كانت عليه لندن إذذاك ، إلا أنها بلا شك كانت بقعة سحرية جذابة ؛ بقصورها المضاءة المتلألئة ، وبأحيائها المظلمة القاتمة ، وبضواحيها النائمة الهادئة .

وخير ما فعل هذا الظلام أن غطى عن عيوننا تلك الضواحى التى ليس لها من الشخصية حتى نقول عنها انها قبيحة ، وأنه حول تلك الصفوف من المنازل المتلاصقة

إلى أكواخ بسيطة ، والشوارع العريضة ، إلى ممرات تسير فيها أشباح تحمل المشاعل بكل احتراس وهدوء .

وموزعة البريد وحدها بمصباحها الكبير ، وبخطواتها الثابتة تنتقل من منزل إلى منزل ، كانت لها شخصية رجل البوليس ، وكانت تمر على هذه الأشباح بقدم ثابتة ، بينما هم كأرواح تبحث عن أبواب الجنة على ضوء الشموع !

...

لقد كان النور الكشاف جميلا فاتناً ، كأنه سيف ناصع البياض يلمع فوق لندن . لهذا كان عشاق الظلام على حق ، عندما كانوا يلمحون جمالا فى أركان لندن المظلمة .

وهذه الأنوار الكاشفة ، التى كنا نراها فى سنى الحرب الأولى لا تقارن بعشرات الأنوار القويةالتى كانت ترسل على لندن بعد ذلك . تلك التى كانت تثيرالخيال ، وتجعل الناظر يتصور كأنه رحالة يبحث بين النجوم البعيدة .

وكانت هذه الأنوار العديدة تكوّن أشكالا هندسية مركبة فى الفضاء ، وكأن لندن رياضى يرسم هذه الأشكال المنتظمة على ورق أسود .

فى ليالى الضباب الرطبة ، كانت هذه الأنوار الكشافة تنير حوافى السحب باطواق من الذهب ، وفى الليالى التى تغير فيها مناطيد زبلن، كنت ترى الفضاء السحيق كأنه منثور برهور الزنبق الأبيض فى شماله وجنوبه، فى شرقه وغربه .

ولقد كانت مناطيد زبلن فى نظر الكثيرين تحفة جميلة تجمل فضاء لندن وظلامها ؛ ومن ينظر إليها بلا تحامل ـ كما أنظر إليها أنا ـ يرى هذه المناطيد وقد انعكست عليها الأضواء الكشافة ، كأنها أسماك فضية لامعة .

ومن الذى لا يهتز لرؤية هذه المناطيد ، وقد انفجرت حولها القنابل فى الليالى المظلمة المطرة ، كأنها ألعاب نارية فتانة ؟

وعندما أخذت العيون تعتاد رؤية هذه المناطيد فى جو لندن ، أخذ هذا السحر

يتلاشى من القلوب ، ولم تـكن تخفى فى الصدور من أثر إلا المصائب التى كانت تفيض بها على لندن وأهلها . ولقد اعتادت العيون على غارات زبلن ، حتى لم يعد يستحق الفرجة والاستطلاع أن ترقب منطاداً من هذه المناطيد تلتهمه النيران فى الفضاء !

. . .

ومع كل هذا فان ذكرى غارات زبلن وذكرى الأنوار الـكشافة لن تبرح الذاكرة خلال الستين سنة القادمة .



الغارات الهوائية على لندن

وسوف يقص رجال ونساء اليوم على أحفادهم فيما بعد ، كيف رأوا سفينة معلقة فى الفضاء تنعكس عليها الأضواء الذهبية من كل جانب . وكيف اختفت هذه السفينة فجأة ، فابتلعها الظلام ، يدوى فيه الصدى ...

وعلى حين فجأة أخذ الفضاء ينير كأنه فجر كاذب . وأخذت كرة من اللهب تسطع فى الفضاء ، ثم ابتلعها الظلام ثانية ، ولم يبق إلا خيط متقطع من النور يهوى إلى الأرض ، هو آخر منظر من مناظر هذه المأساة .

أما من كان قريباً من الحادث فانه يقص قصة أخرى . انه سوف يذكر كيف أن الظلام قد انكشف عن مئات من الأضواء الخاطفة فى منتصف الليل ، وأنه سوف يذكر كيف تلاقى شروق الشمس بغروبها ؛ وكيف أن الشمس الغاربة قد ابتدأت تهوى إلى أسفل ، تهوى على رؤوسهم بعينها الحمراء ، وبفمها الفاغر القانى ، تحمل الهلاك والدمار . ثم كيف التهم الظلام هذه الأضواء ، وارتفع الهتاف والضحك فى الشوارع !

نعم لم تكن لندن تخلو من ساعاتها الشائقة ، فى تلك الأيام .

...

نعم إن لندن بطرقاتها المظلمة كانت فاتنة فى ذلك العهد ، وفى غير الليالى المقمرة ، كنا نسير فى عالم من الخيالات والظلال ، تسرى بلا صوت كالأطياف حولنا .

ولكن عربات الترام التى كانت تخترق الطرقات كأنها سفائن من النور ، كانت بلا شك أكثر فتنة من عربات الأمنيبوس المظلمة التى تضيق بركابها والتى تسير فى ذلك الظلام الى حيث لا تدرى .

وكانت صفوف عربات التاكس فى الشوارع تشبه خطوطا من النجوم المتلألئة ؛ وفى الليالى الممطرة كانت العربات بمصابيحها الحمراء الخابية التى تنعكس على أرض الشارع المغسولة بمياه المطر ، كانت تقلب هذه الطرقات الى شىء أشبه بجداول البندقية .

وفى سنى الحرب الأولى لم تكن قوانين الاضاءة صارمة كما هى اليوم ؛ فقد كان

يسمح لنا ببعض الضوء الخافت، حتى كنا نقرأ صحيفة المساء فى عربات الامنوبيس. نعم لقد كان جديراً بنا أن نذكر ذلك الجميل لا أن نضج به .

أما اليوم فقد بلغت الحلكة شدتها ، حلكة لا ثلمة فيها للضوء والنور . والسير فى هذا الظلام الدامس ، كالسير فى منجم فحم بلا مصباح . وفى كثير من الطرقات كان عسيراً على الرجل أن يتحاشى الاصطدام بشجرة أو بمصباح الشارع ، وكان ليس بعجيب فى الليالى التى لا يطلع فيها القمر ، أن ينكفىء السائر على عتبات منزله إذا لم يكن يحمل مصباحاً كهربائياً فى جيبه .

والتفكير فى الوسائل التى كانت تستخدم لاحفات ضوء المصابيح ، فيه شيء من المتعة والسلوى . فبعض هذه المصابيح كان يلطخ « بالهباب » الأسود ، حتى صارت أشبه بالمداخن والأفران ؛ وبعضها كان يحمل نقابا أسود ، به فتحات صغيرة ينفذ منها الضوء فكانت هذه المصابيح أشبه بالجلادين المقنعين فى القرون الوسطى ! وكانت الاضواء الخافتة التى ترسلها هذه المصابيح على كل لون ، من أزرق وأخضر وأصفر . وكانت هذه المصابيح التى خفت ضوءها تشبه مصابيح الورق الصينية تهتز على خيوطها .

ولم يكن فى هذا الظلام الحالك ما يشرح الصدر ، أو يدخل السرور والمرح على النفس . حتى أولئك الجنودمن الاستراليين الذى يسيرون جماعات جماعات ويتجمهرون فى أركان الاستراند ؛ تراهم فى هـذا الظلام كأنهم خيالات لا حقيقة لهم ؛ واولئك الفتيات يسرن كأنهن أطياف لا تسمع الا أصواتهن .

لقد كان هذا الظلام مقبضا لمن كان يخرج للسهرة ؛ فلم تعد المشارب والحانات ترسل أضواءهامن النوافذ فيتجمهر حولها الرعاع، بل كانت أشبه بالسجون الموحشة . وكانت أبواب دور السينما مظلمة مقبضة كأنه كتب عليها « تخل عن الرجاء والأمل ، أيها الداخل فى هذه الدار.. » .

وكثير من الناس كان يفضل أن يجلس فى قعر داره عن أن يبحث عن متعة فى هذه الأماكن التى كانت تثير الانقباض ولا تثير المرح . كانوا يجلسون فى بيوتهم يتحدثون ... ولكن ياله من حديث ! !

ولكن لحسن الحظ ، لقد خلقت عند خلق هذه الأرض شمس كما خلق مع خلقها القمر . وانه ليس هنا لك من قوة ، ومن سلطان على تنظيم دوران هذه الشموس . لقد كان ذلك من حسن الحظ .

انه القمر الذى كان يجعل الليل فى لندن جميلا فتاناً فى سنى الحرب ؛

انه القمر الذى كان يجعل ميدان ترافلجار ناصع البياض ، ساحرا يلعب بالعواطف ، كأنه مدينة مراكشية بيضاء .

انه القمر الذى كان يجعل متحف سوت كنز جتن يبدو كأنه بنى حقيقة لأجل الفن والموسيقى .

لندن تحت ضوء القمر مدينة خيالية بشوارعها وأهلها . وفى ضوء القمر ، لم تكن المصابيح المعتمة تبعث فى النفس الانقباض والحسرة ، بل انها كانت كالمشاعل المنطفئة ، اذا مابرز القمر ، وأخذ يفيض على لندن جمالا وسحرا ، ويجعلها فاتنة كأنها البحر المتماوج الذى لا يهدأ .

روبرت لند



برج لندن

قضيت فى لندن سنين قبل أن أفكر فى زيارة برج لندن . ولم أجمع الرأى على زيارة هذا الأثر التاريخى إلا حين عزمت على نشر هذا الكتاب عن لندن .

وليس ذلك لأن برج لندن لا يستحق الزيارة ، بل لأن برج لندن قد ارتبط بذكريات عديدة ، بذكريات سوداء لا أريد أن استرجعها ، ولا أريد أن أثبتها برؤية المسرح الذى مثلت عليه هذه المأساة ؛ لأن برج لندن يذكرنى بتلك العهود التى كانت فيها حياة الافراد تحت رحمة الاهواء ، وكانت فيها حريتهم مرهونة بكلمة يفوه بها صبى أو تتلفظ بها محظية ، فى الغرب كما فى الشرق .

برج لندن يذكرك بالباستيل فى باريس ، يذكرك بقصور السلاطين وسجون البسفور التى كانت لا يدري أحد ما يجرى وراء جدرانها وما يقترف فى سراديبها .

ولكن الباستيل لم تبق ذكراه الا فى الكتب ، وعلى انقاضه قام ميدان الحرية وتمثال الحرية ، يذكر الفرنسي الحديث بقصة استبداد الافراد بالجماعات ، وبتاريخ اسود دونت صحائفه الشهوات والأهواء . ولكن الفرنسي التي يجرى فيه الدم اللاتينى الفائر ، قد يشرب الكأس حتى ثمالته ، ولكنه اذا انتهى جرعه غيره ؛ فالأعصاب التى تحتمل رؤية الفظائع ، هى الاعصاب التى ترسل هذه الفظائع على رؤوس أصحابها دون تردد أو خور فى العزيمة .

هنا تتجلى الطبيعة الانجليزية الباردة . هذا هو برج لندن لا يزال يرفرف عليه

العلم الانجليزى ، ولا يزال يحتفظ ببهائه وعظمته ، ولا يزال يحتفظ بتقاليده التى مرت عليها مئات السنين . حراسه بملابس القرون الوسطى الحمراء الزاهية ، يصبغون جوه بصبغة تلك العصور التى كان فيها هذا البرج مركز الرحى فى لندن .

فى كل ركن من أركان هـذا البرج صورة سوداء لعصر من عصور التاريخ الانجليزى : عظماء سجنوا فى سراديبه عشرات السنين ، أمراء اغتيلوا فى أبهائه ، ملكات ونبيلات شنقن فى حدائقه .

. . .

ليس فى كل هذا ماينفّر هذا الشعب من قضاء يوم بأكمله فى البرج يستعيدون هذه الذكريات بجمود وبرود ؛ ليس فى كل هذا ما يثير الدم فى صدورهم فيفكرون فى القضاء على مثل هذا الأثر الذى لايرتبط بحادث يدل على عظمة أومجد فى الماضى ، بل على استبداد وعلى وحشية .

لا . ليس هذا متيسراً فى انجلترا . ليس هذا مما يحتمل حدوثه من افراد هـذا الشعب الذى يحتكم لتميزه قبل أن يحتكم لعواطفه .

ولماذا نهدم هذا الأثر ؟ ولماذا نقضى على حلقة من تاريخ انجلترا ؟ ان كان هـذا البرج رمزاً للاستبداد ، فان ذلك قد كان فى عصره وليس فى هذا القرن العشرين . إننا نذهب بأولادنا لنقضى اليوم فى حدائقه ، لنأكل ونشرب ونطرب . ولا نذكر أن فى هذا المكان أقيمت المشنقة أو رفعت الفأس لقتل ولتر رالى أو آن بولين أو جان جراى . ولكننا نذكر أن هذا البرج رمز لقوة الملك فى عصور مضت ، رمز لعظمة انجلترا ؛ لعظمة الآباء والأجداد .

هذه هى الفلسفة الانجليزية ، التى لاتدع الدم الحار يطغى على تفكيرها فتفقدها البرود والجمود الذى تتميز به .

. . .

تسير فى الطريق الى البرج فتجد صورة أخرى للندن لا تعرفها من قبل . تجد حياة غير الحياة التى تعيشها فى لندن هذه السنين الطويلة . لندن القديمة التى تطل على مياه التيمز ، هى غير لندن التى تتمركز حول بيكادلى أو هايد بارك .

ليس فى التيمز مايبهر بمياهه البيضاء التى اختلطت بالجير والطباشير ، ليس فى هذه الأبنية التى تطل على مياه التيمز ما يفرح ، وليس فيها جمال ولا ابداع .

أبنية تلطخت بالدخان والهباب من مداخن المصانع العديدة التى تطل على النهر ، ومن مداخن القطارات والبواخر النهرية التى تنقل الفحم والخشب والخمور وغيرها من هذه المعامل والمخازن والمستودعات إلى المحيط .

إذا ما تخطيت السور وسرت فى اتجاه البوابة الحجرية ، فابلك بعض الحراس بملابسهم الحمراء المخططة وبقبعاتهم الملونة الطويلة ، بتخطر بعضهم بشىء من العظمة المصطنعة ، أو يجلس يرقب الرائحين والغادين برزانة وثقة بنفسه ، وإذا سألته لا تكاد يسمعك الا كلمات معدودة على قدر الحاجة وهو منصرف عنك بوجهه ، برعة مصطنعة يحاولون بها أن يرجعوا بك الى قرون خلت ، عند ما كان اسم هذا البرج يبعث الرهبة والخوف فى النفوس ، وعندما كان أجداد هؤلاء الحراس أو آباء أجدادهم ، يتصرفون فى أولئك التعساء الذين يرسل بهم الى البرج ليعيشوا هناك الى الأبد ، تحت رحمة هؤلاء الحراس أو تحت سوط نقمتهم .

تسير فى الممر الذى يقودك الى قصر الجواهر ، فتمر على بوابة ضخمة واطئة تصل النهر ببعض سراديب القلعة .

هذه المداخل السرية للقصور والقلاع كانت شائعة فى القرون الوسطى ، هذه هى الطرق السرية التى لا يعرف من يدخل فيها أو من يخرج منها .

هذه البوابة تدعى « بوابة الخونة » وهذا الاسم وحده يكفى ليدل على مهمة هذه البوابة . هؤلاء الخونة الذين نصبت من أجلهم هذه البوابة ، هم أولئك الذين غضب



برج لندن من التيمز

عليهم الملك أو أحد الأمراء ، أو من يتصل بهذا الملك أو بهؤلاء الأمراء من محاسيب أو محظيات . فيرسلونهم سراً على مياه التيمز الى هذه القلعة ، دون أن يعرف أحد من أمرهم شيئاً ، قد يسجنون فى احدى زنزانات البرج وقد يعذبون فيها أو يقتلون ولا يدرى بخبرهم أحد . فاذا اختفى أحد هؤلاء ، سرى الهمس بين الشعب بأن هذا الغائب قد صار ضيفا على برج لندن .

هؤلاء هم الخونة . وقد لا تكون هذه الخيانة نحو وطن أو نحو أمة أو شعب ، بل نحو أفراد وفى سبيل مطامع شخصية . وعلى هذا النحو كانت تعرف الخيانة .

كلما ذكر برج لندن كلما ذكر اسم سير ولتر رالى القائد البحرى المشهور الذى أسس ولاية فرجينا فى أمريكا ، هذا القائد العظيم قضى أيامه الأخيرة ، ولم تكن أياما بل أعواما طويلة، أربعة عشر عاما، فى حجرتين ضيقتين . وفى نهاية ذلك حكم عليه بالاعدام

كانت أول جريمة ارتكبها ، والتى اثارت عليه غضب الملكة اليصابات ، انها سمعت بشبه علاقة بينه وبين احدي سيدات القصر الجميلات ، اثارت هذه العلاقة غضب الملكة أو غيرتها على الأصح ، فامرت رالى أن يعطل سياحته الجديدة ، ثم ماذا . . وان يتزوج .

ولكن رالى رفض هذا الزواج ، وذهب ليقابل اسطول أعدائه الاسبان فى عرض المحيط ليعود ظافرا رافع الرأس ، ولكن الملكة لم تغفر له رفضه فردته إلى البرج ليسجن فيه

وعند ماتولى جيمس الأول رد رالى الى برج لندن ، لان الملك أراد أن يعيش فى سلام مع الاسبان ، وكان من شروط الصلح القضاء على خصمهم العنيد ولتر رالى ، فرمى الملك بجندية الشجاع فى السجن ، فى البرج الذى يطل على بوابة الخونة ، والذى يطلقون عليه اسم « البرج الدموى »

هناك قضى والتر رالى أربعة عشر عاما تحت عين يقظة ووجوه عابسة ، ومع كل هذا لم يرض الاسبان بحبس عدوهم ، فأوعزوا الى الملك بقتله ، بقتل أحد الأبطال

الذين عاشوا وعملوا لرفع العلم الانجليزى فوق المحيط .

وهكذا أعدم رالى فى صباح ٢٩ أكتوبر سنة ١٦١٨ بينما كان موكب عمدة لندن السنوى يسير فى شوارع لندن « لكى يجذب الاحتفال عيون الشعب عن مشاهدة إحدى المآسى التى ذهب ضحيتها أحد أبطال انجلترا العظماء » هكذا يقول احد الكتاب المعاصرين .

هذه قصة من عشرات القصص التى تتصل بتاريخ برج لندن ، هذا مثل لتلك المآسى التى كانت تمثل خفية وعلنا بين جدران هذه البروج وهذه القلاع ، تحت اسم الخيانة .

فى هذه القلعة قضى أحد أمراء فرنسا الشطر الكبير من حياته لا لأنه فارس هزم فى موقعة ، بل لأنه غريم فى الحب ومنافس للملك الانجليزى .

وفى هذا البرج قضى شيخ فى الثمانين من عمره هو الكردنال فشر من البرد والجوع . وفى هذا البرج الذى قضى فيه ولتر رالى ، اغتيل فيه طفلا الملك شارل وهما فى نومهما ، بعد ان سجنا فى بعض حجرات هذا البرج

. . .

نخرج من هذا « البرج الدموى » بعد أن تنتقل بين حجراته الضيقة الخشبية القديمة ، وسقوفه الواطئة ، وسلالمه المظلمة ، وتلك الزنزانات التى لا تكاد تدور فيها بجسمك ولا ترى فيها يدك من شدة الظلام ؛ نخرج من هذا البرج ، الى برج آخر بجواره ، برج ليس به أكثر من حجرة واحدة وسرداب أو سردابين .

هذا هو برج الجواهر ، ماأبعد الفرق بين البرجين المتجاورين !

فى هذه الحجرة الواحدة ، تدخر انجلترا أنفس مالديها من جواهر ومن صولجانات ؛ فى هذه الحجرة الواحدة تجد تاج الامبراطورية الانجليزية التى لا تغرب عنها الشمس ؛ بل انك تجد أكثر من تاج واحد ، تاج الملك وتاج الملكة ، وتاج ولى العهد ،

وتيجان كثيرين من الملوك السابقين.

فى هذه « الفاترينة » الصغيرة ، وفى هذه الحجرة القديمة المتهدمة الآلاف من الأحجار الكريمة ، من ماس ومن لؤلؤ ومن ياقوت ، من أحجار جمعت من كل ركن من أركان الأرض ، ومن كل منجم من مناجم هذه الأحجار . وكثير من هذه الأحجار ليس له مثيل فى العالم ، كثير من هذه الأحجار التى ترصع التاج البريطانى قد استلبت من تيجان ملوك واقيال قد ذهبوا وذهب سلطانهم !

أما الذهب ففى كل مكان ، ليس له قيمة بجانب هذه الجواهر الزاهية اللماعة ؛ صولجانات ضخمة كأنها المتاريس ، ينوء الكتف تحتها ؛ أطباق كبيرة للملح ونوافير للخمر مما يستعمل فى حفلات التتويج ، جميعها من الذهب الخالص .

هذا الغطاء الزجاجى الذى يحجز هذه الكنوز من عبث الأيدى ليس ضعيفا كما تراه العين ، لأنك اذا أمعنت النظر خلفه وجدت سياجات خفية ، ووجدت عددا وآلات ، وأسلاكا . تحرس التاج البريطانى من أيدى العابثين

وحول هذه النافذة التى تتوسط الحجرة ، نوافذ أخرى صغيرة تحفظ فيها مجموعات من الاوسمة والنياشين البريطانية على اختلاف درجاتها وأنواعها .

وتقرأ باللاتينية على الكثير منها « ملك بريطانيا وامبراطور الهند » تجد اسم الهند على كل أثر يتصل بالملك ، وفى كل أثر يدل على عظمة هذه الامبراطورية ؛ نعم الهند التى اذا فلتت من يدبريطانيا ، يخر بانسلاخها صرح شامخ من صروح الامبراطورية . .

...

انظر الى المرأة فاغرة الفم ، ذاهلة لاتكاد تتحرك وهى مسترسلة فى التحديق الى هذه التيجان !

أنفس ماتصبو اليه المرأة من حلى ومن جواهر ومن زينة لايحجزها عنها الا هذا

الغطاء الزجاجي ! ليست الجواهر فحسب هي التي تذهل ، بل هي التيجان ، رمز الملك والعظمة .

في سبيل تيجان لم تكن تبهر العين كما تبهرها هذه التيجان سفكت الدماء ، واقترفت أفظع الجرائم ، لم تراع فيها حرمة شيخ ، أو اب أو ابن . نعم في سبيل هذا الطوق الأصفر وهذه الأحجار اللامعة !

هذا التاج لايلبسه الملك نصف ساعة طول حياته ، هو محبوس في هذه الحجرة تطوف حوله الوفود كما يطوف الحجيج حول الكعبة ، تعتور قلوبهم الشهوة والحسرة والأحلام الجامحة ، لا هدوء النفس ولا الأمل في الرحمة والمغفرة كما إذا طاف الحجيج حول الحجر الأسود .

إنك لتفكر معي أية متعة تجدها من حمل هذا الثقل المعدني على الرأس ! لو أتيحت الفرصة لأي رجل ، أو لأية المرأة ، فانها لا تتوانى عن إلقائه بعد ساعة ، وتتنهد بعد ذلك تنهد الراحة !

خير لنا أن نسمع عن هذه الجواهر وهذه التيجان من أن نراها وأن نلبسها . لأن تلك الأحلام الذهبية ، تتبخر عندما نجد أن هذه التيجان ليست إلا أطواقاً ثقيلة تحني العنق ، وهذه الجواهر ليست إلا نوعاً من الزجاج والحصى والخرز !

...

تترك هذا البرج بتيجانه وجواهره ، لتجلس هنيهة تحت ظلال أشجار القسطل الوارفة في الحديقة الواسعة التي تتوسط هذه الأبراج .

وبين أحواض الزهور ، مربع رخامي صغير، تحيط به ؛ هذه الزهور اليانعة المتعانقة. وفي وسط هذا المربع لوحة صغيرة من النحاس ، لاشك أنها تذكر السائر بحادث ما، لعله حادث حب أو زواج تحت ظلال هذه الأشجار المتدلية الفروع .

تقرأ على هذه اللوحة: فى هذا المكان نصبت المشنقة لقتل آن بولين، وجان جراى « وو . . الخ »

هذا العدد من الأمراء ومن الملكات ومن الاميرات ، قتلن فى هـذا المكان ، وبين هذه الزهور ، وتحت هذه الفروع المتدلية .

هل الموت تحت هذه الأشجار وبين هذه الزهور فيه شئ من المتعة واللذة ؟ هل يخفف هذا الجمال من غصة الموت ومن رهبة النطع وحبال المشنقة !

أظن أن ذلك يزيد الموت رهبة ، ويفيض على النفس ألماً وحسرة عميقة . خير لنا أن نموت فى حجرة مغلقة ضيقة محكمة الأبواب ؛ خير لنا أن نترك هذه الحياة بين جدران أربع، لا فى الهواء الطلق ، ولا بين الأشجار والزهور .

إن شدة الموت ورهبته ، لا تتناسب مع جمال الطبيعة ، خير لنا أن نموت فى البحر لمزبد الصاخب ، لا فى البركة الهادئة التى يرسل عليها القمر ضوءه

. . .

وبين هذه الأبراج وهـذه الحدائق ، تمر فى طريقك الى « البرج الأبيض » وهو أقدم هذه الأبراج وأضخمها . هذا البرج قـد صار الآن متحفاً تاريخياً . متحفاً للسيوف والحراب والبنادق والخناجر والمدافع .

آثار تراها فى كل متحف ، حتى لم تعد تثير اهتماماً أو عناية ؛ وهى من ناحيـة أخرى لا تعنينى ولا تثير اهتماماً خاصاً عندى .

لست أدرى لماذا لا يحتفظ فى هذه المتاحف الا بأدوات القتل والسفك والدمار ، لماذا لا نرى إلا هذه الحراب والسيوف والخناجر ، لماذا لا نرى الا كيف كان يتقاتل أجدادنا ويتنازلون ؟ !

وإذا كان القتـل والنزال لابد منه فى سبيل المبـدأ أو فى سبيل الشرف ؛ وإذا كانت تضحية الجسم فى سبيل حياة أسمى لكان هذا معقولا سائغاً ، ولـكننا نتقاتل

لأجل لاشيء ، ونخلد ذكرى القاتل ونخلد ذكرى المقتول ...

تسير فى هذا المتحف بين صفوف تماثيل الفرسان بدروعهم وخوذاتهم وتروسهم وحرابهم وبجيادهم المزركشة المجللة بالزرد ، منظر جميل فاتن ، هؤلاء هم الفرسان الذين كانوا أبطال الحب الفروسى فى القرون الوسطى ، الذين كانوا يجوسون خلال أوروبا لينجدوا فتاة مخطوفة ، وليقعوا فى حبها وغرامها ! ما أشبههم بفتوات العهد الماضى فى مصر .

ولكنك إذا اقتربت من هؤلاء الفرسان ومن ملابس الزرد والصلب السميك التى تغطى كل عضو من أعضائهم ، تعجب كيف يسيرون بهذا الحمل الثقيل ، بل كيف تسير أفراسهم بهم وبها ؟

تعجب لهذه الفروسية الممسوخة ، هؤلاء الفرسان يحمون أنفسهم وجيادهم بهذه الدروع وهذا الزرد ، حتى لا ترى منهم إلا الفتحات التى تبصبص منها عيونهم ، وإذا ساروا للقتال حسبتهم تماثيل صلبية متحركة ، ومع ذلك فهم يذهبون بكل هذه الحواجز الواقية للمنازلة . يذهبون للموت طائعين ، ويحمون أنفسهم من الموت ، تناقض عجيب .

وبين هذه المعروضات تجد ما يستحق المشاهدة . تجد العربة التى حملت جثمان الملكة فكتوريا والتى حملت جثمان ادوارد السابع الملك السابق إلى حيث دفنا فى دير وستمنستر تجد بعض الفؤوس التى كانت يستعملها الجلادون وقطعة الخشب التى كانت تسند إليها الأعناق وتشاهد على سطحها الأملس فعل الفؤوس .

...

ثم تنزل من هذه القاعات بدرجات لولبية ضيقة إلى الطابق الأرضى . بهو مظلم رطب لا تكاد ترى يدك فى ظلامه ، تضيئه أنوار خافتة تفيض على المكان رهبة وفى هذا الضوء الخافت تشاهد بقايا مدافع قديمة كانت تستعمل يوماً ما لتحصين هذا البرج ، وتشاهد بئراً تتصل بسرب أرضى إلى التيمز . ومن ثم تخرج إلى الحديقة وإلى ضوء

النهار ، فكأنك تنشر من بين الأجداث الى الحياة ثانية

...

لم يبق فى هذا البرج مايستحق الزيارة تمر على أبراج أخرى ، ولكنك بعد أن أجهدك السير لا تكاد تفكر فى ارتقاء درجاتها الضيقة من جديد .

وهكذا تجد طريقك إلى الباب الخارجي !

وهكذا تخرج من برج لندن ساهما مشتت الفكر تخرج فتجد الطرقات التى تؤدى الى برج لندن ، كذلك حزينة خالية من الناس ومن الحركة .

وتأخذ الترام فتشعر كأنه مغبر ، وتشعر كأن الوجوه التى حولك عابسة كأن أصحابها قضوا اليوم كما قضيته فى برج لندن وفى سراديبه المظلمة المقبضة ، حتى إذا عبرت التيمز تبدلت لندن ، وأخذت الحياة تنبض فيها من جديد .



حراس برج لندن بملابسهم التاريخية

ولورث

أعلى بناية فى العالم هى بناية ولورث فى نيويورك . هذه حقيقة أعرفها منذ زمان . ولكنى لم أكن أعرف أن صاحب هذه البناية أو أصحابها ، قد بنوها بما يبيعونه بالملاليم والقروش لابالريالات والجنيهات .

فى كل منطقة فى لندن وفى كل شارع رئيسى ، محل من محلات ولورث ، وفى كل بلد وقرية انجليزية فرع من فروع ولورث ، حتى صار ولورث جزءاً متمما للحياة الانجليزية ، وانها لتفقد جانباً ليس بالقليل من نضرتها اذا أغلقت هذه الفروع الولورثية !

من عادتى أن أزور محلات ولورث بسبب وبغير سبب، وليست هذه عادتى أنا فقط. بل هى عادة الكثيرين من صغار ومن كبار ، ومن رجال ومن فتيات . يكفى أن أمر على إحدى هذه الفروع . وأراقب العشرات من الداخلين والخارجين منها ، يكفى ذلك لكى أدخل مع الداخلين.

الروح الامريكية تتمثل فى ولورث، البساطة المتناهية ، السهولة فى طريقة البيع ، ثم رخص الأثمان . « كازيون » دائم ، لايحتاج الى الاعلان عنه ، فهو يتحدث عن نفسه بذلك العنوان الواضح الذى لايحتاج إلى تأويل .

«ولورث ، محلات الثلاث بنسات، والست بنسات » ادخل ولاتخف فأنت آمن ، فلن يخونك جيبك ، وسوف لا يفضحك كيسك ، اذا ماجذبك صنف من مئات الأصناف المعروضة فيه .

أعلى ما يمكن أن تشتريه لا يزيد عن ستة بنسات ، قرشين ونصف لا أكثر ولكن الحد الأدنى لا يقتصر على ثلاثة بنسات ، فهنا لك ما هو ببنسين وبنس بل وما هو بنصف بنس .

ماذا أشترى بما لا يزيد على ست بنسات ؟ وما هذا الذى أقتنيه بهذه اللاليم أو القروش القليلة ؟ انك لتعجب اذ تجد المئات والمئات من الأشياء ، ومن الاشياء التي تغريك بالشراء وبالاقتناء .

أعجب ما اعجب له هذا العقل الذى أمكنه أن يجمع هذه المئات من البضائع التي لا تزيد قيمة احداها على قرشين ونصف

أنت بالطبع تحتاج إلى شيء من الصابون ، الى فرشاة للأسنان، الى معجون للحلاقة الى دهان للشعر ؛ ولكن لا ! ربما لا تكون ممن يعنون بأمور التواليت .

قد تكون من زبائن الأدوية . لفائف القطن ، الاسبرين ، صبغة اليود ، ملح انجليزى ، قطرة ، مسكن للاسنان ، اكسيجين ، بوريك ، فينيك . . ، هي على الجانب الآخر ولن تدفع فيها إلا هذه البنسات القلائل .

وسواء أكنت من راغبي أدوات التواليت أو من زبائن العقاقير والأدوية ، فأنت بلا شك فى حاجة الى الأدوات الكتابية ، ظروف وجوابات على كل لون وعلى كل شكل ، مذكرات صغيرة وكبيرة ، مفكرات ، نتائج ، خرائط ، كراسات ، أقلام رصاص ، مساطر ، مماسح، مناشف ، دفاتر تلفون ، دفاتر حساب . قواميس ، كتب ، روايات ، مجلات ، عشرات وعشرات ، مما لا تذكرها إلا اذا مررت بها ، بنس هنا وبنس هناك ، فاذا ما انتهيت ، رأيت أن هذه البنسات قد صارت شلنات غير قليلة .

فكرة تجارية حاذقة .

ثم هنا جانب الأدوات المنزلية، والأشياء النسوية التي لا تدخل تحت حصر من ابر ودبابيس وزرائر ، وشرائط ومناديل وجوارب ، ومقصات. ثم قسم الأطباق والكوبات

والمعالق والمغارف والحلل ٠٠ أدوات مطبخ كاملة .

ولا أظنك تمر على قسم الحلوى ، ولا تشترى شيئاً ولو لأولادك، أو لك اذا كنت مؤمنا« فالمؤمن حلوى» بقرش أو نصف قرش ، وإذا أمكنك أن تضبط عواطفك أمام ذلك ، فان قسم الهدايا واللعب لاشك يستهويك ، لا سيما إذا كنت أبا .

ليست هذه الأقسام هى كل ماتجده فى ولورث بل عشرات منها ، لاتمر على واحد منها إلا ويذكرك بشىء ينقصك ، بشىء يستحق الاقتناء لرخص ثمنه أو لجماله أو لدقة صنعه

...

ولكن السيدولورث ـ إذا كان هذا الاسم يطلق على مسمى ـ لا يقتصر على ذلك ، بل هو يريد أن يعرض لك فى محله ، كل ما يمكن أن تحتاج اليه ، ولو لم تتخيل أنه يدخل فى دائرة القرشين والنصف .

ولماذا لاتشترى حذاء ؟ حذاء بقرشين ونصف ! وكيف لا . سواء أكان هذا الحذاء من ورق أم قماش أم جلد فهو حذاء على كل حال . وإذا كانت رجلك همشرية فلا ضير أن تشترى (الفردة) الواحدة بهذا الثمن .

هذه فكرة شيطانية . هو يبيعك كل شىء بست بنسات ، فلا بأس من أن يبيعك اياها متفرقة وعليك أن تجمعها وتجمع هذه« الستات» من البنسات عند الدفع !

تريد أن تشترى مصباحا كهربائيا . حسن . كل شىء لدينا بقرشين أو أقل . قاعدة المصباح ، المظلة ، السلك، البطارية ، فاذا أتممت تركيبه ، تركبت الحسبة من ناحية أخرى وأنت لاتشعر .

وهكذا قد تدفع ماتدفعه فى مكان آخر ، وأنت لا تحس بغلو فى الثمن ، إلى أن تخرج فتجد أنك لم تقتصد شيئاً ، فبدلا من أن تشترى بالجملة اشتريت بالقطاعى .

وكل مرة أزور إحدى فروع ولورث ، اكتشف قسما جديدا ؛ ولعل أحدث

مارأيت قسم المطبعة ، طباعة لا تكلف أكثر من قرشين ، وفوق ذلك لا خلف فى المواعيد ولا تسويف ولا تعطيل ، فأنت تأخذ ماتريد طبعه بعد خمس دقائق على الأكثر ؛ بطاقات زيارة متقنة الطبع ، نظيفة منسقة .

...

وفى المصايف تؤدى مخازن ولورث خدمة حقيقية . فكل ماتطلبه وكل مايحتاج اليه الأطفال من ألبسة البحر ومن أحذية ومن شصوص للصيد ومن كرات ومن عوامات للسباحة ومن ألعاب الرمل ومن صور للمصيف ، تجده فى ولورث .

وبعض الأدوات من العسير أن تجدها فى مكان آخر غير ولورث ؛ لست أدرى كيف أشترى ورقة من الدبابيس أو الابر مثلا فى لندن إذا لم تكن ولورث !

...

ولكن دعنا من هذا كله ، دعنا نتناول الطعام فى مطعم ولورث . نعم فلولورث مطعم خاص ، يسير تحت هذا القانون قانون الست بنسات . وهو فوق ذلك له صبغته الأمريكية . فأنت فيه الخادم وأنت فيه المخدوم . اذا جلست على المائدة فلا تنتظر أن تهرع اليك الخادمة بل عليك أن تبحث بنفسك وتحمل طعامك بيديك .

تذهب أولا وتأخذ «صينية» تجمع فيها طعامك ثم تمر على كل قسم ، وكل قسم يعرض مالديه من طعام ، وعلى كل صنف ثمنه المحدود الذى لا يزيد على قرشين ونصف

هذا قسم الخبز والزبد والجبن والكيك ، ثم السلطات ثم البطاطس والسمك واللحوم ، ثم الساندوتش ثم الحلوى ، ثم الشاي والقهوة ، ثم المرطبات .

ثم قسم الملاعق والملاقط والسكاكين والأطباق ، حتى اذا ما انتهيت مررت على صندوق الحساب ، فقدرت لك العاملة قيمة ما تحمله ، وتذهب إلى حيث شئت بطعامك .

طريقة امريكانية جميلة . وألطف مافيها أنك فى غنية عن دفع البقشيش ، ولا تلوم

الجرسون اذاتأخر عليك وكنت جائعا ، ولا تخطىء فى اختيار الأصناف التى تعجبك ، حتى ولو كنت تجهل أسماءها واصطلاحاتها

...

هذا ولورث الذى بنى أعلى بناية فى العالم بما يبيعه باللاليم والقروش ، مثل واضح للعبقرية التجارية ، ومثال صادق لما يفعله الاقتصاد ، فهو يحقق صدق المثل الانجليزى احرص على الملاليم فان الجنيهات تحرص على نفسها .

نحن فى فجر نهضة اقتصادية ، وقد بدأنا نشعر أن الاستقلال الاقتصادى أساس كل نهضة ، وبدأنا نشعر بأن التعاون الاقتصادى بتكوين الشركات وغيرها ، هو الطريق السوى الى الثروة الوطنية .

وما أكثر الاقتراحات فى فجر كل نهضة اقتصادية ، وما أقصر الأيادى المنفذة العاملة : لأن الخوف من الفشل ، والحذر من الكبو والعثار ، يخيف ويرعب . لاسيما اذا كان احتمال الكسب واحتمال الخسارة كبيرا . فالتجارة فيها روح المقامرة .

ولكن لماذا لانبدأ بمثل هذه الشركات الولورثية ، فنتعامل فيما يباع بالملاليم والقروش ، ونشجع فى الوقت نفسه المئات من العمال فى مختلف الصنائع الصغيرة ، التى لايعرفون كيف يعرضونها فى الأسواق الكبيرة .

ان المليم جزء من الجنيه ، ولكن الجنيه ليس جزءاً من المليم . والجزء يكوّن الكل وليس العكس صحيحاً !

فهل من أحد يسمع هذه الفلسفة العملية ؟

دير وستمنستر

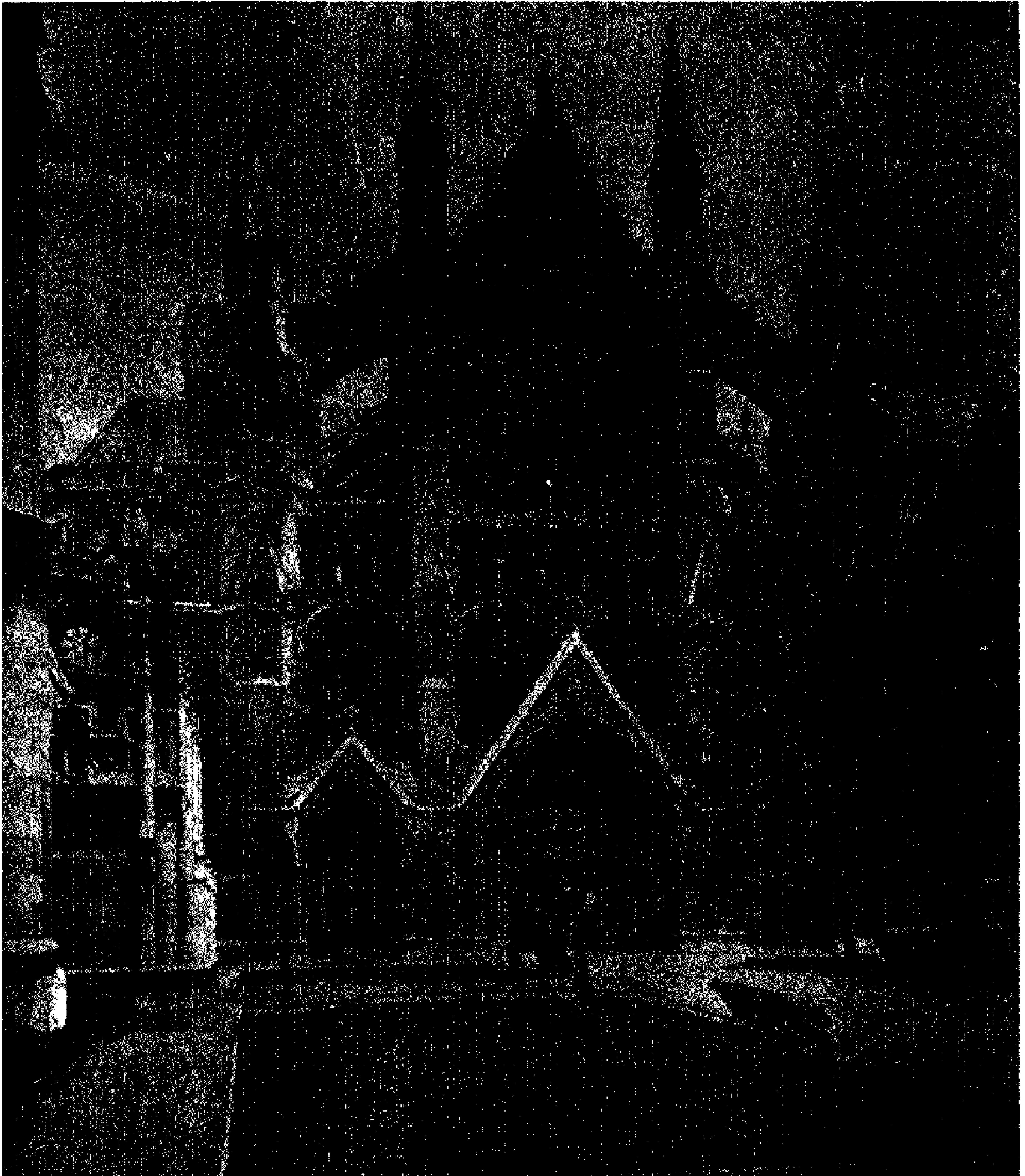
كان من عادتى أن أزور دير وستمنستر إذا ما كنت فى حالة نفسية ثائرة، فرهبة المكان والغرض الذى أقيم من أجله ، وحالة هؤلاء الذين قـد سكنوا تحت أحجاره ، كل هـذا كان يملؤنى بالأفـكار والخواطر ، ويبعث فى نفسى حسرة كنت أستسيغها وأقبلها .

زرت دير وستمنستر بالأمس ، وقضيت ما بعـد الظهر متنقلا ما بين الـكنيسة والمدافن والابهاء التى يحويها هذا الدير . ووجدت شيئاً من المتعة فى قراءة ما حفر على هذه القبور ، التى لم يذ كر على الـكثير منها إلا أن صاحب القبر قد ولد فى يوم ومات فى يوم آخر . كأن حياة هؤلاء الرجال ليس فيها من أثر إلا هذه الحقيقة التى يشترك فيها كل حى على الأرض .

وكنت أنظر الى هذه الألواح سواء أكانت من نحاس أم حجر كأنها تسخر من أصحابها ، أولئك الذين لم يخلدوا من ذكرى فى الحياة الا أنهم ولدوا وأنهم ماتوا .

وكلما أنظر الى ذلك ، كلما أذكر أولئك الفرسان الذين تخلدت أسماؤهم فى الأشعار والأقاصيص ، لغير ما سبب سوى أنهم قتلوا . وخير وصف لهؤلاء أن حياتهم أشبه شئ بمروق السهم ، الذى إذا ما أرسل فى الفضاء سرعان ما يختفى ولا يعرف مكانه

وبينما أنا فى المقبرة ، كنت أرقب حفر أحـد القبور . فـكان فى كل كومة ينثرها الفأس ، شظايا جمجمة أو قطعة من العظم مختلطة بالتراب ، هذا التراب الذى



دير وستمنستر

كان فى يوم ما جزءاً فى تكوين جسم انسان

أخذت أفكر فى هذه المئات من الناس التى دفنت دون تفريق أو تمييز تحت أرض هذه الكاتدرائية القديمة . أخذت أفكر كيف آل أمر من دفنوا فى هذا المكان من رجال ونساء ، من أصدقاء ومن أعداء ، ومن قساوسة ومن جنود ؛ فصاروا كومة واحدة : أخذت أفكر كيف اختلط الجمال بالقبح ، والقوة بالضعف ، والشيخوخة بالشباب فى هذا المكان دون تفريق ؟

. . .

ثم أخذت أتأمل ما دوّن على التماثيل الكثيرة المبعثرة فى كل مكان ، التى لو عرف بعض أصحابها ما كتبه عنهم أصدقاؤهم من كلمات الرثاء لكانوا يزورّون خجلا لهذا المديح المبالغ فيه ؛ ولو أن ما دوّن على بعضها الآخر ليس به هذا الغلو ، الا أنه كتب باللاتينية أو الاغريقية التى لا يكاد يفهم فحواها زائر فى كل قرن .

وعند ما زرت ركن الشعراء وجدت كثيراً من هؤلاء الذين دفنوا فى الدير بلا تماثيل ؛ وكثيراً من التماثيل لاتحوى أجساد أصحابها .

ولشد ما كان اغتباطى بلوحات المقابر الحديثة ، التى بلا شك تدل على ذوق كتابها وعلى دقة تفكيرهم ، فمثل هذه تشرف الاحياء كما تشرف الموتى .

. . .

ان هذه المتعة التى أجدها عند ما أزور مثل هذا المكان لاتثير فى النفس ألما وحزناً ولا تطير بالعقل فى عالم قاتم اسود ، كما تفعل بأصحاب القلوب الضعيفة والخيال المريض . فأنا أدرس الحياة وأجد متعة فى هذه الدراسة اذا مانظرت اليها من ناحيتها السوداء ، كما اذا نظرت اليها من ناحيتها الجميلة البهيجة .

. . .

إننى اذا ما نظرت الى قبور العظماء فان كل نزعة حسد تموت فى نفسى .

وإذا ما قرأت ما كتب على قبور الجميلات ، فان كل شهوة تنطفئ فى صدرى .

وإذا ما شاهدت مبلغ حزن الآباء على أبنائهم فان قلبي يتفطر أسى وحزناً ؛ ولكن اذا ما شاهدت قبور هؤلاء الآباء أنفسهم ، فانني أفكر فى تفاهة هذا الحزن والاسى على رحيل هؤلاء الذين سوف نلحق بهم قريبا .

وإذا ما نظرت الى الملوك وقد دفنوا جنبا الى جنب أولئك الذين استلوا عروشهم . . . والى المفكرين ورجال الدين الذين قسموا العالم فرقا بمساجلاتهم ونظرياتهم ، فانني أفكر بحسرة وعجب الى هذه المنافسات والمشاحنات الضئيلة التى تنشب بين أبناء آدم .

واذا ما قرأت تواريخ هذهالقبور ؛ التى دون بعضها بالأمس والتىدون بعضها منذ ستة قرون ؛ فانني أفكر فى ذلك اليوم العظيم الذىسوف نكون فيه قرناء ، ونعرض فيه جميعاً ..

جوزيف اديسون

١٦٧٢ — ١٧١٩

صورة فى معرض

اننا نسير فى هذه الحياة كالعميان . ولو كانت عيوننا مفتوحة وآذاننا مرهفة ؛ وعقولنا قد تدبرت كل ما يتسنى لنا أن نتدبره .

ذهبت إلى زيارة معرض التيت معرض انجلترا الفاخر ، ذهبت وكنت أشعر بحسرة اليأس ، وبلذعة الأمل الذى لا أمل فى تحقيقه !

كنت أبحث عن صورة ، أعرف أنها فى باريس ، فى اللوفر . كنت أبحث عن صورة ، أريد أن أقف أمامها شاخصاً مفكراً ، لأنها ارتبطت بذكرى قوية حارة فى نفسى .

كنت أبحث عن صورة لأقتنى نسخة منها ، أرجع بها إلى مصر !

. . .

وهكذا تقودنا أقدامنا إلى حيث نريد ، دون أن نعرف ، ودون أن نفكر .

وهكذا يتبدل اليأس فى لحظة رجاء ، والضعف قوة ، إذا ما وجدنا ما نبحث عنه ، إذا ما وجدنا ما قطعنا كل أمل فى وجوده .

وهكذا على غير انتظار وجدت الصورة التى كنت أبحث عنها ، وهكذا فجأة وجدت الصورة التى أريد أن أقف أمامها شاخصاً ، الصورة التى أريد أن أرجع بنسخة منها إلى مصر .

ما كنت أعرف أن صورة «الأمل» الخالدة ، من رسم المصور الانجليزى وات .

ولكنه الأمل يقودنا إلى «الأمل» . وحياة انقطع منها الأمل، انقطعت منها كل صلة بالغد والمستقبل ، انقطع بانقطاعها الفكر ، وكل مظهر من مظاهر حياتنا العقلية .

. . .

أخذت أقطع قاعات المعرض الرحبة الجميلة المزينة بعشرات وبمئات الصور الزيتية والمائية التى كتب لأصحابها أن تخلد أسماؤهم ؛ وكنت أفكر فى شيء واحد ، فى صورة واحدة قد رأيتها ، ورأيتها مراراً ، ولكننى أريد أن أقف على حقيقتها ، على الأصل الذى أخذت منه تلك المئات من النسخ التى انتشرت فى كل ركن من أركان الأرض .

وبين حين وآخر كنت أقف — على مايساورنى من قلق — لكى أمعن النظر إلى صورة تستلفت انتباه السائر لجمالها أو للفكرة التى تنطوى تحتها . ومن الذى يمر بهذه الصورة التى احتلت جداراً بأكمله ولا يجلس أمامها يدرسها بامعان ؟

صورة « البعث » ؛ فقد قدر لسكان القبور أن ينشروا ؛ وها نحن فى مقبرة غطى قبورها الربيع بخضرته، وفى نهاية الصورة كنيسة بيضاء كأنها إحدى بيوت الفلاحين فى مصر . وها هو كل راقد قد رفع غطاء قبره وبدأ يخرج . رجال ونساء ، شيوخ وأطفال ، بيض وسود ، قد تجاورت قبورهم ، بعد أن فرقتهم الحياة .

ولكن إلى أين هؤلاء ذاهبون ؟ لا يزالون على هذه الأرض بحشائشها وأشجارها، بأحجارها ومعابدها ؟ أهل يبعثون لكى يعيشون من جديد كما كانوا ، يجاهدون الحياة ويجالدون العيش ؟ لا، لقد عرض الفنان نصف الفكرة وعجز عن تصوير النصف الآخر .

. . .

وفى قاعة النحت ، وقفت أمام معروضات ابشتين فقد سمعت عنها وقرأت عنه وعن فنه ، ولم أكن قد رأيت نموذجا لهذا الفن الغريب . واختلاف الأذواق وتباين الحكم عن الشيء الواحد يدل على أن هذا التقدير نسبى فقط ، وأن هذا الشيء الذى يدعونه

الجمال ليس إلا تصوراً خاصا بكل فرد ، لأن مقياس الجمال قد يختلف حتى لا يكاد يدعى مقياساً بحال من الأحوال .

ومعروضات أبشتين هذه تثبت هذا الكلام ؛ فكثيرون لا يرون فى هذه المعروضات فنّا ولا ذوقا ، وكثيرون أيضاً يرون هذه المعروضات مثالا للتفنن والابتكار . هذه المعروضات خالية من دقة التكميل ، كأن النحات قد أخذ سكينه وراح يلطخ بها ما يصنعه تلطيخاً دون تريث . ولكن هذا التلطيخ وهذا النقص فى التكميل هو الذى يتميز به فن أبشتين .

...

فاذا ما عبرت هذه القاعة ، فانك تقف أمام القاعة «السابعة» القاعة التى أبحث عنها ؛ وقد كتب على بابها « معروضات وات ١٨١٧ – ١٩٠٤ »

جميع معروضات هذا الفنان من نوع واحد؛ فهو فى تصوره أشبه بأدب ملتن أو كيت. فهؤلاء الفنانون يصورون المعنويات التى نعجز عن تحديدها أو تعريفها أو عن تخيلها ، يصورونها بقدر ما يسمح به الخيال الانسانى. فتصور ملتن الموت هيكلا عظمياً يحمل



الأمل للفنان وات

حربة ، وتصور كيت الخريفَ فتاة نائمة على جدول راكد حول حقل أفيون .

وهكذا صور وات الحزن، واليأس ، والفضيلة ، والموت ، والأمل .

...

وقفت أمام هذه الصورة التى أبحث عنها .

صورة الفتاة التى قد عصبت عينيها، والتى قد جلست على كرة دائرة تعصف حولها الريح ، وهى تعزف على طنبور لم يبق من أوتاره إلا خيط واحد .

إنه هو هذا الخيط الذى يقودنا بقلوبنا الكسيرة المتحطمة لكى نجاهد فى الحياة ، ونرسل آخر نغمة فى الفضاء . . .

...

هذه هى صورة الأمل التى وقفنا تحتها سويا منذ شهرين ، فى القاهرة . وقفنا تحتها نفكر فى الغد وما سوف يأتى به الغد ، ونبنى للمستقبل ونأمل ونرجو . . .

هذه هى صورة الأمل التى قطعت العهد بأن أرجع بنسخة منها إلى مصر .

وهكذا كان .

لندن فى ١٧ يوليو سنة ١٩٣٣

تحت الارض

عند ما أخذنا ترام لندن الأرضى لأول مرة لم يكن هنالك بد من التوهان ساعات طويلة . ولو كان الراكب التائه يغرم فى الترام الأرضى كما يغرم فى القطارات ، لأصبحت هذه الغرامات مورداً جديداً للشركة ؛ ولكنك إذا اشتريت تذكرة ببنس واحد قلما يسألك العامل إلى أين تذهب ، وتأخذ أى قطار من هذه القطارات الأرضية وتذرع لندن من شمالها إلى جنوبها وقلما يحاسبك أحد .

« المترو » فى باريس ، و« الاونتر جرنت » فى برلين، يجب ألا تقارنه بترام لندن الأرضى ، ترى المترو فى باريس بعد أن اعتدتّ على مترو لندن الأرضى كأنه قطار زراعى بعد البولمان .

ماذا كانت تفعل هذه الملايين التى تعيش فى لندن وتعمل فى لندن إذا لم يكن هذا الترام الأرضى ؟ شوارع لندن الكبيرة محرومة من الترام ، لأن العربات والسيارات فيها كافية لازدحامها ، وعربات الامنيبوس على كثرتها لا تسع آلاف المنتظرين فى شارع اكسفورد أو الريجنت .

...

الساعة السادسة من مساء أى يوم من أيام الأسبوع ، تقف فى مدخل محطة الترام الأرضى فى «اكسفورد سيركس» وتراقب كيف ينقل هذا الترام الآلاف من أهل لندن فى الدقيقة الواحدة . انتظر دقائق معدودة أمام احدى هذه المحطات فى هذه الساعة ،

م خذ طريقك الى القطار وانظر كيف ان هـذه المئات قد تفرقت بمجرد اختفائها وراء الأبواب ·

هذه الحياة المقيدة بالدقائق لا يمكن أن تنتظم إلا اذا كان كل شيء فيها بميزان ، والحياة فى لندن مقيدة بالدقائق ، وكل شيء فيها بميزان .

· · ·

والترام الأرضى فى لندن ومحطاته بديع فى الشتاء · تمر على احدى هذه المحطات فتهب عليك لفحة دافئة سرعان ما تفنى فى هواءالشارع البارد المتجمد . فلاتجد بدأ من الانحدار الى جوف الأرض لـكى تقرأ صحيفتك فى دفء وراحة .

وفى ابان الحرب أسدت هذه السراديب الأرضية يداً للندن ولأهل لندن وهم فى محنتهم لا تزال تذكر لها بالخير · فـكانت هذه السراديب الأرضية ، ملجأ أهل لندن عند غارات مناطيد زبلن عليها ، فيهرع أهل كل حى ، الى أقرب محطة من محطات الترام



وهناك فى جوف الأرض تجد عالما جديداً

الأرضى ، ولا سبيل الى رحمة هؤلاء اللاجئين فى جوف الأرض ، حتى يرحمهم من يرسل النقمة من الفضاء ومن وراء السحاب ، أو من يرسل الرحمة من السماء ..

ولمحطات الترام الأرضى شخصية ممتازة فى لندن ، لا سيا فى الليل . فأنت على بعد مئات الأمتار ، تشاهد اللوحة الزجاجية الزرقاء التى كتب عليها « أندر جراوند » بخط رأسى أو أفقى وبحروف تعتاد رؤيتها فيما بعد .

وتسير الى حيث اللوحة الزرقاء ، وتلج قاعة عارية تجد بها احدى محلات «سمث» لبيع الصحف والمجلات، ثم بعض نوافذ بيع التذاكر، ثم عدداً من الالآت الأتوماتيكية لبيع كل شيء ؛ الشوكلاته ، والكبريت ، والفول السودانى ، و آلات لبيع التذاكر ذات البنس والبنسين والثلاثة والأربعة والخمسة والستة ، وأجزائها .

تأخذ تذكرة من احدى هذه الالآت، وتنزل الى حيث المحطة والقطارات ، وتأخذ المصعد ـ اذا كان الصعود الى أسفل جائزا ـ فيهوى بك الى جوف الأرض ، وقد تأخذ الدرجات المتحركة . وماعليك الا أن تقف فتتحرك بك ، ولا تمضى دقيقة وبضع دقيقة الا وأنت قد تركت ظهر لندن الى بطنها ! وهناك فى بطن لندن ، وتحت عمارات لندن الحديدية والحجرية تجد عالما جديداً، وتجد القطار الأرضى الأحمر الزاهى يمر أمام عينيك كالسهم وهو يخرج من الأنبوبة الحديدية التى يسير فيها .

وفى بعض هذه المحطات أكثر من طابق واحد ، فبعد هذا الانحدار الى جوف الأرض ، قد تأخذ المصعد أو المهبط من جديد وينزل بك شوطا آخر الى صميم الأرض حيث تجد محطة أخرى .

ويسير بك القطار فى هذه السراديب المظلمة الضيقة ولا تدرى أين يسير ، يحمل المئات من أهل لندن ، تحت جدران وستمنستر والبرلمان وتحت قاع التيمز ، قد ضاقت بهم ظهر الارض فلجأوا الى باطنها .

...

وقد يقف هذا القطار لسبب من الأسباب ، وقد تنطفى الـكهرباء ونحن فى هذه الانابيب ، فتصمت كل حركة ، ولا تسمع همساً من مئات الانجليز المتـكدسين فيه ، فتشعر كأنك فى قلب الهرم الأكبر حيث لا سبيل الى الضوء والهواء ، أو إلى الحياة والاحياء الا بأعجوبة . وهـذه الأعجوبة سرعان ما تتحقق بعـد دقيقة أو بضع دقيقة.



فى جوف الأرض

هامدن كورت

من زار فرساى أو بوتسدام أو شن برن ، فان رحلته فى أوربا لا تنقص كثيراً إذا لم تتح له الفرصة زيارة هامدن كورت ، أحد القصور الملكية الانجليزية القديمة ، أحد القصور التى صارت اليوم أثراً من الآثار التى تفتح أبوابها للزيارة .

يتحدث كل انجليزى عن هامدن كورت كأثر تاريخى فاخر ، كأثر نادر ، ويتحدث عن حدائق هامدن كورت وبركه وتماثيله ، كتحفة ممتعة . والشعب الانجليزى الذى لا يعرف عنه أنه فنان بالطبيعة ، أو مبتكر بالسليقة ، يزهو ويفتخر بجمال هامدن كورت وبالفن الذى يتمثل فى أروقة هامدن كورت . ولكن الحقيقة أن ما تراه فى هامدن كورت تراه فى كثير من القصور الأوربية القديمة وبصورة أفخم وأفخر . فما هو معروف عن هذا الشعب أنه شعب محافظ ، ليست له القدرة على الابتكار والتفنن ، ولكنه يقلد ويخلد ما يقلده بمهارة وقدرة .

. . .

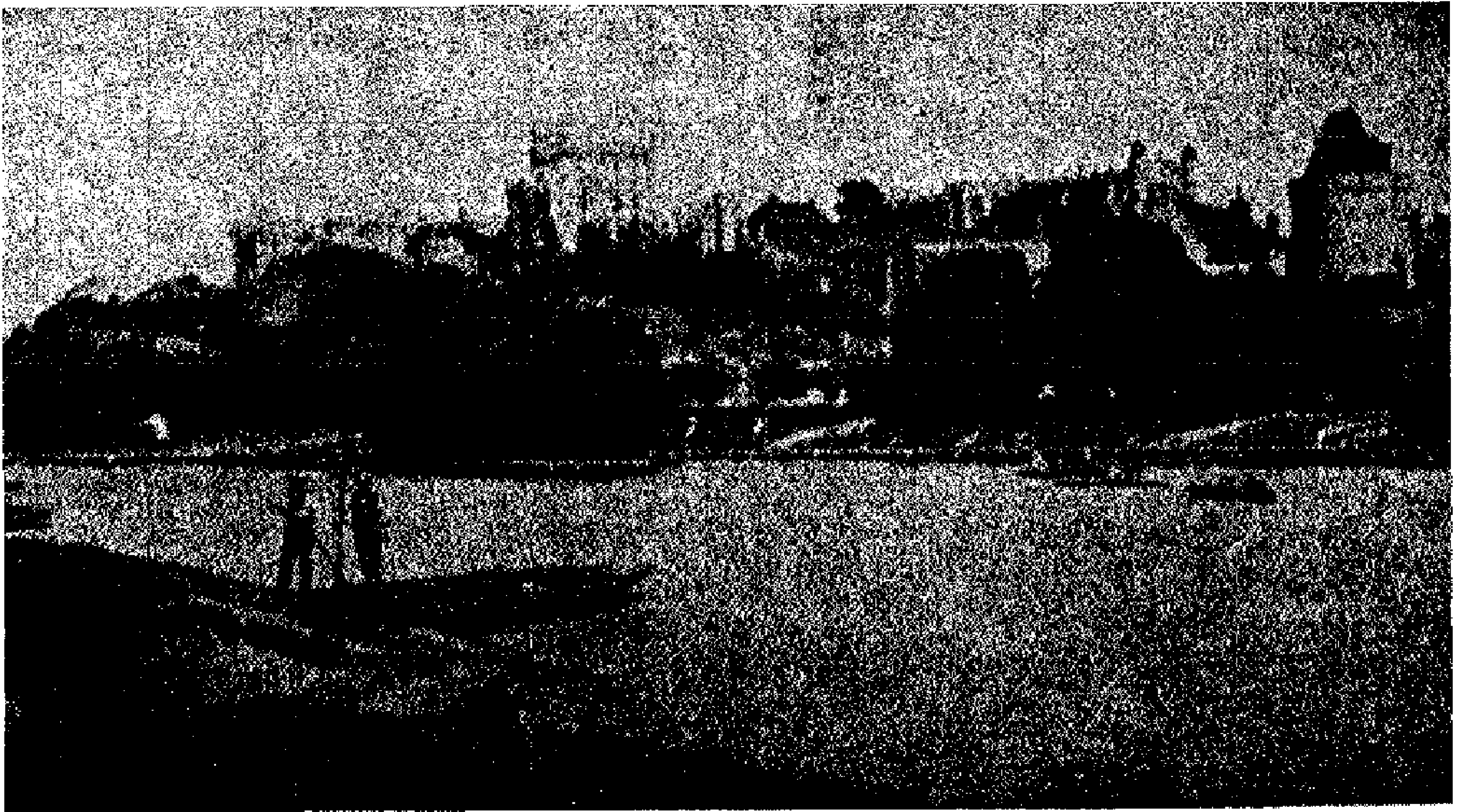
فى إحدى ضواحى لندن يقع قصر هامدن كورت . فى إحدى ضواحى لندن الجميلة ، فى ضاحية رتشموند .

ولا تكاد تشعر بجمال التيمز أو ببهجته إلا فى رتشموند ، فالتيمز الذى تشاهده على كبري وستمنستر والتيمز الذى تشاهده عند برج لندن ، ليس فيه جمال أو ابداع ، وليس

فى شاطئيه فتنة ولا سحر . مياه بيضاء باهتة ، وشواطىء حجرية قاتمة ، وبواخر لا تحمل إلا الأخشاب والأحجار والفحم .

وفى رتشموند فقط تشعر بأن للتيمز جمالا ، فلا ترى تلك المخازن القبيحة التى تحف به بل ترى عوضاً عنها « فلات » وحدائق ، ولا ترى تلك البواخر المحملة بالبضائع ذات الدخان الأسود المتصاعد ، بل ترى بدلا عنها قوارب للتجذيف ، وعوامات للسباحة .

ولكى ترى هذه الصورة الفاتنة للتيمز ، لابد أن ترحل عن لندن ساعتين أو ثلاثة بالباخرة النهرية من كبرى وستمنستر ، أو ساعة وبضع ساعة بالأمنوبيس والترام ؛ تسير فى شوارع لا عداد لها ، وأحياء مختلفة مزدحمة ، كل منها يصلح لأن يكون قلب مدينة عامرة .



هامدن كورت من التيمز

وعند ماتعبر التيمز وتسير على شاطئه الآخر ، تستحيل هذه الطرقات المزدحمة ، إلى أفناء وحدائق ومتنزهات ؛ تذكرنى بالرحلة من فينا إلى ضاحيتها الجميلة شن برن حيث القصر الامبراطورى الفاخر . وحدائق رتشموند ومتنزهاتها فاتنة بهدوئها وبظلها الوارف الذى ترسله أشجار القسطل ؛ وفى هذه البرك الاصطناعية تجد البجع برقبته الطويلة ، والأوز والبط يسبح فى مياهها الراكدة التى لم يتغير طعمها ، وتحت ظلال هذه الأشجار ترى الوعل والغزال الأليف يسرح ويمرح فيزيد الطريق إلى القصر فتنة .

...

وحدائق القصر أكثر فتنة من القصر نفسه . لست أعرف أسماء الأشجار ، ولا أنواع الأزهار فاذكرها ، وسواء أكانت تلك من الصنوبر أو البلوط ، وسواء أكانت هذه من القرنفل أو الورد ، فهى جميلة جذابة ، لا سيما فى ضحى أيام الصيف بشمسها الدافئة ؛ وفى هذه الطرقات المرصوفة كان ساكنو القصر يسيرون ، وتحت أشجار القسطل والبلوط هذه كانوا يجلسون كما نجلس الآن ، وكانوا ولا شك يرقبون البجع والبط يسبح فى هذه البرك كما نرقبه نحن بعدهم بعشرات السنين .

ولكن الطبيعة كانت اذ ذاك صامتة وهم ينظرون ؛ وكانت الألسن خرساء وهم يستمعون ؛ لقد كان هؤلاء الملوك ينظرون فلا يجدون إلا الحراس حولهم ؛ ويتلفتون فلا يرون الا الخدم جامدين فى مكانهم كأنهم الأصنام والتماثيل لا تتحرك ولا تبتسم .

فى هذه الحدائق الواسعة الرحبة ، كان هؤلاء الملوك يسيرون كالغرباء ، يسيرون فى وحدة وصمت ، يسيرون بقامة مرفوعة ، وفى ثيابهم المثقلة بالحلى ؛ لا يصفرون ولا يقهقهون ، ولا يجلسون على الأرض ، ولا يركضون كما نجلس ونركض الآن ؛ لأن للملك تقاليد تجعل طعم الحياة فى أفواه هؤلاء الملوك فاتراً مصطنعا .

نحن نتمتع الآن بحدائق هامدن كورت ونلهو ساعة ونذهب ، وهل أخذ أصحاب هذا القصر وساكنوه أكثر مما نأخذه الآن ؟

. . .

القصر مربع الوضع ، تطل نوافذه الداخلة على حديقة مربعة فى وسطها نافورة ؛ تشبه أفنية قصور دمشق أوالقاهرة القديمة . وحول هذه الحديقة الداخلة فناء مستدير مرصوف بالحجر ذى أعمدة كثيرة ، كأنها البواكى التى تظلل الأسواق الشرقية المندثرة .

وتعتلى السلم الأيسر ، الى قاعة رحبة مزينة بعشرات الصور الزيتية الكبيرة والصغيرة التى تزدحم بها جدران القصر ، ومن هذه تسير فى جناح كتب عليه اسم الكردنال ولزلى مستشار هنرى الثامن ، حجرات ضيقة مرصوفة بالخشب الجامد ، وقد غطى سقفها وجدرانها كذلك بالخشب المحفور . عارية قليلة النوافذ ، تعجب كيف كان يعيش فيها الكردنال وكيف كان ينام وكيف كان يدمن الفكر فى سبيل عاهله .

وحيث يكون هنرى الثامن ، تتوارد الذكريات والخواطر على الفكر ؛ لأن تاريخ هنرى الثامن تاريخ لست أدرى هل تذكره المرأة بخير أم تستهجنه ؛ ولكن هنرى الثامن قد أعطى نفسه للمرأة ، لقد جعل المرأة تطغى على عقله وعلى فكره وعلى دينه . لقد أحبها إلى حد العبادة ، وقد كرهها فأرسلها إلى النطع .

وفى حجرات هذا القصر كان هنرى يمثل قصص غرامه ، وكان يمثل مآسيه وفجائعه ؛ وفى رواق القصر المظلل بالأعمدة الحجرية كان هنرى يسير بجانبه ولزلى بقلنسوته المضلعة وبملابسه الحمراء ، كانا يسيران ويفكران ، وكانا يجمعان الرأى ، وكانا يتنازعان فى شئون الملك ، وفى شئون الدين ، وفى شئون الحب .

. . .

وتسير فى أنحاء القصر ، فاذا حجرة تتصل بقاعة ، وقاعة تتصل بحجرة : حجرة لجلوس الملك وأخرى لنومه وأخرى لدراسته ؛ وهذه لولى العهد ؛ وهذه القاعة للملكة وهذه لنومها وتلك لزينتها .

تسير فى هذه الحجرات المتصلة بعضها ببعض حتى تسأم السير وتمل مناظرها المتكررة .

أسقف عاليةمزخرفة ، أثر من آثار القرون الوسطى بألوانها الزاهيةاللامعة . ونوافذ ضخمة عالية لا يسهل فتحها أو اغلاقها . وجميعها مزينة بالصور الزيتية ، للملوك الذين سكنوا هذا القصر وللملكاته وللأمراء وللأميرات ، صور تمثل مراحل معينة فى التاريخ الانجليزى . وصور دينية من النوع الذى تراه فى كل كنيسة .

ولست أدرى على أى أساس كانت توزع هذه الصور فى حجرات القصر ، وقد لحظ رفيق لنا فى زيارة هذا القصر ، أن أكثر الصور التى تزين بها حجرات الملوك والأمراء من صور النساء الجميلات ؛ وحجرات الملكات والأميرات بصور من غير جنسهن، ولكن لعلها ملاحظة بريئة ، أو لعلها مصادفة غير مقصودة . . !

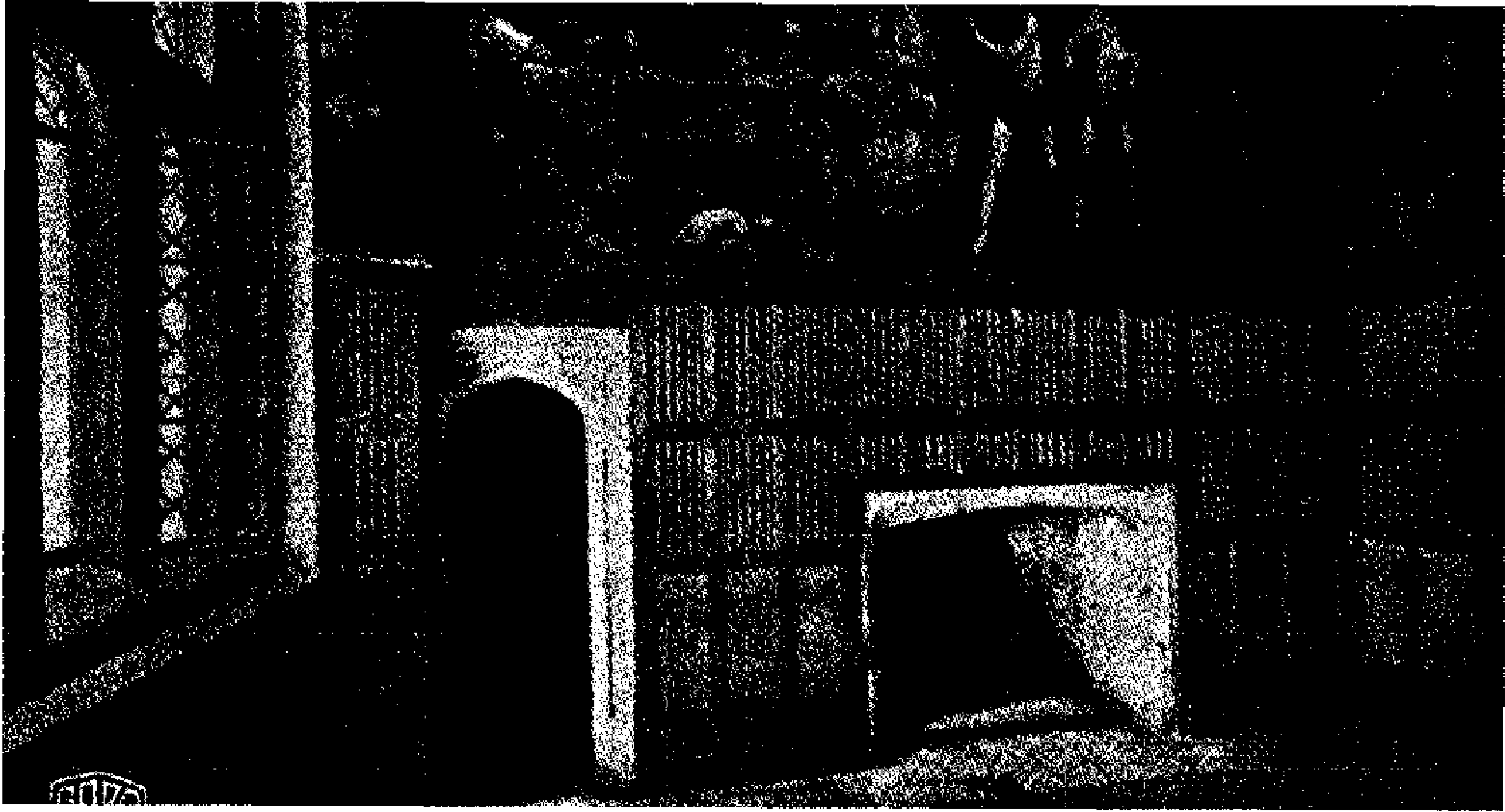
ما أعجب الأسرة التى كان يستعملها هؤلاء الملوك ، وما أغرب اختيار ألوانها ؛ أسرة ضخمة تتدلى ستائرها من هذا السقف المرتفع ؛ أسرة ضخمة كأنها مسرح صغير ؛ يغلب عليها اللون الأحمر ؛ الذى يمثل قوة الملك ، ولكنه يدل على ذوق فطرى .

ومن بين هذه الحجرات كنيسة صغيرة للعبادة، هى بالطبع جزء متمم لزينة القصر ، لأنها تحفة طريفة ، وما أشبهها بالمسرح الأنيق الذي تراه فى قصر فرساى ؛ فأولئك الملوك الفرنسيون يحيون الفن باقامة مسرح فى قصرهم الملكى ، بينما يحاول هؤلاء الانجليز أن يظهروا بمظهر التقوى والتعبد ، ومن يدرى لعل هذا الهيكل قد بناه هنرى الثامن حامى الدين فى بعض الأحيان ؟

. . .

وهكذا تنتهى دورتك حول هذه القاعات والحجرات والردهات ، فتصل إلى حيث ابتدأت وتنزل من السلم الأيمن إلى الدور الأرضى ، ثم تنحدر إلى ركن من أركان

البناء ، وتدخل فى باب ضيق واطىء ، ينحدر بك إلى قبوات القصر ، إلى القبوات التى كانت تعتق فيها الخمور .



حجرة الكردنال ولزلى الخاصة

ما أبعد الفرق بين هذه الحجرات ، وبين الحجرات التى تعلوها والتى لا يفصلنا عنها إلا السقف . حجرات يغلب فيها الخشب ، جدرانها مغطاة بطبقة جيرية كأنها بيوت القرية المصرية ، وأرض هذه الحجرات مرصوفة بالطوب الأحمر والأحجار الصغيرة .

وهذه تقودك إلى بهو مظلم ، ومنها تدخل جناحا آخر ، جناحاً قديماً مهدماً ، مبنياً من الخشب والطوب والحجر ، أبوابه ضعيفة مترجرجة . هذه هى مطابخ القصر ، حيث كانت تجهز الولائم ، إلى المائدة الملكية .

وسائل فطرية للطهى ، أبسط ما يمكن للعقل الانسانى أن يبتكر من أدوات وأجهزة . أفران من الحجر كان يستعمل فيها الفحم ، وأخرى عليها أسياخ طويلة ، كهذه التى نراها عند الحاتى ، وفى البيوت المصرية القديمة .

قدور من النحاس وأباريق كبيرة لغلي الماء ، وعلى الحائط المتهدم ترى بعض الملاعق والمغارف ، ثم طيور محنطة ، لعلها ردمت فى أتربة هذه المطابخ أو رمادها .

إن الانسان قاصر عن الابتكار والخلق ، فهو يغلى الماء ويقلى اللحم فى قصور ملوكه ، كما يغلى هذا الماء ويقلي ذلك اللحم فى أكواخ الشعوب الفطرية ، فى قلب غابات الكنغو أو الأمزون . وهذه الموزة التى يلتهمها الزنجى التهاماً أو يستلذها الشنبانزى ، لا تختلف عن زميلتها التى تقطع بالملاقط والمقاطع على أفخر الموائد . .

إن الطبيعة مهما أطلقت لنا يدنا لنغير ونبدل من ظهر الأرض ، الا أنها ربطت أذرعنا بأعناقنا فجعلتنا قاصرين .

ومن هذه القبوات تخرج ثانية إلى ضوء النهار ، والى الحدائق البديعة الفتانة فخر هذا القصر .

. . .

سرنا الى الطرف الآخر من القصر حيث بنيت طرقات ضيقة متعرجة من الأشجار المشذبة الخضراء ، فصورت ما ندعوه « بيت جحا » . ومثل هذه البيوت « مصغرة بالطبع » يعدها علماء النفس للقطط والكلاب والأرانب ليدرسوا عنها مبلغ ذكاء هذه الحيوانات وقدرتها على التعلم وعلى الخروج من هذه المآزق .

وهكذا كان هذا البيت اختباراً لذكائنا ولقدرتنا على التعلم ومقياساً لصبرنا . اننا نسير فى هذه الحياة كما نسير فى طرقات هذا البيت الضيقة الملتوية ، قد نفكر وقد نجمع العزم ، ولكننا كثيراً ما نذهب الى حيث لا نريد ، ونعود الى حيث بدأنا ، ونضل بلا سبب سوى الحظ العاثر ، ونهتدى بلا دليل سوى الصدفة العمياء .

دخل هذا البيت بضع ملايين من الرجال والنساء « كما يقول دليل القصر » فى السنين الأخيرة ، ولم يجد طريقه سهلا فيه الا القليل النادر .

. . .

ولماذا نذهب الى حديقة هامدن كورت لنجرب حظنا ، أليست الحياة طريقا أكثر التواء وأعقد نظاما من هذه الأشجار المصفوفة ، ألسنا نسير فيها عميانا وعيوننا مفتوحة، وصما وآذاننا مرهفة ؟ نسير فيها الى حيث لا نريد . . . ؟



حيث يتعبد هنرى الثامن..؟

موكب عمدة لندن

فى كل عام يحتفل أهل لندن بتنصيب عمدتها الجديد ، أو مايدعونه « اللورد ماير » وهذا الاحتفال يذكر الرائى بصورة من صور لندن منذ قرون مضت .

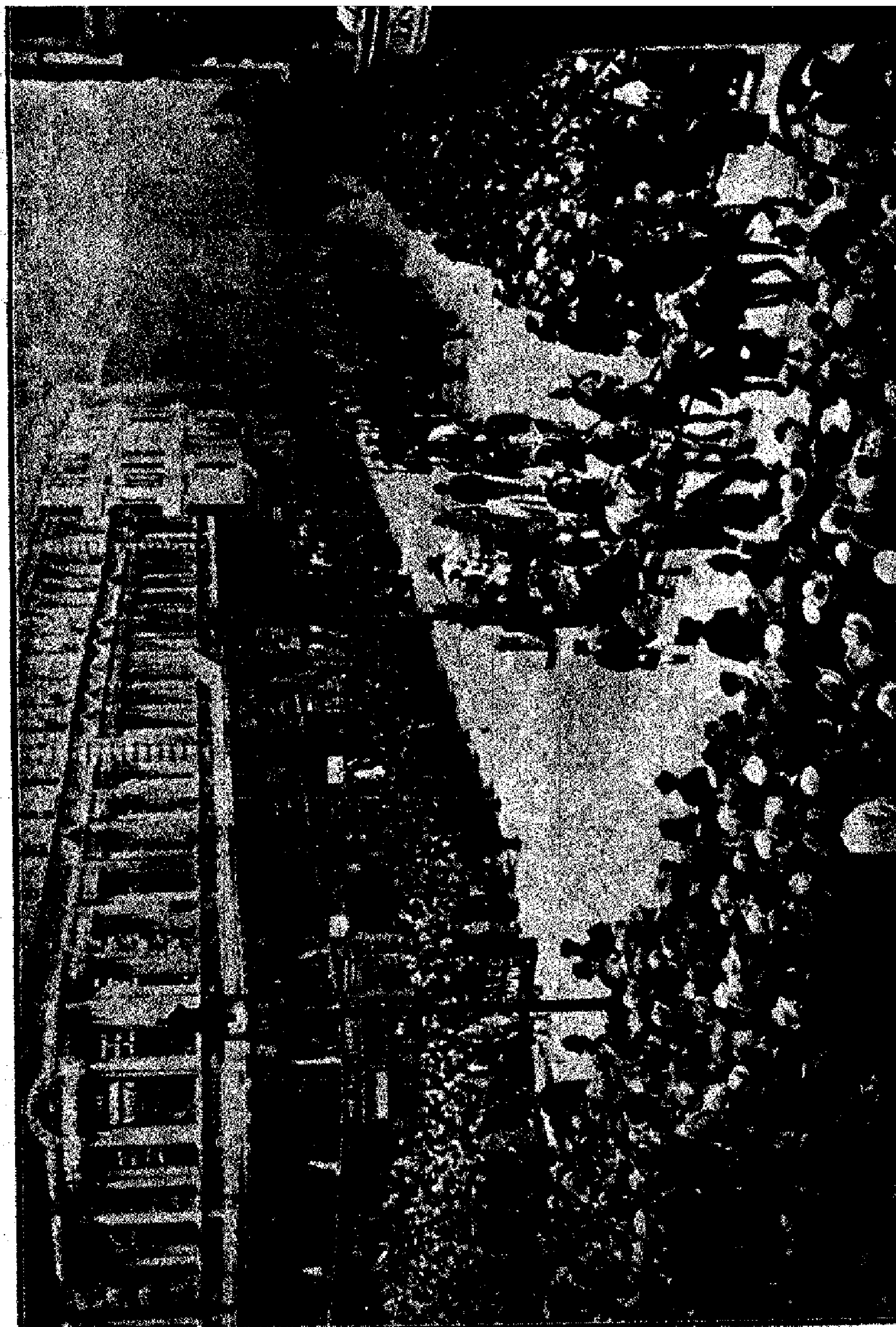
والى عهد قريب جدا كان على عمدة لندن الجديد ـ أن ينتقل على قارب من احدى قناطر لندن الى وستمنستر ، وكان لابد من دلك سواء أكان الجو مناسبا أم غير مناسب .

وفى مثل هده الاحتفالات ، كان منظر التيمز لايضارعه مشهد آخر فى أوربا ، الا تلك الاحتفالات التى كان يقيمها دوقات البندقية عند زواجهم .

وكانت هذه القوارب الفاخرة التى ينتقل عليها عمدة لندن وحاشبته تطلى بماء الذهب ، وتغطى بالزجاج وتزين بعشرات الاعلام . وجريا على تقاليد موروثة ، كان يحمل شيء من ماء النهر الى ظهر القارب قبل ابحاره .

وكان قارب اللورد ماير يسير بمجاذيف خـدمه الخاصة أو يقوده قارب بخارى . وحول هذا عشرات من القوارب تعزف على ظهرها الموسيقى . بينا قد احتشدت الآلاف على ضفتى النهر وعلى القناطر ، مما يجعل هذا الاحتفال أبهج أيام السنة فى لندن .

ولو أن هذا الاحتفال على مياه التيمز قد محى أثره الا أنه لايزال محافظا عليه فى الستى (حى البنوك) فى التاسع من شهر نوفمبر فى كل عام وفى مقدمة الاحتفال



موكب عمدة لندن

يسير خادمان من خدم اللورد ماير يلبسان ملابس بيضاء وقبعات من الحرير ، ويقودان الركب الى كنيسة سنت جيمس . في الحي الشرقي في لندن ، و يكنسان الطريق أمام العربة. ويحمل كل من الخادمين في يده باقة من الزهور «لكيلا تصل الى أنف سيده رائحة خبيثة » .

وكل محاولة لالغاء موكب عمدة لندن ، لاشك أنها تقابل بمعارضة عنيفة من الرأى العام من أهل لندن ؛

لندن المحافظة ، لندن بلد التقاليد .

الصحافة والصحف

فى لندن ثلاث صحف يومية تطبع أكثر من مليونى نسخة كل يوم ، وعدد آخر يطبع أكثر من نصف هذا العدد ، وعشرات العشرات تطبع أضعاف ماتطبعه أوسع الجرائد المصرية انتشاراً .

حقاً إن الصحافة صاحبة جلالة فى هذه البلاد ؛ ان الصحفى الذى يكتب أربعة أسطر يقرأ له هذه الأسطر الأربعة نحو نصف سكان القطر المصرى اذا فرضنا أن النسخة الواحدة من الجريدة تتداولها ثلاث أيد فقط .

ما أقوى الأثر الذى تتركه الصحافة الانجليزية عند هذا الشعب ، وما أشق مهمة الصحفى الانجليزى ، وما أشد فخره ، وأمنع مكانته .

هذا العدد الهائل الذى يطبع من الصحف الانجليزية ، لا يكون مالم تجد هذه الصحف قراء يساهمون فى انتشارها ؛ فبقدر ما تجد الصحيفة العدد الكبير من القراء ، بقدر ما تصرف بسخاء فى سبيلهم ، وبقدر ما تقدم لهم ما يرغبون فى قراءته مع اختلاف نزعاتهم ومشاربهم .

. . .

هذه الصحف التى تطبع الملايين كل يوم تصدر فى لندن ، وفى غير لندن تصدر أيضاً عشرات الصحف المحلية ، التى لها أهميتها ومكانتها .

فى كل مقاطعة صحفها ، وفى كل مدينة وقرية جريدتها الخاصة ، ولكل صحيفة

من هذه الصحف مكاتب فى لندن ، مكاتب فى فليت استريت مركز الصحافة والصحف الانجليزية .

وهذه الصحف المحليــة لا تنقل ولا تقتبس من صحف لندن بل انهـا تستقل فى تحريرها وتعتمدعلى مراسليها وعلى مندوبيها ، وتبحث شؤونها المحلية، وتدرس الشؤون الخارجية مستقلة، كما تدرسها التايمز أو الدايلى تلغراف .

كنت مرة فى برمنجهام ابان سقوط احدى الوزرات المصرية ، فظننت أن ذكر الخــبر فى الصحف المحليــة قد لا يتعــدى السطور القليــلة التى ترسلها شركات التلغرافات ، ولـكننى وجدت هذا الخبر مكتوبا بالحروف الـكبيرة فى الصحيفة الأولى وبجانبه أكثر من صورة واحدة لبعض الوزراء المصريين ، ثم نحو عمودين دراسة وتحليلا للموقف السياسى فى مصر ولعلاقة الأحزاب المصرية بعضها ببعض .

هذه الصحف المحلية التى كثيراً ما تنافس صحف لندن من حيث أهميتها ومن حيث انتشارها « كما هى الحال فى بعض صحف أدنبره ومنشستر » هذه الصحف تعتمد على المقاطعات التى تظهر فيها ، من حيث أهميتها الاقتصادية ومبلغ ازدحام السكان فيهــا ، ولا أقول على درجة انتشار التعليم لأن نسبة التعليم فى انجلترا تـكاد تبلغ المائة فى المائة .

. . .

الصحف الصباحية ، عادة أكثر من غيرها انتشاراً وأشدها أهمية . فهذه الصحف التى تطبع الملايين هى من صحف الصباح ؛ وهذه الصحف الصباحية ، تصدر عادة أعداداً خاصة يوم الأحد ، والـكثير منها يصدر بالاشتراك صحفا أخرى مسائية .

ومنذ عهد ليس ببعيد كانت هنالك ثلاث صحف صباحية ثمن النسخة منها بنسان الا أنه منذ بضع سنين رجعت المورننج بوست إلى سعر البنس ، وفى الصيف الماضى رجعت الدايلى تلغراف إلى هذا السعر أيضاً ، فلم تبق الا التايمز .

والتايمز صحيفة لها مستوى خاص ومكانة خاصة ، فهى لذلك لا تقرؤها الا طبقة معينة ، الطبقة المثقفة تثقيفاً عالياً ، الطبقة التى فوق المتوسط . والتايمز لا تصطبغ كغيرها بصبغة سياسية معينة ، وليس لها نزعة حزبية غالبة ، تجعلها فى بعض الأحيان تصور الحقائق تصويراً مخالفاً للحقيقة كما تفعل غيرها . ولوأن الأخبار العامة والسياسية تحتل فى كل هذه الصحف مكانة هامة ، الا أن الابحاث الأدبية والعلمية والفنية لها فى التايمز مكانة واضحة .

وليست التايمز هى التى تنفرد بمادتها الغزيرة الدسمة التى لاتهضمها العقول العادية ، بل هناك الدايلى تلغراف والمورننج بوست « الى حد ما » فى لندن ، ثم المنشستر جارديان فى منشستر ، والسكوتسمان فى أدنبره وهى التى تعتبر تايمز اسكتلندا .

. . .

وفى كل صباح لا تجد رجلا أو فتاة فى طريقها إلى العمل بدون صحيفتها ؛ وفى الترام الأرضى ، ومع ازدحامه بالمئات لا تكاد تسمع صوتاً ، لأن كل راكب وكل راكبة منهمك فى قراءة صحيفته .

فاذا انتهى الرجل من قراءة صحيفته تركها مكانه ، فى الترام أو المطعم ؛ لأن مهمتها قد انتهت وليست هنالك من فائدة أن يحملها معه فى كل مكان .

ترى هذه الصحف المنثورة فى الترام أو فى مشارب الشاى فتتذكر قراء الصحف فى مصر ، ثم تتذكر جيش القراء الاحتياطيين. يشترى البعض احدى صحف الصباح فى مصر فيقرأها فى الترام ، ويذهب بها الى مكتبه فينتظرها جيش القراء الاحتياطيين يتبادلونها من مكتب الى مكتب ومن حجرة الى حجرة . فاذا ما انتهى اليوم بحث صاحب الجريدة عن جريدته ، وتأبطها إلى بيته ، فيقلبها بعد الغذاء عله يكتشف فيها شيئاً جديداً ، وقد يعيد ما قرأه فى الصباح ، وقد يقرأ الاعلانات القضائية ، وقد يقرأ أخبار البورصة ؛ لا لأهمية خاصة عنده ، ولكن لكى يقطع الوقت بالقراءة ،

ولو كانت تافهة لا قيمة لها .

الصحف فى مصر تؤدى مهمة مزدوجة ، هى أداة هامة للثقافة ، الكثيرون من المتعلمين وأشباه المثقفين لا يبحثون عن الأدب والعلم الا فى الصحف ، اذ أن القليل النادر منهم من يعنى بقراءة كتاب ، أو يفكر فى اقتناء مؤلف جديد . فهم يعتمدون على الصحف للثقافة وللدراسة ، ومع ذلك فلا يرى الواحد منهم غضاضة فى استعارة صحيفة من سواه ، أو فى الانتظار الى المساء لكى يشترى صحيفتين بنصف قرش .

ان هذه الروح لا تتغير ما لم يشعر هؤلاء القراء بواجبهم نحو الصحافة ، لا سيما اذا بدأوا يشعرون بما تبذله هذه الصحف المصرية الضيقة فى دائرة انتشارها فى سبيلهم وما تؤديه لأجلهم .

• • •

والصحف الانجليزية ، ولو أن لكل منها سياسة حزبية خاصة ، الا أن النزعة الحزبية لا تطغى طغياناً جارفاً على مادة الجريدة كما هى الحال فى مصر .

« فالحوادث والأخبار » فى هذه الصحف الانجليزية ، تحتل الجانب الأكبر من أعمدتها ومن صورها . ويلى ذلك أهمية الأخبار الرياضية .

لا تكاد تتصور ما للرياضة ، وما للأخبار الرياضية من أهمية عند الانجليز ، الا اذا عرفت أن العدد الغالب من هؤلاء العمال الذين تراهم فى كل مساء يتأبطون احدى هذه الصحف المسائية ، لا يشترون هذه الصحف الا ليطلعوا على أخبار الرياضة ، وعلى نتائج المسابقات . كثيرون من هؤلاء لا يطلعون الا على هامش الصحيفة الأخيرة حيث تنشر هذه النتائج . وقد يكون ذلك لنزعتهم الرياضية المغروسة فى نفوسهم ، ولكن من العدل أن نقول ان اهتمام بعض هؤلاء بأخبار النتائج الرياضية ، سببه المراهنات التى يعقدونها على هذه النتائج فيما بينهم ، ومع أن هذه المراهنات ممنوعة فى انجلترا ، الا أنها أكثر انتشاراً فيها بين طبقة العمال من أى بلد آخر .

...

والصحف الانجليزية لا تعتمد فقط على كثرة التوزيع ، بل أيضاً على كثرة الاعلانات التى تنشر فيها ؛ فهذه الصحف التى تصدر فى نحو عشرين صحيفة بالحجم الكبير ، تنشر من الاعلانات ما يحتل جانباً كبيرا منها .

فالورق وحده يكلف جزءاً لايستهان به من الثمن التجارى الذى تباع به الجريدة ، ومع ذلك فان الجريدة تدفع آلاف الجنيهات لمراسليها الذين ينتشرون فى كل ركن من أركان الأرض ، ولمحرريها وللكتاب المشهورين الذين يتناولون ثمنا لمقالاتهم بعدد الكلمات . كل هذه التكاليف الهائلة توازيها المبالغ الذى تدخل من ناحية الاعلانات التجارية والشخصية الصغيرة ، ومن العدد الهائل الذى تطبعه . فالدايلى تلغراف نشرت فى نحو ثلاثة أشهر أكثر من ١٥٠ ألف اعلان شخصى . ومع هذا الانتشار الهائل ، فان هذه الصحف لا تتوانى عن الاعلان عن نفسها بشتى الوسائل ، مما ترى فيه صحفنا اليومية شيئاً من الغضاضة . فترى اعلانات عن الجرائد الكبيرة كالدايلي ميل والاكسبريس والنيوز كرونكل والمورننج بوست على جدران الترام وعربات الامنوبيس .

ولا تتوانى هذه الجرائد الكبيرة عن الاعلان عنها بارسال مندوبين الى البيوت يطلبون بالحاح الاشتراك فى احدى هذه الصحف عن طريق أقرب بائع الصحف فى الحى .

وقد رأيت يوما مندوبا لجريدة الدايلي هرالد ، وهى احدى الصحف الثلاثة التى تطبع مليونى نسخة ، رأيته يحاول اقناع احدى الفتيات فى الدار التى كنت اسكنها فى لندن ، و يعدها بانها اذا نجحت فى الاشتراك اليومى فانه يقدم لها هدية زوجا حريريا من الجوارب ..!

هذه الطرق قد تكون غريبة ، وقد تكون غير ضرورية مع هذا الانتشار

الـكبير ، وقد يكون فى هذه الطرق للاعلان والبروباجنده مس لـكرامة صاحبة الجلالة ، ومع ذلك فقد يكون هذا الاعلان لغير المال ، وقد يكون فى سبيل نشر المبدأ الذى تنادى به الصحيفة ·

• • •

وهذه الصحف تعنى بـكل ناحية من نواحى الحياة ، لهذا كان طبيعيا ان تقرأها جميع الطبقات ، الرجل المالى والعامل البسيط والزوجة والطفل والخادمة ، كل هؤلاء يجدون شيئا يلذ لهم فى هذه الصحف ، اذ استثنا الصحف الذى سبق ذكرها ·

فى كل صحيفة رواية متسلسلة ، أو قصة يومية ، كما فى الافننج استاندرد ، تكتب خاصة للجريدة ، وفى كل جريدة صحيفة خاصة للاطفال ، وصحيفة للسيدات وللازياء ، وصحيفة للتسلية ، وصحيفة من يوم ليوم للـكتب الحديثة ، هذا عدا الصور والرياضة والقسم التجارى والمالى والاخبارى .

وكثير من هذه الصحف تنشر مسابقات مجانية، تدفع لها من الجوائز ما يقدر ببضع الآلاف من الجنيهات ، ومنذ حين كانت الدايلى ميرر تنشر مسابقة مجانية قيمة جائزتها ٢٢٫٠٠٠ جنيه عن نتائج مسابقات ألعاب الـكرة ، إلا أن الحـكومة أبطلتها لأنهـا رأت انها مبنية على المقامرة ، وليست على المهارة ·

وبعض هذه الجرائد اليومية مصورة ، بمعنى أنها تعنى عناية خاصة بصور الحوادث الجارية ، ومن هذه الديلى ميرر والدايلى اسكتش ، ومثل هذه الصحف المصورة لهـا قراؤها لا سيما من السيدات والأطفال .

• • •

والصحف المسائية تبدأ النشر من نحو الساعة العاشرة صباحاً ، وتصدر طبعات متتالية إلى نحو السادسة مساء ؛ وكل طبعة لها اسمها ولها زبائنها ؛ وهذه الطبعات غير

الختامية تعنى عناية خاصة بالشؤون الاقتصادية وأسعار الأسواق ثم بنتائج المباريات الرياضية .

. . .

وبعض هذه الصحف يؤدى خدمات عامة كبيرة . فالدايلى ميل تقيم كل عام معرضا كبيرا فى بناية أولمبيا الشهيرة فى لندن تدعوه «معرض البيت» فى هذا المعرض تعرض نماذج للادوات المنزلية والاثاث على اختلاف أنواعه، والغرض منه نشر أصلح المبتكرات التى يمكن استخدامها فى البيت الحديث مع ملاحظة رخص أثمانها .

وبعض هذه الصحف تقيم مسابقات للاطفال ، وأخرى للالعاب . فالدايلى مرور كانت ترسل هذا العام بعض الراقصات الممتازات الى المصايف حيث يعرضن بعض الالعاب الرياضية لاسيما للسيدات لكى يقتبسنها .

والمصايف مركز تعلن فيه الصحف والمجلات الاسبوعية عن نفسها ، تتفنن فى ذلك بشتى الطرق . فجريدة النيوز كرونكل مثلا ترسل مندوبا لها فى مصايف انجلترا المختلفة وتنشر صورته وموعد ذهابه الى هذه المصايف ، وتقدم الجريدة مكافأة مالية لمن يكتشف هذا المراسل .

ومن هذه الصحف والمجلات ، ما يهدى مجموعة من الكتب والمؤلفات والمراجع لمشتركيها ، ومن هذه الدايلى ميل ؛ وبعض هذه الكتب قيم لا أظن أن الجريدة تنتظر أى مكسب من ورائه ، غير ما ترجوه من تعويد هؤلاء المشتركين على قراءتها .

. . .

وجميع الصحف لاتصدر يوم الاحد · ولكنها تصدر بصورة أخرى وبعنوان محرف فالدايلى اكسبريس تصدر يوم الاحد « السنداى اكسبريس» والتايمز تصدر الابزيرفر وهذه الصحف التى تصدر يوم الاحد ، أضخم حجما وأغزر مادة من غيرها ، وتباع

بنسين وهذه الصحف لاتعنى كثيرا بالشئون السياسية الجارية ولا بالشئون التجارية والاقتصادية ، بل تنشر بها الاخبار الجذابة ، كالقضايا الغريبة ، والقصص والابحاث الادبية والتاريخية .

. . .



وعلى أبواب محطات الترام الأرضى
تجد بائعى صحف المساء . .

فاذا سرت بعد منتصف الليل فى فليت استريت ، وأنت لاترى الا الاضواء التى تبص من نوافذ بناياته العديدة ، فلا تعتقدان وراء هذه الجدران الصامتة ، قوما يتناولون عشاءهم البارد بعد السهرة أويلعبون الورق حول المدفأة،لأنك اذا أتيحت لك الفرصة وولجت باب احدى هذه الأبنية ، فانك تجد وجوها يقظة ورؤوساً تقيد تفكيرها بالدقائق والثوانى ، تجد هؤلاء الذين يجلسون على قمة العالم ، ويستمعون لكل نسمة تهب وريح تخفق فيه ؛ تجد ذلك الذى يتحدث فى التليفون فتظنه

يتحدث إلى صاحبته عن موعد للشاى ، ولـكنه فى الحقيقة يتحدث على بعد الآلاف من الاميال وينتقل من استراليا إلى أمريكا ، ومن اليابان الى مصر .

...

فبينما لندن نائمة أو لاهية ؛ إذا بهؤلاء الذين يسكنون وراء فليت استريت يعدوز مصلهم لحقن الآلاف والملايين فى الصباح ، فيفجعون قلوبهم أو يهدئون أعصابهم بها .

هؤلاء هم سفراء صاحبة الجلالة .

طيور الليل

الساعة الثالثة صباحاً .

ميدان بيكادلى قد أقفر من الناس ومن الحركة ، ولست ترى فى هذه الساعة المتأخرة غير رجل من رجال البوليس يفحص أبواب المتاجر المغلقة ، وجمع من عمال الطرق يغسلون أرض الشارع .

ومن النادر أن تجد عربة من عربات التاكس ؛ وأندر من هذا أن تجد رجلا يسير فى هذا الميدان المقفر ؛ ان رؤية مثل هذا الرجل تثير الاستطلاع ؛ تثير التفكير ؛ تثير فى النفس خواطر غريبة . من هذا الرجل الذى يسير وحيداً فى قلب بيكادلى فى هذه الساعة المتأخرة ؟

قد يكون مجرماً خطيراً ؛ قد يكون محباً لعب بلبه الغرام وهو فى طريقه إلى البيت بعد أن قضى ليلة راقصة مع حبيبته يسير ممتلىء الرأس بالآمال وبالأمانى ؟ قد يكون هذا الرجل لصاً ، وقد يكون رجلا من أبناء السبيل بلا دار يأوى إليها أو بيت يهجع فيه ؟ إن خلو بيكادلى فى الساعة الثالثة ، رهيب مفزع . . .

. . .

ولكن لندن ليست نائمة . مئات من أهل لندن لا يعرفون طعم النوم فى الليل . أدخل احدى هذه المطاعم الليلية التى لا تقفل أبداً ، والتى انتشرت فى لندن انتشاراً كبيراً فى السنين الأخيرة .

انه لا يزال ممتلئا حركة ونشاطا ، يرن فيه الضحك والكلام ، ويغدو فيه الخدم ويروحون ، وتسمع فيه رنات الملاعق والأطباق ، ويعبق فى جوه دخان التبغ .

ما أبعد الفرق بين هذه الحياة بين جدران هذا المطعم، وبين الهدوء والسكينة التى ترفرف فى الشارع ؟ تدور بعينيك حول الجالسين فلا تكاد تشعر بفرق بين هذا المكان فى الصباح وفى هذه الساعة المتأخرة .

ولكن لا ، كثير من الوجوه التى اعتدت رؤيتها فى هذه المطاعم لا تلمحها الآن ؛ لست ترى السيدات اللواتى يخرجن بحقائبهن للشراء ، لست ترى أطفالا ؛ ولست ترى إلا عدداً نادراً من العجائز والمتقدمين فى السن . وجوه الشباب ، ولكنها وجوه عليها علامات الفتور والتعب ، والمرح الهستيرى !

. . .

من هؤلاء الذين يتناولون طعامهم فى هذا الوقت المتأخر ؟ لا شك أن حياة الكثير منهم يحوطها الغموض وتصبغها الأسرار .

تلمح فى ركن القاعة شابا أنيقا فى ملابس السهرة تصحبه فتاة كانت بلاشك ترقص معه ، تعرف ذلك من معطفها الأسود المحبوك حول وسطها ، انها تنظر بعين زائغة حولها وهى تحتسى مع رفيقها شيئاً من القهوة . انها تشعر بأنها مغامرة ؛ بأنها فى مكان غريب عنها ؛ ولكن رفيقها لا يزال يحدق النظر إليها من تحت قبعته العريضة كأنه يرجوها أن تطيل السهرة إلى أبعد من هذا ! وفى الوقت نفسه تراه يغضى النظر عن آخر بجانبه يدمن النظر ويظهر الاعجاب بصديقته . . .

كثير من الشبان المولعين بالرقص يملأون المكان ، ويتحدثون عن ليلتهم وعن الرقص ، ثم عن العمل فى الساعة التاسعة صباحاً . ثم يضحكون !

. . .

وفى ركن آخر يجلس جماعة معهم عُددهم الموسيقية وقد صفوها تحت الطاولة .

هؤلاء بلا شك أفراد فرقة موسيقية قد انتهوا من عملهم · وبجانب هؤلاء تلمح وجوها جادة الملامح ، يدخن أصحابها ولا يتكلمون ، لعلهم من عمال الليل ، أو من رجال البريد ، ينتظرون الترام الأول الذى يقلهم إلى بيوتهم ·

ثم تجد وجوها شرقية ، طلبة يابانيين ، يتحدثون سوياً ويجيلون النظر حول الجالسين ماذا يصنع هؤلاء فى هذا المكان ؟ لعلهم يدرسون حياة الليل فى لندن ؟ . .

وبين أركان المكان تجد بعض الفتيات ، أولئك الذين يدعين بأنهن من مدربات الرقص ، أو من ممثلات السينما · · ·

· · ·

إن هذه الطيور الليلية ، التى تراها تنتقل من طاولة إلى أخرى ويحي بعضها بعضاً ، قد صار لديها عادة أن تتناول القهوة فى مثل هذه الساعة المتأخرة · ثم تسمع أحد هؤلاء وقد اكتشف أحد معارفه بين الحاضرين !

«هل تتذكر آخر مدة رأيتك فيها؟ كان ذلك فى بغداد !. ماذا حدث لفلان··؟» و مثل هذا الحديث لاتزال تسمعه فى لندن ، بين أولئك الذين جمعتهم الحرب وذكريات الحرب.

فاذا ما خرجت من المطعم ووقفت على بابه ، تبدأ تشعر من جديد بالوحدة وبالبرد .

خطان من النور على ضفتى الشارع المقفر ، عربة من عربات التاكس تسير متمهلة بجانب الرصيف . وأعجب من هذا أن ترى فى ميدان بيكادلى عربة من عربات الخيل ، بجوادها الهزيل ، محنى الرأس كأنه يتذكر عهداً غير هذا العهد.

· · ·

ثم تشاهد فى الجو الهادىء البارد نوراً ضعيفاً ينبىء باقتراب يوم جديد، ثم تقرع أذنك قرقعة عربات اللبن ، فتذكرك بأن لندن ابتدأت أن تقوم من سباتها . . .

ه · ف · مورتن

أين تسهر هذا المساء ؟

رحم الله باريس ، ورحم الله برلين وفينا !

أين تذهب هذا المساء ؟ وكيف تقضى السهرة فى لندن ؟ تخرج الساعة الثامنة مهندماً محترماً وتفكر فى قضاء السهرة ، تخرج فتجد الشوارع قد خلت من أهلها ، قد اقفر شارع اكسفورد والريجنت والاستراند ، لست تدرى أين ذهبت هذه الآلاف من الناس !

لعلهم ذهبوا يفكرون كيف يقضون الليل ، بعد جهاد يوم فى سبيل العيش . لعلهم يفكرون كما تفكر الآن كيف يقتلون الليل .

لا . لقد ذهبوا جميعاً إلى بيوتهم ؛ ليتناولوا عشاءهم ويجلسوا حول المدفأة يتحدثون أو ينصتون للراديو ، والقليل منهم ، القليل النادر ، من يفكر فى الخروج من المنزل بعد عمله .

هذا القليل النادر الذى يفكر فى السهرة على أنواع ؛ هم الطبقة الارستقراطية التى تجتمع فى أنديتها الخاصة ، أوتذهب لتناول العشاء فى احدى فنادق بيكادلى أو مايفير .

ثم طبقة العمال وطبقة العاملات ، هؤلاء هم الذين يملأون بعض الشوارع ـ وبعضها فقط ـ بذهابهم وايابهم وبوقوفهم بالقرب من أبواب دور السينمات والمسارح الصغيرة . هؤلاء هم الذين تراهم ينتشرون فى أمسية الصيف فى هايد بارك يلتفون حول الخطباء لاليستمعوا بل لغرض الاجتماع والتظاهر .

هؤلاء هم الذين يجعلون فى شوارع لندن بعض الحياة بعد أن تقفل المتاجر ؛ هؤلاء هم أبطال الروايات الغرامية فى أركان الشوارع ، وفى منحنيات المتاجر المقفولة ، هؤلاء هم أبطال هايد بارك فى الليل .

ثم هناك طبقة أخرى من رواد الليل فى لندن ، طبقة الاجانب ، من اليهود الألمان، من الايطاليين ، ثم من طلبة الجامعات من هنود ومصريين وصينيين وغيرهم .

...

هؤلاء هم الذين يفكرون معك فى قضاء السهرة فى لندن ؛ ولكن الثامنة ساعة متأخرة لكى تفكر فى قضاء الليل ، لان العصفور المبكر هو الذي يلتقط الحب « بفتح الحاء ! » . لك الخيرة بين ثلاث : قضاء الليل فى مسرح ، أو فى سينما، أو فى مطعم ٠

دائرة ضيقة للاختيار ، وهى أكثر ضيقا اذا بدأت هذا الاختيار . لذلك ترانى قد ترحمت فى بدء هذا المقال على باريس وبرلين وفينا .

...

دور السينما فى انجلترا ، وفى لندن على وجه خاص ، أفخر دور السينما فى أوربا ، لاتقارن قط بما فى باريس وبرلين . ولكن مسارح باريس وما يعرض على هذه المسارح لاتجد له نظيرا فى لندن ؛ كما ان مشارب برلين وصالاتها أمتع ماترى العين فى أية عاصمة أوربية .

فى لندن عشرات من دور السينما التى تسع أكثر من ألفى متفرج وبعضها يسع نحو ضعف هذا العدد . ومع ذلك فهذه الدور تضيق بك اذا فكرت فى الذهاب الى احدى سينمات بيكادلى فى الساعة الثامنة ٠

ومع اتساع هذه الدور ومع كثرتها فى لندن فانها عالية غلوا فاحشا ليس له مبرر . ثلاث شلنات ونصف ، أظنها كثيرة فى مقعد متقدم فى السينما ؛ وربما تقف فى أيام السبت ساعة أو بعض ساعة قبل أن تخلو احدى المقاعد .

ولـكن لهذه السينمات ميزة ، وان كان البعض ينظر الى هذه الميزة بغير ارتياح . تفتح هذه الدور أبوابها من الساعـة الحادية عشرة صباحا ، وتستمر الى منتصف الليل ، تستمر بلا انقطاع ؛ ظلام مستمر من الظهر الى منتصف الليل ، لايسأل عنك أحد ، ولو قضيت فيها هذا الوقت با كله ، لسبب من الاسباب ! !

والأسباب التى تدفعك لقضاء هذا الوقت الطويل فى ظلام السينما ، مع المضايقة التى تجدها من تكرار الفلم،عديدة . ودور السينما فى لندن مسرح من مسارح الغراميات .

أنت فى الحقيقة تشاهد أكثر من رواية فى وقت واحد . الرواية التى دفعت أجرا لمشاهدتها ، ثم رواية أو أكثر تشاهدها على يمينك ويسارك وأمامك وخلفك ، روايات لم يستخدم الخيال فى صوغها ، بل هى روايات غرامية حقيقية .

اذا حدث وجلست فى الصفوف الخلفية ، وكان بجانبك مقعدان فارغان ، سرعان ما يحتلهما أحد الروميوهات مع جوليته ! وبطريقة آلية سريعة ، يبدآن الفصل الاول من الرواية . نعم ، بطريقة آليـة سريعة ، وقبل أن يستقر بهما المقام ، وبدون أن يفكرا فى أمر الجماعة التى تحيط بهما !!

وفى بادىء الامر قد تختلس النظرات اختلاسا اذا كان الفصل الذى يمثل بجانبك دقيقا ! ولـكن بعد حين تتشجع أكثر من ذلك ، لأنك تحس بأن بطلى القصة لايكادان يحسان بوجودك أو لعلهما يتحمسان اذا ما رأيا أن مناظر روايتهما الخاصة قد استهوت الافئدة وشغلت الجيران عن مشاهدة الرواية الاصلية !

وليست الغراميات هى كل مايشجع على قضاء الساعات فى دور السينما ؛ بل التعب والعزوبة والمطر . فكثيرا ما كنت أدخل السينما لأننى لاأعرف أين أذهب ، أو لأن المطر بدأ يتساقط ، وأنا تعب من اللف والدوران لاسيما فى بلد غريب ، اذ ليس أرخص من قضاء ساعتين أو ثلاثة بشلن واحد ولا يعنيك اذا كانت الرواية ثقيلة أو أن المسرح فارغ ؛ لأن الجلوس أو النوم لا يحلو الا فى الظلام وفى الوحدة .

ومنذ حين انتشرت دور جديدة للسينما فى لندن، دور للاخبار لا تقضى فيها أكثر من ساعة ولا تدفع أكثر من شلن واحـد . وتعرض فى هذه السينمات أخبار الأسبوع ، ومقطوعات غنائية وتاريخية ، ومناظر علمية . ولا شك فى أن هذه فكرة طريفة ، من حيث قصر الوقت ، وقلة الأجر ، ومن حيث التغيير فى موضوع روايات السينما التى أخذت تمجها النفس .

وبعض السينمات فى لندن ، تعرض الفلم الواحد عدة أسابيع متتالية ، وفى بعض الأحيان عدة شهور قد تبلغ عاماً ، وإذا انتهت من هذه الدور انتشرت فى السينمات المحلية ، ودور الأقاليم .

ولعل السينما قد أخذت تحتل مكانة التمثيل بعد انتشار الأفلام الناطقة ، لأن كثيرا من دور السينما المشهورة القديمة ، أخذت تعرض شرائط السينما من حين إلى حين . كما أن البعض الآخر منها قد استحال إلى مسرح يعرض فيه الرقص والمناظر المتقطعة التى يطلق عليها اسم « فارايتى » .

. . .

وقضاء السهرة فى احدى دور السينما ، ليس فيه البهجة المطلوبة . والمسارح بلاشك لها قيمتها واحترامها ومزاجها .

والمسارح فى لندن مع تعددها ، باهظة الأجور ، لا تشجع على زيارتها إلا مرة أو مرتين فى العام . والرجل الانجليزى المتوسط قد يمر العام ولا يذهب مرة الى احدى مسارح الوست اند .

ومع هذا فتجد الاقبال على المسارح كبيراً ، لا سيما فى المقاعد المعقولة فى أثمانها . ولما كانت هذه المقاعد لا تحجز مقدما ، فان هؤلاء الزبائن ، يحضرون إلى نافذة التذاكر قبل بدء التمثيل بساعات ، ينتظرون دورهم فى الدخول .

ومن المناظر العادية التى تشاهدها حول مسارح لندن ـ وفى أيام السبت حول دور

السيما ـ الصف الطويل من المنتظرين حول باب السيما . يقفون بترتيب اثنين اثنين ، ويتقدمون كذلك، السابق مقدم على سواه ؛ دون نزاع أو شجار بينهم يستدعى تنظيم أحد رجال البوليس .

وهذه الصفوف تمتد عشرات الأمتار وقد تنتهى فى الشارع الآخر ويطلق عليها اسم « كيو » . ولراحة الزبائن تقدم إدارة المسارح مقاعد صغيرة من القماش لجلوس هؤلاء الزبائن ـ ولكننى لست أدرى أهى مجانا أم بأجر خاص ـ لأنى مع الأسف لم أجربها بعد !



صفوف المنتظرين لدخول المسرح

وعدا ذلك تجد وسائل أخرى لتسلية أصحاب « الكيو » من عازفين على الكمانجة أو مغنين أو بائعى شكلاته ؛ لأنه كثيراً ما يحدث أن يمتد حبل هذا الجلوس إلى أربع

أو خمس ساعات ، قد يهطل المطر فيها مراراً . ولعل لسان هؤلاء الزبائن يقول « فى سبيل الفن ما نلقى . . »

وكثير مما تخرجه هذه المسارح يمضى على عرضه شهور وشهور قبل تغييره . وبعض هذه المسارح تعرض رواية واحدة فى العام أو اثنين على الأكثر. ومن هذه المسارح مسرح « درورى لين » الذى عرضت فيه « أغنية الصحراء » .

ويرجع تاريخ اقامة هذا المسرح الى عام ١٦٦٣ وقد احترق عدة مرات ، والبناء الحالى يرجع تاريخه إلى قرن مضى . ويتصل بتاريخ هذا المسرح ، عدد كبير من أدباء انجلترا وشعرائها من القرن السابع عشر الى اليوم ومن هؤلاء پوب وسويفت وشردان وجولد سمث وفاركوهار واديسون وغيرهم . ثم عدد من شهيرات الممثلات . ولهذا تجد هذا المسرح فى حى من أحياء لندن القديمة ذات الحوارى ، وتشترك معه فى ذلك دار الأوبرا .

ولما كانت أجور المسارح الكبيرة فى لندن باهظة ، لذلك اختصت بها الطبقة الأرستقراطية ، التى ترى الذهاب الى احدى المسارح من حين لآخر ضرورة حكمت بها البيئة ، ورعاية التقاليد من حيث اللباس وتناول العشاء فى احدى المطاعم الليلية جزء متمم للسهرة .

ومن أمتع المشاهد فى لندن ساعة انتهاء هذه المسارح وخروج المتفرجين وهم فى ملابسهم السوداء والبيضاء ، تصحب كلا منهم سيدة بملابس السهرة الحريرية الطويلة البيضاء أو السوداء . تتخطر على ذراع صديقها أو زوجها بدلال ورشاقة .

وهل يأتى اليوم الذى تخرج فيه الفتاة المصرية يصحبها زوجها أو خطيبها وتقضى السهرة فى دار الاوبرا ، تستمتع بموسيقى بيتهوفن أو فردى ؟ !

قد يأتى هذا اليوم . وقد يأتى قريبا ، وتكون ملاحظتى فى غير موضعها . .

. . .

والنزعة السائدة في التأليف المسرحي في انجلترا اليوم ، هي الروح النقدية الفكاهية، التي نبغ فيها برنارد شو وغيره من كتاب هذا العهد .

وبعض المسارح يعرض من حين لآخر بعض الروايات الخالدة لا سيما التي من نوع الاوبرات كمائدة ومدام بترفلاي ثم مؤلفات شكسبير .

وروايات شكسبير تعرضها بلا انقطاع احدى المسارح القديمة في « حي لندن الشرقي » وتعرف باسم « الأولدفك » أي المسرح الفكتوري القديم . وهذا المسرح يرجع تاريخه الى عهد شكسبير ، و في مكانه شيد أول مسارح لندن في القرن السادس عشر .

. . .

والبعض لا يعتبر الذهاب إلى السينما أو التمثيل سهرة بالمعنى الحقيقي ، لأن السهرة في نظرهم لابد وأن تقطع في الحديث على مائدة العشاء أو في احدى المراقص .

وبيكادلي حافل بهذه المطاعم وهذه المراقص . وفي كل حي من أحياء لندن تجد هذه المراقص المحلية .

أنا لست ممن يحبون الرقص . قد يقال لأنني لاأجيده ، ولكن الحقيقة أنني حاولت الرقص ،فلم أجد بعد هذه المحاولة ما يشجع على السير في هذا الطريق !

يقولون انه فن جميل ؛ لهذا التوافق بين حركات الجسم ونغمات الموسيقى ؛ ولكن الرقص الحديث لا يوافق طبيعتنا الشرقية .

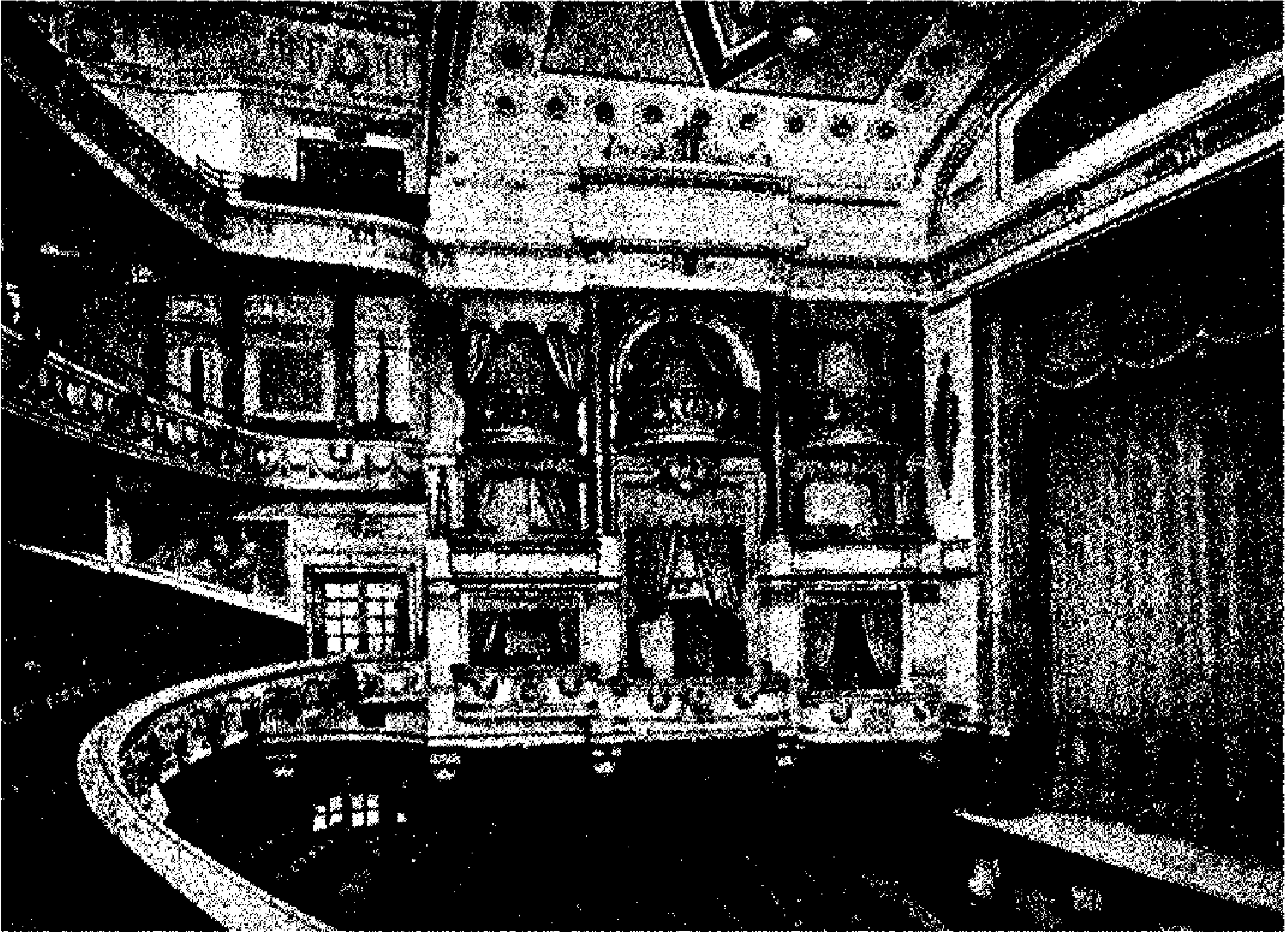
هؤلاء الشبان المصريون الذين تراهم في أوربا يتحمسون للرقص ، والذين تراهم يدافعون عن مبلغ أثره في الجسم والذوق ، هؤلاء لا يرضون بحال من الأحوال أن يسمحوا لأخواتهم أو زوجاتهم بالرقص مع غريب .

لا . ليس هذا فقط بل ان كثيراً من الانجليز ، إذا ما قضوا السهرة في احدى المراقص لا يسمحون لغريب بالرقص مع خطيباتهم أو زوجاتهم ، بل ان كثيراً من

هؤلاء الفتيات يرفضن بشمم طلب الرقص، مع ما فيه من احراج للرجل المتقدم إليهن ، ومع أن البعض يعتبره قلة « طهى » من الفتاة .

ان الغيرة الجنسية ، غيرة الرجل على زوجته أو خطيبته أو أخته ، تتنافى مع نظام الرقص الحديث .

ان من مظاهر الانقلاب الاجتماعى الذى حدث بعد الحرب العظمى فى أوربا ، انتشار طرق الرقص الحديثة هذه ، وانتشار موسيقى الجاز وغيرها ، التى تثير العواطف إلى درجة الاحتراق ؛ والتى وإن كانت تتناسب مع جو الحرب المكفهر فى أوربا بطبوله ومدافعه ، إلا أنها لم تعش طويلا بعد أن صمتت القنابل والمفرقعات .



داخل مسرح الدرورى لين

فهذه الفترة التى نعيش فيها فترة شاذة ، سوف لا تمتد طويلا ؟ إذ أن طبيعة الانسان بقوتها وضعفها لابد وأن تتغلب فى النهاية ، فالتطرف فى الذوق أو الزي

أو الرأى ليس طبيعياً بل ان جذوته تنطفىء إذا سكنت الريح التى تذكى النار .

وسوف ترجع أوربا إلى أنواع الرقص القديمة ، التى تؤكد العلاقات « الرومانتيكية» بين الرجل والمرأة ، هذه العلاقات التى كادت تتلاشى بانتشار أنواع الرقص الحديثة ، التى اذا نظرنا اليها بعين القرن الماضى أو بعين فرويد أو هارشفيلد من علماء التناسليات نجد أن الدافع الجنسى بصورته الفطرية مستتر وراء ذلك .

. . .

وفى هذه المراقص تجد فئة من الفتيات المحترفات التى تستأجرهن بشلن أو بنصف شلن للرقصة الواحدة ، أو بأكثر من ذلك بحسب درجة المرقص .

وفى الكثير من هذه المراقص فئة من الشبان المحترفين الذين يستأجرون بمثل هذه القيمة مع الزائرات ، اللاتى لا يجدن من يتقدم إليهن ؛ لأنهن من الشائبات العائبات !

وليس أقبح للنفس من أن تجد سيدة متقدمة فى العمر ، فى لباس المرقص ذى الظهر العارى والأكمام الضائعة ، تنفخ فى سيجارتها فتزيد وجهها الملون قبحاً ؛ تراها تتأبط ذراع أحد هؤلاء الشبان وتتخطر بدلال مصطنع بين أركان المراقص ، تتباهى بفريستها !

وبعض الفتيات يترددن على هذه المراقص ، لكى يكتشفن فيها عريس الغفلة ، لكى يتعرفن بأكبر عدد من الشبان ليجدن من بينهم زوجاً ؛ ولكن الحقيقة عكس ذلك فالشاب لا يبحث عن زوجة له فى المراقص ، ولكنه اذا وجدها فقد يذهب بها الى هناك .

والفتاة المصرية التى تظن أن الرقص من مستلزمات الثقافة الغربية للفتاة هى

بلا شك مخطئة ، لأن كثيراً من الانجليزيات المثقفات تثقيفا جامعياً لا ينظرن إلى الرقص بهذه العين . ان الفتاة المصرية التى تفتخر بأنها تتردد على بعض صالات الرقص فى القاهرة وتفتخر بمن يسألها الرقص من خدمة الأجانب المستوطنين ، هذه الفتاة تقدم ثمنا غاليا فى سبيل الجرأة التى ليس فيها موضع للفخار .

منذ سنين كنت أقضى الصيف فى أوستند فى بلجيكا ، وكانت معى عائلة مصرية يدرس زوجها الشاب فى انجلترا ؛ وبينما كنا فى مرقص الكازينو الفاخر ، تقدم شاب أجنبى الى الزوجة وسألها أن ترقص معه . فرفضت بطريقة ، جعلتنى « وكنت جالسا بجانبها » أنضح العرق كسوفا وخجلا . ثم راحت هذه السيدة تلقى علىّ وصفا لقصة هذا السؤال وهذا الرفض .

لم تكن السيدة فاتنة جذابة بل كانت أما مصرية لم تغب عاما اذ ذاك عن مصر وكان زوجها الشاب يرقص من حين إلى حين . وكانت السيدة بطبيعة الحال تجهل الرقص .

كان رفضها رفض من أثقلته التقاليد التى لا يمكنه أن يحاربها ، رفض عجز لا رفض قدرة ، رفض اباء وحذر من اثارة غيرة زوجها ، الذى لم تكن تحار فى نفسه هذه الخواطر . فكل هذا كون فى نفس هذه المصرية ، وهى ترى حولها الراقصين والراقصات فى ثيابهن الفاخرة ، وتحت الأضواء الملونة المنعكسة ، ومن بينهم زوجها ، كل هذا كون مناعة فى صدرها ، لا تسمح لهذا الاغراء بالدخول .

ولكن الفتاة المصرية التى عاشت فى مصر ، لا تكوّن هذه المناعة بسهولة ؛ ولا تكونها بهذا التطرف السخيف فى الأخذ بأذيال الحضارة الغربية ، عن يد هذه الحثالات الاجنبية التى ضاقت بها أوربا ، ولم تجد بداً من النزوح إلى الشرق تحمل

معها بضاعتها الخاسرة التى تبهر عين المرأة ، كما كان يبهر المستعمرون فى قلب افريقيا عيون شعوبها الفطرية بالخرز والودع .

...

وبعد هذا كله قد لا تزال تفكر معى كيف تقضي الليلة فى لنـدن ، فى لندن بلا عمل !

مقبرة العظماء

فى هذه المرة زرت دير وستمنستر لا لأقف أمام كل لوحة أحل طلاسمها اللاتينية ، ولا لأتأمل كل تمثال امر به واستعرض تاريخ صاحبه قائدا كان أم فنانا ؛ ولا لأستمتع بمشاهدة فخامة هذه الكاتدرائية العظيمة القديمة وأدرس فنها ومعمارها ، لان كل هذه قد أخذت منها بنصيب فى زياراتى العديدة لهذا الدير ، المكان الذى لاتسأم الترداد عليه ، ولا تشعر بملل من استعادة ماتراه بين جدرانه .

دير وستمنستر مقبرة العظماء ، العظماء الذين كتب لهم الخلود، لأنه كم من عظماء خدموا الانسانية ، عظماءعاشوا كذلك بنفوسهم الكبيرة ؛ ولكنهم ذهبوا وذهبت ذكراهم الا من أفواه القليل ، ومحيت اسماؤهم الا من الكتب والمراجع التىلايقرؤها الا هذا القليل .

كلما أدخل هذا الدير كلما أذكر الكلمة الخالدة التى كتبها أديسون عن تردده عليه ؛ على هذا المكان الذى أسير فيه اليوم بجدرانه الصماء وبتماثيله الرخامية ، منذ نيف ومئتى سنة . وهاهو المكان لاأظنه قد تأثر بهذه السنين الطويلة .

أذكر اديسون وهو يقول فى خاتمة مقاله « واذا ماشاهدت مبلغ حزن الآباء على أبنائهم فان قلبى يتفطر أسى وحزنا ولكن اذا ماشاهدت قبور هؤلاء الآباء أنفسهم ، فاننى أفكر فى تفاهة هذا الحزن والاسى على رحيل هؤلاء الذين سوف نلحق بهم قريبا » .

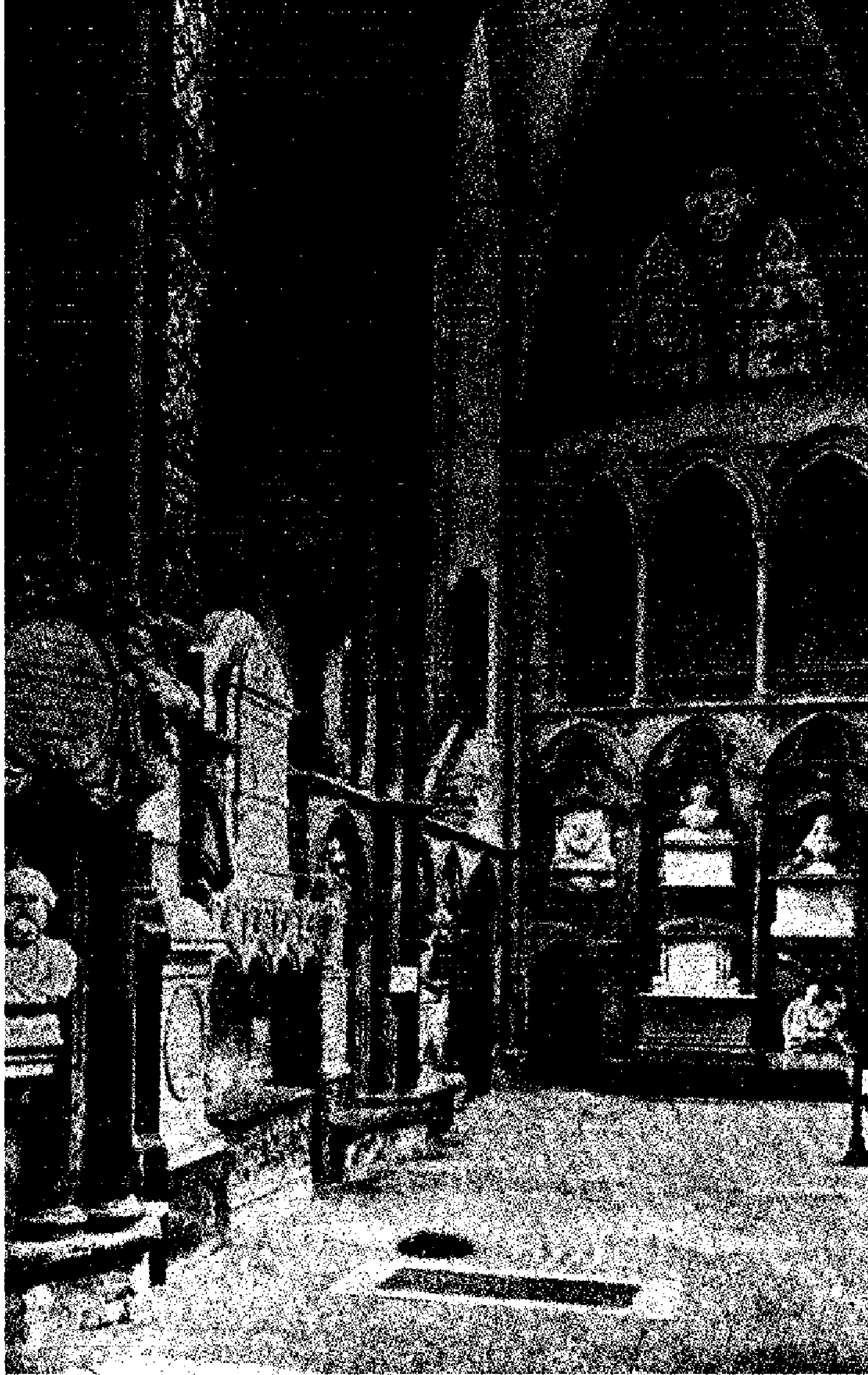
ربما كان أديسون يترنم بهذا الكلام وهو واقف حيث أقف الآن ؛ على قطعة من الرخام، أدوس عليها بقدمى ولا أشعر . وقد كتب عليها «هنا دفن جوزيف اديسون ١٦٧٢ ـ ١٧١٩ » هنا تحت البلاطة التى أقف عليها ، هنا عظام جوزيف أديسون ، أديسون الذى كان يتردد على هذا المكان ، والذى كان يقف أمام تمثال شكسبير وغيره من تماثيل رجال الأدب القدماء ، والذى ربما سار على هذه البلاطة التى نقش عليها اسمه اكثر من مرة .

وعلى مقربة من هذه البلاطة يقف تمثال اديسون تمثال ضخم يزرى بتماثيل كثير من ضيوف ركن الشعراء يزرى بتمثال صديقه رتشارد استيل النصفى ؛ لقد خلد اديسون دير وستمنستر بمقاله ، ولقد خلد دير وستمنستر جوزيف اديسون بهذا التمثال الذى تحوطه الملائكة والفتيات الجميلات النادبات ، وحفظ هذه العظام التى من يدرى ماذا فعل البلى بها وهى تحت البلاطة العريضة التى كتب عليها اسمه .

وكلما ازور دير وستمنستر لا أقدر أن أمر دون جولة فى ركن الشعراء وهم يتحون مكانا منزويا من الدير العظيم ، كأنهم يتسامرون فى هدوء وسكون .

وعلى بلاطة صغيرة لا يزيد طولها على قدمين ، وبجانب البلاطة التى دفن تحتها أديسون تقرأ بخط حديث « توماس هاردى ـ توفى سنة ١٩٢٨ » . مئى سنة تماما منذ أن أودعت عظام استيل فى الركن الذى لا يبعد عنه بمترين . هذا كل نصيب توماس هاردى من دير وستمنستر نصيبه من الخلود ، هذان القدمان من الارض ، وهذه القطعة من البلاط العادى ! . ومع ذلك فمئات ممن يملكون عشرات الآلاف من الفدادين ، قد يتنازلون عنها بطيب خاطر فى سبيل قدم من الارض تحت قبة وستمنستر .

وهؤلاء العظماء من الانجليز الأدباء ، الذين يعرفون مصيرهم إلى هذا الدير ، هؤلاء العظماء ما شعورهم إذا ما وقفوا فى ركن الشعراء وقد كاد يضيق بضيوفه وقد شغل كل



ركن الأدباء فى دير وستمنستر

ركن منه وشغل كل قدم من أرضه الضيقة المحدودة . ما شعور برنارد شو وهو يزور هذا الركن ويقف باسما بذقنه المسترسلة ، يدور بعينيه البراقتين بين تماثيل شردان وجولد سمث من أدباء المسرح الأقدمين ومن الايرلنديين أمثاله ؟ ماشعوره وهو يعرف

ان احـدى هذه الأحجار التى رصفت بها أرض هذا الركن ستكون يوماً ما كل ما يدل على وجوده . .

من يدرى أى أفـكارا تجيش فى نفوس هؤلاء العظاء وهم يزورون دير وستمنستر ؟

. . .

ولـكن لا . ليس ركن الشعراء هو الذى أقصده هـذه المرة فى دير وستمنستر ، وليس تمثال أديسون ولا مقبرة توماس هاردى ما أبحث عنه فى زيارتى هذه .

تمثال مرمرى أبيض ناصع البياض ، أقيم فى ركن قد يخفى على السائر المتعجل مكانه ، أقيم بين تماثيل كثير من رجال الحرب وبين عدد من رجال السياسة .

لست أعرف عن صاحب هذا التمثال كثيرا ولا أريد أن أعرف ؛ فاسمه لم يرد فى كتب التاريخ التى درستها ولا فى كتب الأدب التى قرأتها ، ولم يتردد فى الصحف والدوريات ؛ وهذا التمثال المرمرى الأبيض لم يقم لأن صاحبه قد خلد ذكره كأمير مترف ولا كقائد محنك ولا كسياسى خطير ولا كقس ورع ولا كأديب مبتكر ؛ ولـكن بين تماثيل هؤلاء جميعاً قد أقيم هذا التمثال ، وبين تماثيل هؤلاء جميعاً سرت هذه المرة لا أرنو ولا أتلفت بل أسرع الخطى الى هذا التمثال المرمرى الأبيض .

هذا التمثال أقيم لأجل المرأة .

هذا التمثال نحت ليخلد حباً بين اثنين ؛ بين زوج وزوجة . هذا التمثال رفع لـكى يكون رمزاً للاخلاص والوفاء ، اخلاص الرجل نحو زوجته الشابة التى احتضنها الموت فتية .

هذا التمثال أقيم كما أقيم « التاج محل » فى الهند ، أقيم من المرمر الأبيض رمز الطهارة ورمز الاخلاص .

من هي فلورانس نايتنجيل التي أقيم لها هذا التمثال ، ومن هو زوجها ؟ لست أعرف كثيرا عن تاريخهما ·

· · ·

تمثال حديث الصنع ، بينه وبين تواريخ كثير من التماثيل التي أقيمت حوله عشرات السنين بل ومئات السنين · وهو مع ذلك ضيف محبوب بين هؤلاء الجيران ·

فكرة التمثال هي كل شيء . فنحن قد نشعر وقد نقدر ، ولكن الفنان هو الذي يعبر لنا عن شعورنا وعن تقديرنا ·

على قاعدة التمثال تجد فتاة سمحة الوجه يهصر قلبها ألم عميق وترى في عينيها أثر الحزن والجزع ، تجلس مكشوفة الصدر قد سقطت بعض ثيابها عن أكتافها .

وخلف هذه الفتاة يقف رجل شاب ، هو زوجها ، يقف في ثورة جزع مؤلم ، ثورة تلهبها شجاعته ورجولته ولكنها ثورة جزع ، ثورة يأس قاتل ، يقف يحوط زوجته بجسمه ويرفع ذراعيه لكي يحمي صدرها المكشوف العاري ؛ ترى ذراعيه وترى وجهه من جديد فكأن ذلك الجزع قد انقلب جنوناً ، جنون اليأس والحيرة !

وتحت أقدام التمثال، ترى حربة ثقيلة مسددة إلى ذلك الصدر العاري ، الى صاحبته ذات الوجه السمح المتألم · يسددها رجل ؟ ياللقاتل !

لا . بل يسددها هيكل عظمي ، هو رمز الموت !

هو هذا الهيكل العظمي ، هيكلنا العظمي ، الذي نجزع منه ، هو الذي نخافه ونرهبه ، هو الذي نتصوره الموت · وليس هو الا أصاب أساس في بنائنا وأقدره على مقاومة دورة الزمن ·

هو الموت كما كان يتصوره ملتون يقف بحربته المسددة بين السماء والأرض ؛ بحربته المسددة الى هذا الصدر العاري ، الى صاحبته ذات الوجه السمح المتألم .

وماذا ينفع جزع هذا الواقف خلفها ؟

وماذا تجدى ذراعاه الممدودتان لحماية رفيقته من هذه الحربة المسددة . . !

. . .

ولـكنه هو كل ما لديه ،

كل مالدى الانسان قد قدمه لرفيقته ؛

الحزن؛ والحنو ؛ والاخلاص ؛ والوفاء .

الطبيعة الانجليزية

فى كل شىء نتلمس هذه الطبيعة الانجليزية . ولـكن كيف ندعوها ؟ أهى جمود فى المشاعر أهى تلبد فى العاطفة ، أهى ضعف فى الاحساس ، أم هى ارادة مهذبة ، تهذبت حتى طغت على دقات القلب ، فلم تدع الدم الفائر يتدفق جزافا دون حساب .

لا . ليست هذا ولا ذاك ، وليس من عيب اذا دعونا هذه الطبيعة بالبرود . البرود الانجليزى لا أكثر ولا أقل .

كل شىء فى مصر يثير العاطفة الملتهبة ، ويهز الاعصاب هزاً عنيفا ؛ كل شىء : صديقك ، وزوجتك ، وخادمك ، ورئيسك ، ومرءوسك ، بل حتى الطبيعة الجامدة لا تتوانى عن اثارة أعصابنا المنهكة المريضة . تحاول فتح باب حجرتك فيستعصى عليك وتتوتر أعصابك ، وتقفل النافذة وتبدأ عملك فلا تمضى طويلا حتى يفتحها الهواء ، فاذا أغلقتها غاضباً تحطم زجاجها ! حياتنا فى مصر صراع مع الناس ومع الطبيعة ومع أنفسنا .

...

هؤلاء المئات من الرجال والنساء ، من الابناء والازواج ، من الاصحاب والصاحبات ، من الاطفال والامهات ، يجلسون جنباً لجنب فى هذه المطاعم العديدة فى لندن ، لا تـكاد تحس لوجودهم أثراً ، إلا أصوات الملاعق والملاقط ، وخبطات العاملات ، بل نقرات أحذيتهن وهن يغدون ويرحن بخفة ورشاقة من مائدة الى مائدة .
وهنا فى الترام وقد ازدحم بالعشرات من الراكبين والراكبات الذاهبين إلى أعمالهم

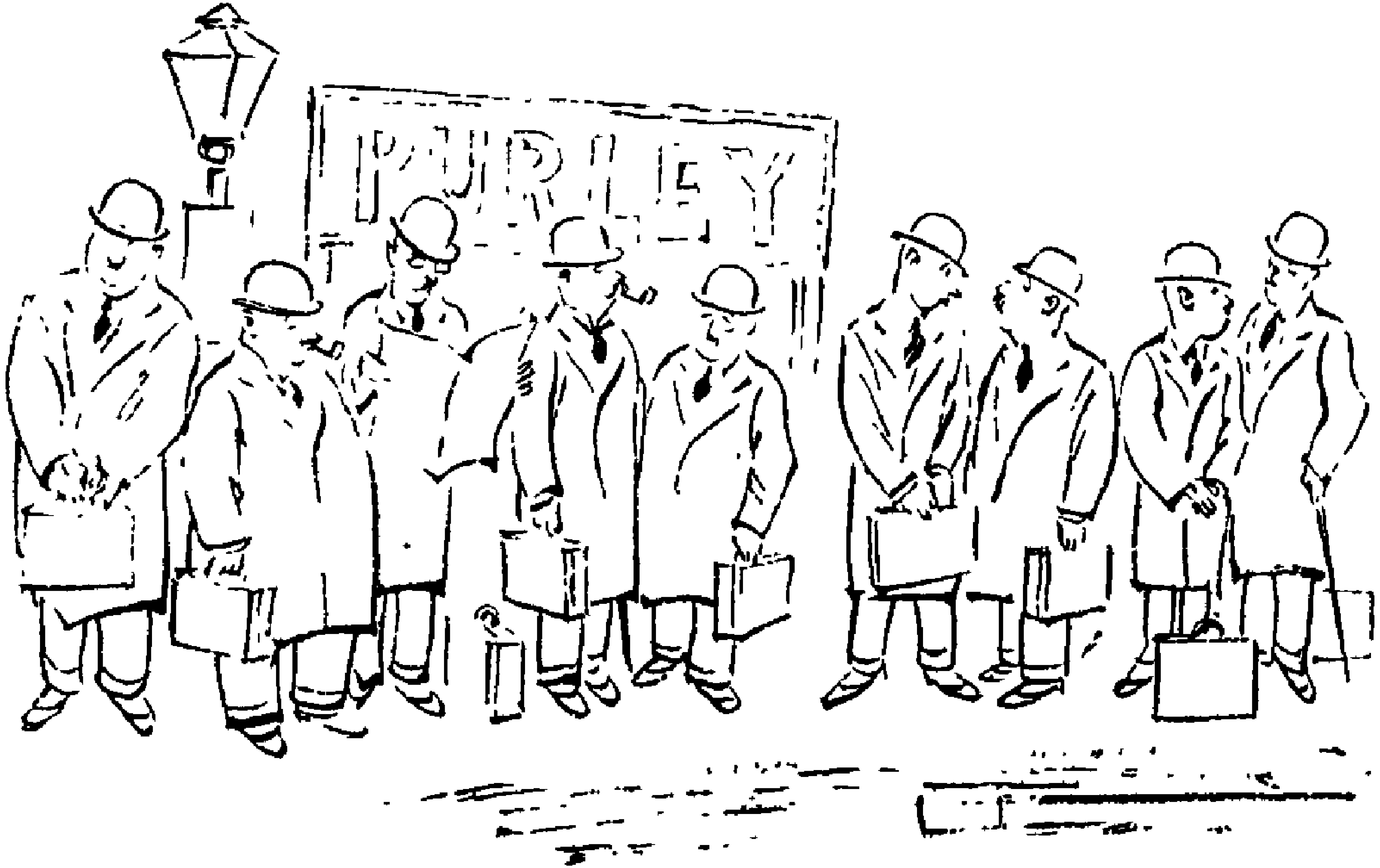
أو الراجعين الى دورهم ، ليس منهم من يرفع عقيرته زاجراً أو ساخطا من الازدحام أو من حرارة الجو أو من وقوف القطار أو من تأخيره . إذا تحدث تحدث إلى نفسه أو همساً إلى من يجاوره .

أعصاب مستريحة ، وأجسام قوية ، لا تكل من العمل ، ولا تشيخ وصاحبها لم يتعد بعد طور الرجولة الكاملة .

...

ليس هذا البرود صفة مستحدثة وما هو بصبغة مستعارة وما هو بعادة فحسب نشأ عليها الانجليز ، بل هو طبيعة اختلطت بدم هذا الشعب وصارت جزءاً من مركباته .

يالله ! حتى القطط الانجليزية ، تبدى هذا الجمود وهذا البرود . هذا القط الأسود « ساكى » أحد أفراد الدار التى أنا بها ، قد تشبع بهذه المبادىء الانجليزية ، يمر على المطبخ ولا يكاد ينظر إلى ما على الرفوف قناعة أو قل كبراً وصلفا ، وله نظامه اليومى



انجليز . .

الذى لايخطىء . يتناول طعامه فى مكان معين ، ويجلس فى الحديقة على احدى الدرجات الموصلة إليها ، يجلس هناك ولو كان الجو بارداً واليوم مطيراً ؛ وما الذي يجعل الانجليزى يغير نظامه أو يبدل فى عاداته وتقاليده حتى ولو كان قطا !

وليس هذا فقط ، بل انك اذا حاولت معاكسته وصفقت له بكفك ، أو حاولت أن ترهبه باقترابك منه ، ظهرت فيه هذه الطبيعة الانجليزية الثابتة الأصيلة ، يرفع عينيه اليك قليلا ثم يغمضهما مستمراً فى جلسته ، كأنك لست هناك . بل انه لا يكاد يهز ذنبه ترحيباً ، مخالفاً فى ذلك طبيعة نوعه . نعم لأنه انجليزى المولد أو النشأة أو الرعوبة !

هذا الهدوء فى الطبيعة ، يتبعه الهدوء فى التفكير . تتبعه البساطة فى الحياة ، والصراحة فى المعاملة . هذه المجاملات الاجتماعية ذات القيود الثقيلة ، التى تشل ارادتنا وتفكيرنا ليس لها مجال فى حياة هذا الشعب . لا ينفعل الانجليزى اذا تحدث لك بالحقيقة المرة التى تغضبك ، ولا يذوب خجلا اذا أفضى لك بعجزه عن القيام بما تطلب منه ، ولا يحتدم غيظا وحنقا ، اذا حاولت أن تخطئه أو تسفه رأيه .

فهو يحتكم إلى عقله وتفكيره لا الى عاطفته وقلبه ، ولماذا يضحى براحته وبسلامته وبوقته فى سبيل لا شىء ، فى سبيل مجاملة كاذبة ، وحديث كله رياء ومداهنة ؟

كم منا من يضحى بوقته فى سبيل مجاملة ضيف ليس فى قربه نفع ولا فى حديثه فائدة ؟ كم منا من يضحى بماله ويلقى به مهدوراً وهو يعرف أنه أكثر حاجة له ممن يدفعه اليه ؟ وكم منا من يعد وهو يعرف استحالة ماوعد به ولكنه يرهب أن يقول لا ، يرهب الكسوف والخجل .

انه ينقصنا هذا البرود ، هذا الجمود فى العاطفة . وقد يظن البعض أن ليس من حسن الفطن أن نثبت فى النفس هذه الطبيعة ، حتى لا تنقلب جموداً فى المشاعر والاحساس ، ولكن الاحساس المهتاج والمشاعر الثائرة المضطربة أبعد من صحة

التقدير ودقة الاحساس ، ممن هدأت عاطفته واستراحت أعصابه .


انه ينقصنا هذا البرود . . .

منذ أعوام كنت فى القطار من كاليه إلى باريس ، وكان الوقت عشاء فدق ناقوس الطعام ، وذهبنا إلى عربة الأكل . وجاءت جلستى مع انجليزيين ، فحمدت الله على ذلك ، فقد يجر الجلوس الحديث ، فتنقضى الساعات الباقية الى باريس . ولكن هذا حلم لا يحققه لك انجليزى ولو قتلته الوحدة وأضجرته الوحشة .

بدأ الطعام ، وكل منا مشغول بأمر نفسه ، وطلب أصحابنا بضع زجاجات من النبيذ الفرنسى ، الذى كثيراً ما يرحل لأجله الانجليزى الى فرنسا لندرته وغلو ثمنه فى انجلترا . ثم بدأ دخان السجائر والسيجار والغليون يملأ فضاء العربة . وجاء وقت الحساب .

قدم الخادم كشف الحساب الى أصحابنا ، ولم يرد أن يضيف تلك العشرة فى المائة على قائمة الحساب ، لأنه يريد « بقشيشا » أكثر سخاء من هؤلاء الانجليز الثراة .

أخذ أحدهم ما رده اليه الخادم من الورقة ذات المائة فرنك وترك له تلك الكومة من أرباع وأخماس الفرنكات ، وهى لا تبلغ فرنكا أو فرنكين ، فنظر إليه الخادم متأدبا موجها نظره إلى خطأ تقديره ، فلم يبد هذا ميلا لتصحيح خطئه ، ولم يتحرك ذاك إلى أخذ هذه السحاتيت ، كأنه واثق من أثر هذه الوقفة الرهيبة على رأس

الزبون وأعين الجالسين والجالسات ترمق هذا المنظر . ولكن خاب ظنه ، اذ جمع الانجليزى هذه الدريهمات ووضعها فى جيبه بسكون واستمر فى حديثه مع صاحبه ، كأن لم يحدث ما حدث ، والخادم مازال واقفا بين يديه ، وقدتهدجت شفتاه تهدجاً واحمر وجهه غيظا وحنقا .

وشعرت إذ ذاك كأنني شريك لهذا الانجليزى فى عمله ، أو كأننى أنا الذى فعلت ما فعل ، لأننى خجلت من النظر الى المائدة المجاورة ، ولأننى أجزلت للخادم العطاء ، كأننى أكفر عن سلوك هذا الجار ، لا لسبب سوى أننى شرقى ولأننى مصرى .

ليس فى هذه الشرقية وهذه المصرية موضع للفخار اذا كانت التضحية غير واجبة والذوق الذى نحتكم اليه لا يدل إلا على ضعف بالنفس وخور فى العزيمة . تناولت الطعام فى احدى مطاعم لندن الأنيقة وكنت مسرعاً ، فأعطيت الخادم خطأ نحو خمسة أضعاف « البقشيش » المناسب ، فنظر إلىّ مبهوتاً لأنه لم يكن ينتظر ذلك ، فأحسست بالخطأ . ولكن أين الجرأة والشجاعة ؟ وهذا الكسوف قد حط على أكتافنا وأثقل كاهلنا بتقاليده ؟

. . .

كان الفيلسوف افلاطون يرى أن كل ما يستثير الفرح الشديد أو الحزن العميق ، من قصص أو شعر أو موسيقى يجب أن يمنع تداوله فى جمهوريته التى تخيل فيها المثل الأعلى للمجتمع الانسانى .

لأن الانسياق خلف العاطفة الثائرة موضع ضعف فى الرجل ليس خليقا بالمثل الأعلى للرجولة، وليس خليقا ـ فى نظر افلاطون ـ بمن يريد أن يجمع فى يده زمام الحكم .

وهل أقول ان نبوءة أفلاطون قد صدقت ؟ فها هو الشعب الانجليزى الذى ملك خمس العالم ، قد أثبت بجموده وبرود طبيعته أنه جدير بالحكم والسلطان .

لا نرى الانجليزى يضحك حتى يستلق على ظهره ، حتى ولو كان فى مجال لا عيب



لا ترى الانجليزى يضحك حتى يستلق على ظهره

عليه فيه إذا ملأ الفضاء بقهقهته ، حتى السكير إذا سار فى الشارع « يدندن » إلى نفسه ، ولا يتبرع باشراك السائرين معه فى « انبساطه » كما هى الحال مع سكيرينا ، ونحن قد توترت أعصابنا من قبل أن تعصر الخمر ! فما بالنا والخمر ؟

وكما أنك لا ترى الانجليزى يضحك حتى يستلق على ظهره ، فانك لا تراه يظهر الجزع والألم ولا ينصرف إلى البكاء إذا ألم به الخطب أو قسا عليه الزمن . وإذا كانت دموع المرأة مقياساً لرقة احساسها ودقة شعورها ، فاننى لم أر انجليزية تهدر هذا اللؤلؤ الرطب فى مواقف تجد غيرها فيه البكاء أيسر ما تقوم به ، لتصوير عاطفة كاذبة أو صادقة تجول بين جنبيها .

لا أقول شيئا عن مواقف الحب والهيام ، ولا اللقاء والفراق ولكننى أذكر المواقف التى لا يرى الرجل فيها من ضير أن يسكب دموعه سكباً ، خذ مثلا مواقف الموت .

قد يموت أحد فى الشقة المجاورة ، ولا تكاد تسمع ندبة أو صرخة أو ولولة . بل انك لا تكاد ترى الجزع يستولى على الأب فيفقده رشده ، ولا على الفتاة فينسيها نفسها .

بل إن ذلك ليبلغ فى بعض الأحايين مبلغ الجمود والكنود إذا ما رأيت الفتاة لا تسكب دمعة على أبيها الراحل ، أو الزوج على زوجته ، أوالصديق على صديقه القريب .

والعطف على المريض وتلك الرعاية التى لاتنقطع وذلك السهر حول سريره، لا يعرفه هؤلاء الانجليز ؛ فلا المريض ينتظر هـذه الرعاية ؛ ولا الذين حوله يضحون بجماع وقتهم ، وبنظامهم اليومى ليجلسوا حول سريره ، يجهدونه بالسؤال تلو السؤال ، ويضجرونه بأقصاصيهم وهمسهم .

وانك لا ترى الفوضى ضاربة أطنابها فى البيت اذا مرض أحد أفراده ، فهم يأكلون ويشربون، ويخرجون ويدخلون ويلعبون ويضحكون، ولا يمنعهم ذلك مرض هذا الفرد فهو فى حجرته وحيداً، لا ينتظر أن يزوره أحد الا اذا كان فى حاجة الى طعام أو دواء.

وكم كانت تضجرنى وحدة المرض ، وكم كنت أبكى حرقا على نفسى ، وكم كنت أتصور نفسى أبأس خلق الله ، وأنا حبيس حجرتى لا يدخلها علىّ أحد ، الا مرات معدودة كل يوم . وكم كنت أتحرق غيظا وأنا أسمع أهل الدار فى حديثهم وسمرهم فى الحجرة المجاورة ، يمرون أمام بابى ، ولا يفكر أحدهم فى الدخول علىّ . ولم يكن ذلك اهمالا منهم لى ، ولكنه عطف منهم وشفقة .

ولكن ياله من عطف ويالها من شفقة مصطبغة بالعلم والمعرفة والعقل ، لا شفقة تحدوها العاطفة العمياء . ولكنها لعيوننا نحن معشر الشرقيين لا نميز فيها هذه الصبغة المقبولة المعقولة .

. . .

مات رب الدار ، وفى الدار زوجته وأولاده وأحفاده وغير قليل من أقربائه . كان مستر كوندرن هذا ارلنديا صميما له ما للارلنديين من الفكاهة والملاحة فى الحديث ، وشيء ليس قليلا من الكرم الشرقى . لذلك كنت أحبه وكان يحبنى لمصريتى ، ويأخذ جانبي فى كل جدال أو مناظرة سياسية أو غير سياسية فى البيت .

وأذكر ليلة وفاته، وسوف أذكرها، وقدحضرت الساعة التاسعة مساء ، ودخلت الدار فلم ألمح شيئا غريبا ، الا أن ابنه الشاب أقبل على ، وهصر يدى وهو يقول ان أباه فى دور الاحتضار ، فى الغرفة المجاورة . يالها من ساعة ، اننى أذكر كيف وقفت مذهولا جامداً وراء الباب ، لا أعى ولا أشعر ، ولا أقدر أن أخطو الى الحجرة لأودع صديقى الراحل .

خرج الطبيب من الحجرة ، وأخذ هؤلاء الأبناء والأقارب فى الانسحاب ثم قفل باب الحجرة ، وأنا لا أزال مسمراً فى مكانى لا أبرحه ، وأحاول اخفاء دموع سخينة أخذت تبال وجهى،لأننى شعرت من الضعف أن أظهر هذا الجزع وليس من بين هذا الجمع من يشاركنى فيه .

جاءت الزوج لتعزينى ولتهدئ من جزعى ، وترجونى أن أذهب الى حجرتى .. لماذا ؟ لأن عشائى الساخن ينتظرنى ! . .

لماذا الجوع ؟ وماذا يفيد الجوع ؟ ولو كان الميت فى الحجرة المجاورة . . . ؟ أهى فلسفة أم هى طبيعة غريبة عن طبيعتنا ؟

لقد ذهبوا جميعاً الى حجرة الطعام يتناولون عشاءهم ! ولم تمض ساعتان على وفاة ذلك الأب . . كنت أنظر اليهم مبهوتا ، ولقد كانت هذه فاجعة أبعد أثراً من الموت نفسه،فاجعة رأيت فيها مثلا من العاطفة السامية التى نشأت وأنا أطأطىء الرأس لها ، رأيتها تمثالا من الخزف الذى لا حياة له ولا دم فى وجنتيه ! !

...

انني انسان ، له ضعف الانسانية ومناقصها، أخاف وأحزن وأبـكى وأتألم وأجبن، لأن فى هذا الضعف معنى الحياة وروحها وقوتها .

وأى حياة هذه التى تمر أمام عينى ولا تهز القلب ولا تثير الوجدان ؟ وأى حياة هذه التى لا تبكى ولا تضحك ، ولا تحزن ولا تخيف ، حياة لا طعم لها ولا معنى .

وان انسانا يعيش هذه الحياة ، يعيش كما تعيش الدمى والأنصاب .

حقا ان الانسان ضعيف ، ولـكن فى ضعفه سر الحياة .



فليت استريت

شوارع لندن التى لا يزال عليها طابع العصر الماضى ، والتى لا تزال تجد فيها تلك الحانات والخانات القديمة بأسمائها وعلاماتها ، هـذه الشوارع نادرة اليوم لا سيما اذا بحثت عنها فى الأحياء الحديثة حول الوست اند .

وفليت استريت صلة بين القرن العشرين ، وبين العصور التى سبقته ، والتى كان فيها فليت استريت من أهم شوارع لندن ، بل أهمها من نواح عدة ·

...

وكان من عادتى أن أضرب فى هـذا الشارع بعـد أن أتناول الغداء فى الـكلية الملـكية حيث كنت أعمل ، فأبدأ السير على الطوار الأيمن مبتدئاً بمحكمة الجنايات الانجليزية المعروفة باولد بيلى وأسير حتى ينتهى فليت استريت فى الشارع الذى يتصل بكوبرى بلاك فراير على التيمز . واذا كان الوقت صحواً جميلا كنت أطيل السير حتى أصل الى كنيسة سان مارك الضخمة بدرجاتها الرومانية العريضة وبتماثيلها العديدة وبحمامها الأليف .

فاذا انتهيت الى ذلك عبرت الى الطوار الآخر ، وأخذت طريقى ثانية الى الـكلية الملـكية فى الاستراند ·

ومن قرأ طرفا من الأدب الانجليزى لا سيما فى القرن الثـامن عشر ، فى ذلك العصر الذى عاش فيـه أديسون واستيل وهزلت وجونسون وبزول وشارلس لام

وشارلس دكنز وكارليل ، من قرأ تلك المقطوعات التى كتبها هؤلاء الكتاب ، والتى كانت أول خطوة فى الطريق إلى الأدب الصحفى الحديث ؛ ومن قرأ شارلس دكنز فى قصة المدينتين وفى أولفر توست؛ ومن قرأ بوزول عن حياة جونسون ، وعن يوميات النادى الأدبى . من قرأ شيئا من أدب القرن الثامن عشر ، فانه بلا شك يحن الى فليت استريت يحن إلى السير فى تلك الأزقة الضيقة التى تنحدر من فليت استريت الى ضفاف التيمز .

فى كل ركن من هذه الأركان ذكرى ، وكل علامة من هذه العلامات التى تشاهدها على أبواب الحانات العتيقة المنتشرة فى هذه الدروب الضيقة ، تحمل تاريخاً .

ليست هذه حانات ، بل انها كانت أشبه بشىء بالمشارب والمقاهى ، بل انه أقرب إلى الصواب أن ندعوها خانات ،شبيهة بالخانات التى كانت الى عهد قريب فى الشرق ولا تزال فى دمشق وحلب وغيرها .

هذه الخانات كانت أندية أدبية فى ذلك العهد ، وكانت مجامع للثقافة ، وكانت مجالس الأدباء والفنانين والساسة .



بقايا عصر العربات

واذا قرأت أديسون واستيل ولام وغيرهم ، لوجدت كثيراً من أسماء هذه الخانات يتردد ذكرها فى كتاباتهم ، وبعض هذه الخانات لا تزال تحتفظ بأسمائها ، وان تبدل روادها وتغيرت أحوالها .

وذلك العصر كان عصر العربات وعصر الخيل ، ولا تزال آثار هذا بادية فى فليت استريت وفى الدروب الموصلة اليه ، فمساقى الخيل والاصطبلات الخلفية التى استولت عليها السيارات ، والأرض الحجرية التى تشبه بعض شوارع الاسكندرية ، كل هذا يذكرنا بالمأساة التى انقضى بها عهد العربات والخيول . ولكن مع ذلك فمن حين الى آخر ، تمر بك احدى العربات القديمة السوداء المقفلة ، وتنتهز الفرصة لتمعن النظر إلى السائق بملابسه الرسمية المزركشة وبقبعته العالية ، وفى بعض الأحيان يصحبه آخر بمزماره الطويل ؛ ينفخ فيه لكى يفسح لعربته الطريق ؟

بقية من الروح فى جسم هامد ، وجهاد مع الحياة فى سبيل البقاء ، ومنظر أتألم له ، ولا يثير استطلاعى أو اعجابى ، فهو المنظر الأخير من مأساة سوف يسدل عليها الستار قريباً .

...

وفليت استريت شارع المكتبات والمطابع ، فهو يذكرنى بشارع الفجالة بمكتباته المغبرة التى تكدست فيها الكتب دون ترتيب أو تنظيم .

ولعل الكثيرين يشاركوننى فى هذه المتعة ، متعة « اللف » حول هذه المكتبات أقلب فى هذه الكتب المعروضة والتى يرجع تاريخ طبع الكثير منها إلى أكثر من قرن،هذه الكتب التى أتقن طبع غلافاتها والتى زركشت بالأشكال والزخارف الهندسية المذهبة . والتى لم تعرف الفوتغرافيا بعد . هذه الصور، التى يجب أن أقول ان الفنان كان يجهد ذراعه فى تنميقها وتدوين كل صغيرة وكبيرة عليها حتى تشوهت ، لم تعد تدل على فكرة معينة ولا على ذوق ولا فن .

هذه الـكتب العتيقة لا أحب أن أجعلها فى مكتبتى ولو كانت نادرة الوجود . فالقراءة فى كتاب باهت الغلاف عتيق الطبع ، لا تلذ لى ولا أغتبط لها . ان الـكتاب كالصديق يجب أن يكون من أبناء جيلك ومن قرنائك . ومع أننى أحب أن أقلب فى هذه الـكتب العتيقة فى مكتبات فليت استريت فاننى لا أبتاع عادة شيئا منها .

* * *

وفليت استريت ليس شارع المـكتبات القديمة فحسب بل هو شـارع الصحف وشارع الصحافة. والصحافة الانجليزية يلتصق اسمها باسم فليت استريت ، والصحافى الانجليزى الذى لم يخرجه فليت استريت ، لا يزال صحافيا فى دور التـكوين .

وكل بناية ـ بلا استثناء ـ دار من دور الصحف . والصحف اليومية التى تصدر فى لندن والمجلات الأسبوعية ، ودور النشر والصحف الانجليزية التى تصدر فى غير لنـدن .

وأخذ عامل التجديد يغير ويبدل من أبنية فليت استريت ، اذ أن أكثر من صحيفة واحدة فى لندن تطبع فى اليوم أكثر من مليونين، فهى ليست تلك الصحافة التى كانت معروفة فى القرن الماضى .

هذا التجديد تشاهده فى عمارتى « الدايلى تلغراف » « والدايلى اكسبريس » الأولى بناية من الحجر الجرانيتى بأعمدة ضخمة هائلة أشـبه شىء باحدى البنوك الأمريكية ، والأخرى عمارة تفنن واضعها فى تصميمها فهى بناية سوداءلامعة . بناية من المعدن والزجاج الأسود . بناية عجيبة وذوق غريب ، تشاهده فى كل ما فيها من أبواب وأثاث .

وفى كل دار من دور هذه الصحف ، ردهة للقراءة تعرض فيها بعض أعداد كل صحيفة ، وتعرض فيها صور الحوادث الجارية ، لـكى يطلع عليها من لا يقدر أنيدفع بنساً ثمناً لها .

والعمل وراء هذه الجدران لاينقطع ليل نهار ، وأسلاك التيلفون والبرق التى تتصل بهذه البنايات لا تهدأ فى أية ساعة من ساعات اليوم . وعيون العاملين وراء هذه الجدران لا تغمض ، وكم من هؤلاء لا يتركون فليت استريت إلا وقد دك أجسامهم السهر وهد قواهم العمل المتواصل ، لما يتناولون من منبهات وعقاقير .

وأنت الذى تدفع بنسا أو نصف قرش فى الصباح ، وتقلب احدى هذه الصحف ثم تلقيها بضجر ، لست تدرى كم من أعصاب تهدمت فى تحبير هذا الذي ترى أنه لا يستحق القراءة .



ناشر الاخبار فى لندن قبل عهد الصحف

قاعة الرعب

دعنا ننظر الى الحياة من ناحيتها السوداء ،
دعنا نزور أولئك الذين مرقوا عن المجتمع ، فصاروا مصابه وداءه ،
دعنا ننظر الى هؤلاء الذين شهرهم اجرامهم لاحبهم للانسانية ، وخلدتهم شرورهم لاخيرهم وصلاحهم .

كلما أخطو درجة الى أسفل السلم ، كلما ابتعد عن الحياة والأحياء ، وعن ضوء النهار . وهكذا سرنا فى أقبية أشبه بسراديب القلاع فى القرون الوسطى ، درجات من الحجر ، وسقف واطيء مغبر وضوء أقرب الى ضوء الفتائل . تمهيد لما سوف يأتى ، وجو يشعر الزائر بانه فى عالم غير ذلك العالم الذى كان فيه منذ دقائق

وفى ذلك السرداب صور ملونة يرجع تاريخها الى عصور سابقة . صور لطرق التعذيب القديمة ، ومناظر تمثل التفنن فى الاجرام والتفنن فى الانتقام ، صور يغلب فيها اللون الاحمر ، ولعل حقد أوربا على الاتراك فى العصور الماضية ، يتمثل فى هذه الصور ، فهذا أحد السلاطين يدخن النرجيلة وينظر الى رأس وزيره فى طبق تقدمه اليه فتاة ، وهذا أمير يقتل أبناءه خوفا على عرشه ، وهذا آخر يمثل بفتاة أبشع تمثيل.

وهذه النماذج لاتستثير النفس الا اذا قرأت ما كتب تحتها . هذا الحبل هو الذى شنق به فلان وفلان ، هذه السلسلة التى قيد بها فلان الى أزمات . هذه الفأس هى التى استعملت لجذ رأس الأميرة فلانة واطفالها .

ولكننا لانزال فى السرداب

• • •

يقودك القبو الى قاعة الرعب ، وهى حجرة متسعة تحيط بها مقاصير ضيقة . وضوء القاعة الخافت ، واغبرار جدرانها ، والظلال التى تلقيها مافيها من مشانق ومقاصل ومقاعد كهربائية، وصور الزائرين وهم يمرون بين هذه الاجهزة كأنها خيالات أو أطياف لا تحدث صوتا ولا حركة من خوفها ورعبها . كل هذا يثير فى نفس الزائر ولم يكن قد تخطى القاعة هلعا مصطبغا بألم عميق .

صورة للانسانية المعذبة .

يمنح هذا المعرض مكافأة مالية لا بأس بها لمن يقضى الليل فى هذه القاعة . فلم يتقدم لذلك أحد، وماذا يفعل المال ليغسل هذا الأثر الذى تتركه هذه المشانق والمقاصل وماذا يفعل ليقتلع هذا الألم الذى يرسب فى قرارة النفس حسرة على الانسان ! !

فى هذه المقاصير التى عن يمين الداخل يقف عدد من المجرمين الذين كان نصيبهم الاعدام ، وكثير من هؤلاء المجرمين يتناقل القوم قصصهم كما تتناقل فى مصر قصة « ريةوسكينة » وكما تتناقل فى فرنسا قصة لاندرو وفى المانيا قصة سفاح دوزلدورف.



مثال الشمع

وانك اذا قرأت هذه القصص لتعجب لهذه الأسباب التى تدفع هؤلاء إلى الجريمة والى القتل ، بل والى التفنن فى الاجرام ، والابتكار فى ارضاء هذه الشهوات الضالة .

هذا طبيب كان يقتل مرضاه بالزرنيخ ، وهذه مسز تومسون الشابة الجميلة التى قتلت زوجها بمساعدة رفيقها فى منزلها . وهذا لاندرو بلحيته الشقراء ، وهاتان الأختان قد اشتركتا فى قتل زوج احداها ، وهذه العجوز قتلت بعض الأطفال وكانت تدور بجثثهم فى عربة للأطفال فى شوارع لندن .

ثم هذا الرجل المهضوم الوجه والجسم، والمسترسل الشعر هو شارلس بيس ، صاحب القصص الاجرامية التى تشبه الخرافة ، والذى كان يسير مع المشيعين فى مأتم من يقتلهم ولم يكن يدرى به أحد .

وكنت أدمن النظر فى وجوه المجرمات ؛ فالمرأة المجرمة، المرأة القاتلة، أبلغ أثراً فى نفسى من الرجل القاتل . فالمرأة التى نرقب منها العطف والحب والحنو ، والمرأة التى تكفكف دموعنا وتسكن من رعبنا وخوفنا ، والمرأة التى نرقب ابتسامتها ويدها الرفيقة على رءوسنا . هذه المرأة ما أقسى نظراتها ، اذا ما سفكت الدماء ، ولطخت يدها بحمرتها القاسية .

وبينما أنت تمعن النظر ساهم الوجه الى هـذه الوجوه المغبرة ، اذا بناقوس يدق دقة مرعبة هائلة ، ترسل فى قلبك الرعب ولو كنت فى الفضاء الطلق ، وما بالك وأنت حبيس فى هذا القبو بين آلات الاعدام ووسائل التعذيب وبين هؤلاء السفاكين !

هذا هو الناقوس الذى كان يدق فى لندن ، اذا ما أريد تنفيذ الاعدام فى أحد ما ، فـكان آخر صوت يسمعه القاتل قبل أن يودع هذه الحياة .

وفى احدى هذه المقاصير رجل أسود الوجه يجلس على مقعد حديدى ، يضع شبه طاسة صغيرة من النحاس على رأسه، كنت أظنه زنجيا . ولـكنه كان أول أمريكى أعدم

على المقعد الكهربائى فى أمريكا . وهذا السواد ليس سواد البشرة ولكنه احتقان الدم فى الوجه .

والمقصورة المجاورة مجللة بستار لكى لا يطل إلى ما وراءها الأطفال ؛ فى هذه المقصورة رجل معلق من بطنه بهلب مدلى من السقف ، والدم يقطر من جروح جسمه ومنافذ وجهه فيلطخ الأرض . وسيلة من التعذيب فى بعض بلاد مراكش .

وفى القفص الحديدى يجلس رجل مهضوم الجسم شاحب الوجه متدلى الذقن . هذا هو المركيز . . . . الذى قضى ثلاثين عاما فى هذه « الزنزانة » وراء جدران الباستيل ، وعندما أفرج عنه ، لم يقدر أن يعيش مع الأحياء ، وأراد الرجوع الى زنزانته . فمات بعد الافراج عنه بأسبوعين ! ياالسلطان العادة .

ثم فى القبو الذى يلى ذلك ، جحر من أجحار المزيفين . وجوه هستيرية ونظرات تائهة وشفاه صفراء وأيد مضطربة . شعور بالاجرام ، ورعب قاتل . وماذا يفعل المال ، وأى سعادة يجلبها ، ونحن نزدرد كل لقمة فى خوف وهلع ؟

ثم فى هذا القبو جحر من أجحار مدمنى المخدرات ، ياللتعس وياللشقاء ، لم يبق من مظاهر الانسانية وراء هذه الهيا كل البشرية المطروحة على الارض فى هذا الجحر المظلم القذر إلاّ ملامح باهتة؛ ووجوه أقرب إلى الموت منها الى الحياة . حياة بلا شعور حياة ليس فيها روح الحياة .

وفى ركن القاعة ترتفع رأس احدى المشانق التى كانت تعمل بجد إلى عهد قريب ، وبجانبها شارلس بيس من ناحية ثم « العشماوى » الانجليزى بملابسه السوداء وذقنه السوداء يستمد ليؤدى مهمته .

وفى ركن آخر من القاعة ترتفع المقصلة ، تباهى زميلتها الانجليزية بسكينها القاطعة . هذه احدى المقاصل التى حصدت عشرات ومئات من الرءوس فى الثورة الفرنسية . وعلى عارضة هذه المقصلة نبيل فرنسى بملابسه من المخمل ملقى على وجهه

موثوق الاطراف مربوط العينين ، فى الطريق الى الدار الأخرى.وبجانب المقصلة سلة من القش تلك التى كان يجمع فيها من تحصده المقصلة من رءوس كل يوم ابان عهد الثورة .

وعلى مقربة من ذلك قفص من سيور الجلد مدلى من السقف يقف فيه شبح التصق جلده بلحمه ، وسيلة من وسائل الاعدام كانت تستعمل فى رودس، حيث كان يترك المحكوم عليه فى هذا القفص الجلدى معلقا يموت من الجوع والتعب ·
والروح الفنية لاتنقص طريقة العرض فى قاعة الرعب هذه ، لان الفنان ، لم يترك لأعمدة والاركان الا وحلاها بقطعة فنية بديعة · رأس مقلوع العين ، رأس قد مات صاحبه مسموما ، رأس امرأة قتلت بنصل فى مخها ، وجه مشنوق . نماذج فنية بديعة تدل على ذوق العارض ومزاجه ·

. . .

أعصاب متوترة ، ونفس حائرة ، وقلب محسور ، وفكر شارد هكذا أخرج من قاعة الرعب ، ولا أدري الى أين ؟ الى الضوء والهواء ؛ خرجت والشمس قد



وهكذا نخرج من قاعة الرعب . . .

ابتدأت فى المغيب، وقد كست شارع بيكر «استريت» بصبغة صفراء حزينة. فزادتني ألما على ألم .

جامد الاحساس ، زاهد النفس ، لا أجد مايثير نفسي ولا يهدئ أفكاري ، كل شيء كان عندي سواء .

ولم يكن ذلك الذى احتوى نفسي خوفا وهلعا ، بل كان ألما عميقا . كنت أحزن على نفسي لانني انسان . . .

البحث عن غرفة للايجار

لا أظن طالبا أجنبيا هبط لنـدن ولم يسكن اسبوعا أو بعض أسبوع فى احدى بنسيونات رسل اسكوير .

ولا يكاد بنسيون من عشرات البنسيونات المنتشرة حول هـذه المنطقة تخلو من قدم أجنبية وعلى الأصح من قدم هندية ؛ ومن هذه البنسيونات تأخذ أول فـكرة عن الحياة الانجليزية ، فـكرة تتغير وتتبدل فيما بعد .

سرعان ماتتصل بمن عرف لندن قبلك بعض المعرفة ، فيقترح عليك أن تنتقل إلى غير هذا الحى ، الحى التجارى فى بيوته وبنسيوناته ، حياة لاتلذ لمن أراد أن يعيش فى لندن وأن يدرس فى لندن حياة هذه البنسيونات التجارية ، حياة تشعرك بالوحدة وأنت تعيش بين الـكثير .

قد تأخذ النصيحة فتنتقل الى احدى هذه الأحياء ، أو قد تنشر اعلانا قصيرا فى احدى الصحف كالدايلى تلغراف ، ولا تنس فى الاعلان بعض الملاحظات الضرورية « طالب جامعة ـ مصر ـ أسمر اللون ـ لا تزيد سنه عن الخامسة والعشرين .. » اعلان اقرب الى طلب زواج منه الى اعلان ايجار غرفة .

وترد عليك عشرات الردود ، بل أكثر من العشرات . نشرت مثل هذا الاعلان مرة فى الديلى تلغراف مستوفيا الشروط السابقة فلما ذهبت فى اليوم الثانى الى ادارة الجريدة وسألت عن رد لهذا الاعلان ، وقفت بضع دقائق ولا من مجيب فظننت أن

هذا الاعلان كان الى سكان المريخ لا الى سكان لندن . وكدت أذهب وانا خجل من نفشى . ولـكن .

أعاد على الموظف السؤال عن نمرة اعلانى ، وسرعان مارجع محملا بحزمة ، بربطة من الخطابات لايقل سمكها عن عشرين سنتيمترا محزومة بالدوبارة . .

كل هذه الخطابات لى ! لقد شعرت بخجل أكثر ، شعرت بأننى قد خدعت كل هؤلاء ، وجعلتهم يظنون من اعلانى اننىشىء آخر غير حقيقتى . حملت هذه الحزمة والخجل يتملـكنى . أين اذهب بها ، وأين اقرؤها ؟ مشكلة عويصة .

انتحيت ركنا خفيا فىقاعة الدايلى تلغراف وفككت الحزمة ، ووزعت خطاباتهافى جيوب البنطلون والسترة والبالطوثم الشنطة ، ثم حملت الجوابات الطويلة العريضة فى يدى . جوابات على كل لون وعلى كل حجم ، جوابات رسميةصفراء طويلة ، جوابات غرامية حمراء صغيرة ، جوابات مكتوبة بكل مداد وكل خط . وعند ماتم التوزيع شعرت بأننى رفعت حملا عن عاتق ، شعرت بأننى وزعت هذه المهربات . .

قراءة هذه الخطابات متعة أخرى ؛ ودراسةحقيقية اسيكلوجية جانب ليس بالقليل من هذا الشعب الانجليزى . وكل جواب له طريقة خاصة فى الكتابة ، وكل جواب يرسم لك صورة لشخصية مرسله . أو مرسلته على الأصح ، لأن جميع هذه الردود بلا استثناء يرسلها الجنس اللطيف ، أو الذى كان لطيفا يوما ما !

لقـد مضى على هـذه الخطابات سنون فغاب عن ذاكرتى محتوى الـكثير منها ولـكن أذكر من بينها مثل هذه النماذج .

«مسز س . . تسمح بأن تفرد لكحجرة فى بيتها بايجار كذا فى الاسبوع ويمكنك أن تقابلها بين الساعة كذا والساعة كذا . . . »

جواب بلا سلام واحترام مكتوب فى صيغه المضارع ، ارستقراطية تتـكلم عن نفسها . ثم هذا الخطاب .

« عزيزي الفاضل . . . إننا نسكن فى منطقة كذا ، وهذه المنطقة بلا شك أجمل ضاحية فى لندن ومنزلنايتكون من كذا حجرة ، وله حديقة أمامية ، وأخرى مخلفية واسعة ؛ واننى « أي هى » أحب العمل فى الحديقة ، كما اننى كثيرا مااشتغل بدهان سورها ...

لى شقيقتان عمر الأولى عشرون والأخرى ثمانية عشرة ولنا غرام بالعزف على البيانو ؛ ووالدتى سيدة طيبة القلب . . . وكان لنا عم يشتغل مديرا فى احدى مقاطعات الهند وكان وكان . . . »

معرفة وصداقة وغرام ، عن طريق الدايلى تلغراف وأسرار عائلية يجب أن أعرفها قبل أن أتشرف بمعرفتهم .

. . .

أما اذا طرقت الأبواب بلا اعلان فلذلك قصة أخرى . قصة قد تنتهى بمأساة أو قد تنتهى بفكاهة طريفة .

نظام الغرف المستأجرة لاتختص به فئة دون فئة فى لندن اللهم الا الطبقة الراقية . فى كل منزل لابد وان توجد حجرة زائدة عن حاجة أفراد العائلة ، هذه الحجرة لاتترك فارغة . ولا تستعمل مخزنا للمتروكات ، ولكن تترك للضيوف ، للضيوف الذين يدفعون أجرا لضيافتهم ولو كانوا أقارب أو أصحابا . فالقرابة أو الصحبة أمر لا يتعارض وطريقة الضيافة .

وهكذا تسير على باب الله ترقب نوافذ البيوت لترى ورقة الايجار المعروفة . وهذه الورقة قد يتجدد ما يكتب عليها ففى بعض الأحيان ترى « نوم وافطار » أو « حجرة نوم وجلوس » او « حجرة للايجار » أو « حجرة خلفية أو أمامية » وهكذا

. . .

تتخير أى منزل من هذه المنازل العديدة ، أى منزل ؛ لأنها كلها متشابهة فى الوضع

والتنسيق الخارجى ولا تختلف الا فى النمر الموضوعة عليها !

تطوق الباب أو تدق الجرس وتنتظر ، تسمع حركة فى الردهة ، ويطل عليك رأس طفلة . تنظر اليك برهة . كأنها تفحصك ، وقد لا تسألك .

ـ انتظر قليلا من فضلك

ـ امرنا لله « فى سرك »

تذهب الفتاة وتسمعها تنادى

ـ مامى . بالباب سيد « جنتلمان » يريد أن يراك . انه يسأل عن الحجرة « ولم تكن قد سألتَ شيئا ـ ولكنه أمر بديهى »

أثناء ذلك تقف فى الردهة الضيقة ، تفحص محتوياتها لتأخذ فكرة عن الدار وأهل الدار .

ليس فى الردهة عادة الا المشجب ذو المرآة ، لوضع القبعات والمعاطف والمظلات . وهذه المخلفات كافية لأن تعرف شيئاً عن احصاء سكان الدار .

قبعة سوداء مكورة « باولر » هذه بلا شك قبعة الأب ؛ قبعة رمادية عتيقة أو كاسكت . قبعتان أو ثلاثة من قبعات السيدات لا تتصل فى «زيها» بهذا العصر . أو بعض قبعات الأطفال ، عليها علامات المدارس . فتعرف ان الخير باسط ذراعية فى الدار .

ثم تتحول الى المعاطف ، فاذا كان الجو صحوا ، وجدت الكثير منها فى الردهة ، حتى لا تكاد تجد مكانا لوضع معطفك . واذا كان الجو صحوا وجدت هذه المعاطف فى حالة تجمد كالجلد يصعب عليك أن تثنيها بعد أن تشبعت بمياه المطر .

وفى كل ردهة . تجد على الأقل مظلة أو اثنتين فى المعاش ولكنها تترك هناك ، تمر السنون دون ان يحاول أحد التخلص منها .

وهنا تحضر السيدة . سيدة سمينة منفوشة الشعر تضع مريلة من مرايل المطبخ ؛

بهرول اليك تحاول الابتسام فتخرج من شفتيها ابتسامة باهتة لالون لها ؛ وهى تمسح يديها فى مريلتها .

— آسفة جداً لتأخيرى . اليوم هو الثلاثاء وهو يوم التنظيف الأسبوعى ؛ وفوق ذلك فاننى أقلى شيئاً من البطاطس للغداء ، لأن ليلى (وتستنتج ان ليلى هذه ابنتها) قد ذهبت هذا الأسبوع الى عمتها ، وو .. ..

فتقطع عليها الاسترسال فى القصة وتقول :

— آسف لازعاجك . هل يمكن ان أرى الحجرة

— بكل تأكيد . هل تسمح بأن تتبعنى إلى الطابق الأعلى !

وبينما أنتما على درجات السلم ، تبتدئ السيدة بقصة أخرى . قصة هذه الحجرة ، والضيف الذى كان بها .

— هل تعرف .. ان هـذه الحجرة التى ستراها الآن ؛ كان يسكنها شاب من أحسن الشبان . اسمه مستر س . . . كان هذا الرجل حقيقـة جنتلمانا . لقد عاش معنا عدة شهور ، وكان دائماً مغتبطا بوجوده بيننا . كان يحبنا جداً ، وكان يقدم لابنتى ليلى هدايا كثيرة . .

وهنا تقف أمام الحجرة . وقبل أن تدخل . تبدأ بقصة الحجرة

— بالطبع ليست الحجرة فى حالتها العادية ، لا تزال فى اضطرابها منذ أن تركها مستر س . . . أمس . ولـكننى متأكدة أنها تعجبـك ؛ لأن كل من رآها أعجب بها . هى حقيقة حجرة صغيرة ؛ ولـكنها مريحة وطاقة الهواء ، عـدا ذلك فيها موقد للغاز ثم . . .

تدخل الحجرة وتلقى نظرة عامة عليها . هى كـكل حجرة للايجار فى لندن . هـذا هو السرير فى الركن ، ومقعد من الجلد بجانب ، الموقدة وبجانبها صندوق الفحم وان لم يستعمل ، طاولة الغسيل بأبريقها وطبقها الصينى . وهذا رف الـكتب . وامام

الموقدة قطعة صغيرة من الفرو أو السجاد ·

وتلق نظرة أخرى على جدران الحجرة . المرآة على الموقـدة ، وعلى رفها الرخامى تمثال قديم مغبر ، ثم كوبتان من كوبات الزهور بها بعض الزهور الاصطناعيـة أو القرنفل الناشف .

والصور التى تزين بها الجـدران ، تـكاد تتشابه فى كل حجرة تدخلها . صور لايرجع تاريخها إلى هذا القرن . تمثل بعض مناظر الصيد بخيولها وكلابها ، أو بعض مناظر للندن فى القرن الثامن عشر ·


وتظهر لك سيدة تلبس نظارة وتحمل صحيفة فى يدها . . .

تسأل عن الايجار · فتبدأ السيدة بقصة ايجار هذه الحجرة . «فى الحقيقة إننى كنت أؤجر هذه الحجرة بكذا شلن فى الأسبوع ؛ ولـكن لأن مستر س .. قـد سكن معنا مـدة طويلة فاننى قـد أكرمته بتخفيض خاص ، فاذا كنت تفـكر فى البقاء معنا طويـلا فاننى بلا شـك سأكرمك هذا الاكرام ..

«وفى الحقيقة ان هذه الحجرة ولو انها صغيرة الا أن كل من رآها يفضلها عن غيرها··» وترجع السيدة الى قصة الحجرة ثانية .

· · ·

وبينما أنت فى الردهة ، تجيب على سؤال السيدة بأنك سوف تعيد النظر على الغرفة غداً وهكذا تذهب .

تسير فى الشارع المجاور وتتخير أى منزل آخر وتطرقه ينفتح الباب نصف فتحة . وتظهر لك سيدة فى العقد الخامس ، تلبس نظارة ، وتحمل صحيفة فى يدها ، كانت تقرؤها بلا شك عند ما طرقت الباب .

تنظر إليك السيدة من خلف نظارتها . وتدمن النظر فى وجهك ، فتكتشف انك أجنبى .

— ماذا تريد

— هل يمكننى أن أرى الحجرة التى للايجار

— مع الأسف ، انها تأجرت هذا الصباح !

— أشكرك .

ولا تكاد تدير ظهرك · حتى يقفل الباب ببعض الشدة فتخرج وأنت تذكر ، ان زوج هذه السيدة لابد وانه كان يعمل فى الهند أو بورما أو الهند الغربية أو فى مصر ! .. فى المستعمرات أو فى أشباه المستعمرات .

وقد تمر على هذه الدار بعد ذلك فتجد بطاقة الايجار فى مكانها . .

وهنا تعرف السر .

. . .

لاتغضب بل اطرق الباب الذي يليه .

— انتظر قليلا من فضلك ·

تذهب الفتاة وتسمعها تنادى

— مامى · ان سيدا يريد أن يراك . انه يسأل عن الحجرة . . .

ثم تبدأ أنت من جديد بدراسة الردهة وعد ما فيها من معاطف وقبعات ومظلات..

عشاق لندن

انك لا تخطىء فى تميزهم .

ولا تخلطهم بأولئك الذين يسيرون اثنين اثنين أو جماعات جماعات فى هايد بارك مساء يوم السبت والأحد ، وأنت لا تخلطهم بأولئك الذين يتناولون العشاء فى أحد مطاعم «الكورنرهاوس» بعد قضاء الليل فى السينما .

انهم لا يكثرون الضحك ، انهم لا يتظاهرون بما لا يملكون وانهم لا يترددون على الأماكن التى ينفق فيها المال بلا حساب

...

على سور التيمز الصخرى .

وفى مشارب الشاى المتوسطة .

وفى دور السينما الرخيصة .

وعلى أبواب دور التمثيل ينتظرون دورهم فى الدخول .

وعلى درجات منازلهم .

هنالك ترى هؤلاء الذين يمهدون لحياة الأسرة ، الذين يبنون بيتهم فى الخيال ، هؤلاء الذين تتجاذبهم العاطفة والعقل ، هؤلاء هم نواة الاسرة الانجليزية فى دور التكوين .

...

هؤلاء الذين يسيرون فى طريق الحب ، أو الذين عبث بقلوبهم الحب على درجات

اشبه بدرجات الحمى ، بعضها ينفع فى علاجه الاسبرين او الحميه ، وبعضها تعجز يد الطبيب عن تبريد حرارتها ولا تبقى إلا يد القـدر تحطم هذه القلوب أو ترعاها وتحفظها .

على أبواب دور التمثيل كثيراً ما تجد هؤلاء العشاق ، يقفون الساعة تلو الساعة فى صف طويل وتحت الطر ، ينتظرون ولا يتململون. لايحاول الفتى أن ينتحل لفتاته الأعذار لعجزه عن دفع ثمن تذكرة غير هذه التى تستلزم الوقوف ، ولا تحاول الفتاة احراج رفيقها ، راضية بحظها ، فخورة بخطيبها ، تفـكر فى الغد ولا تتألم لليوم .

وما أحلامها وما أمانيها ؟ وما هى آماله ؟ هى جنيهات قليلة يجمعها شلنا شلنا كل أسبوع ، وتجمعها هى بدورها ممـا تدخره من أجرها الأسبوعى ؟ هى تعمل وهو يعمل ، يريدان أن يسيرا فى سلم الحيـاة درجة درجة ، يسيران من الشباب إلى الشيخوخة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن حياة الوحدة إلى حياة الأسرة .

هذه الجنيهات القليلة التى تضطرب إذا قضيا يوماً أو بعض يوم فى أحد المصايف هذه الجنيهات هى ثروتهما المنظورة ، هى التى سيبنى بها عشهما الصغير . .

. . .

فى مشارب الشاى تجد هؤلاء الرفيقين يجاسان جنباً إلى جنب ويتناولان الغداء سوياً أو الشاى بعد أن يرجعا من حيث يعملان .

قدح من الشاى لـكل منهما ، قطعة من الزبد ، بيضة مسلوقة ، وشىء من الساندوتش والـكيك ؛ هذا منتهى ما يبذرانه فى طعامهما . وقد يخرجان فيدفع كل منهما ثمن ما طلبـه ، وليس فى ذلك غضاضة ، ولن ترى الفتاة تنقاد إلى تلك الغريزة السوية ، غريزة التفاخر والتباهى بما ينفق فى سبيلها ، انهـا لا تعتبر ذلك خسة من رفيقها بل هو مظهر لنظرته للأشياء .

. . .

وعلى درجات منزل الفتاة تجد هذين العاشقين ، وفى ركن الشارع المظلم تمر بهما واقفين لا يتــكلمان ، أيديهما معقودة ، ووجوههما قد غلا فيها الدم ؛ غرام فى الدور الأخير !

يتبادلان النظرات بلذةوهدوء ، وقد تعلو وجه الفتى ابتسامة طفيفة لا تكادتلمحها فى الظلام، ابتسامة لها معناها عند الفتاة .

ولو أنهما لا يتــكلمان ، إلا أنك تفهم معنى الــكلمات المحبوسة فى أفواههما ، انك تفهم معنى نظرتها له ومعنى ابتسامته لهـا ؛ نظرة ملؤها التشجيع ، نظرة تملأه حياة ونشاطا؛ وابتسامة ملؤها الثقة والشعور بالذات ، هكذا يعيشان فى حياة من الخيال ، يعيشان على النظرات والابتسامات؛ يقودهما الحب الى سعادة موهومة أو سعادة حقة .

ومن حين الى حين يتناول الفتى العشاء أوالشاى عند خطيبته ، يتناوله بينهم كأنه أحدهم ، ومائدة الشاى كما هى ليس بها من جديد ؛ لا تحاول الفتاة أن تظهر بأكثر من حقيقتها .

هكذا يبدآن الحيــاة ، ويواجهان صعابها ويجالدان مشاقها من البداية ، ولم يرتبطا بعد برابطة الزواج .

لا يبدآن حياتهما بالـكذب والنفاق ، ولا بالتبذير ، فان كان الحب قد أصم آذانهما أو عقد لسانهما فانه حب قد هذبه التفكير ، هذبته المعرفة ؛ حب لا يجر الى تعس وان كان لا يجر الى السعادة الذهبية التى يتصورها كل شاب وكل فتاة . !

• • •

وقد تمر بعد سنين فى حدائق الريجنت ، فتجد هذين العاشقين جنبا الى جنب ، يتحدثان همساً ، ولعلهما يذكران عهدا لهما لم يذبل بعد ، يتحدثان همساً ، لـكيلا يقلقا هجعة ضيفهما الصغير وهو نائم فى عربته . . .

لندن المتبدلة

لقد جاءت الحرب وبدلت من وجوه الناس فى لندن ، وغيرت من ملامحهم ومن أذواقهم .

وأوضح مظاهر هذا التغيير أن الشبان قد اختفت وجوههم من المدينة ، واحتل مكانهم العجائز والفتيات. وسادت روح جديدة لا تعرف إلا فى أيام المحن والشدائد .

وفيما قبل أيام الحرب لم تكن تعرف ما يفاجئك به صديقك من أخبار أو ملاحظات، أما الآن فليست هنالك الا فكرة واحدة تتردد فى عقل كل من تصادفه . هى الحرب ولقد طبعت هذه الفكرة على الوجوه ملامح ثابتة معينة ، وطبعت على الجباه تجاعيد لم تكن معروفة من قبل .

لقد غطت الشؤون العامة على الشؤون الخاصة ، فلم تعد شؤوننا الفردية تثير عنايتنا أو اهتمامنا كما كانت من قبل . فتدربنا على أن نتغاضى عن التفكير فى الأمور التافهة فى الحياة .

. . .

فاذا لاحظت جماعة من الناس يتحدثون ، وراقبت ملامحهم وانحناء ظهورهم عرفت أنهم لا يقطعون الزمن بالحديث عن شؤونهم الخاصة ، بل يبحثون موضوعا واحدا يشترك فى الاهتمام به كل فرد منهم ـ عرفت أنهم يتحدثون عن الحرب .

ولو شاهدت سربا من السيدات حول مائدة الشاى ، لاكتشفت أنهن لا يتساررن

الى بعضهن ولا يتحدثن عن الأزياء الحديثة ؛ ولـكن عن أصدقائهن الذين قد أجابوا نداء الحرب ؛ وعن زوجات هؤلاء وعن أطفالهم الذين خلفوهم فى الوطن .

لقد ندرت ابتسامة المرأة ، ولـكنها صارت أكثر حنانا من ذى قبل ، فكأنها وهى تبتسم ترى فى خلال دخان القنابل وجوها عزيزة عليها .

ولم تعد جريمة أن ترى سـيدة تبكى وتنتحب ، إذ أنه خير لها أن تبكى ، وأن يبكى كل من له قلب يعى ويعطف .

وانك لتشاهد مسحة الحرب قد اصطبغت بها وجوه الجماعات وهم يتناولون الطعام أو يشاهدون التمثيل . ولقد كانت الفكرة السائدة فى مجالى اللهو هذه أن تهيىء فرصة مرحة لهؤلاء الجنود قبل أن يرموا بأنفسهم فى نار الموقعة ، أو لهؤلاء الذين رجعوا الى لندن فى اجازة قصيرة ؛ فينسون أيام الشتاء القارة التى قضوها فى خنادق الفلاندرز .

...

ان أولئك الذين قد أصابوا ثروة عريضة من الحرب ، يصرفون الذهب كأنهم الأمراء . انهم يأكلون ويشربون ، ولـكنهم لا يعرفون طعم السعادة ، ومظهرهم لا يخطىء فيه أحد ، ولا يغشّـون أحدا حتى أنفسم بمظهرهم هذا .

ان هذا الذهب الذى يهدرونه قد غمس فى الدماء فهو لا يرن كالمال الحلال ، ولم يرن هذا الذهب يوماً ما ، حتى ولا فى عهود القرصنة . ولقد تشاهد خادم المقهى أو المطعم وهو ينظر باهتا الى « البقشيش » الـكبير الذى تركه أحد هؤلاء الأغنياء له على المائدة ؛ ولـكنه سرعان مايشعر بمصدر هذا المال ـ سرعان ما يتذكر الحرب .

وخدم هذه المقاهى والمطاعم ، لا سيما القدماء منهم جعبتهم دائما ملأى بالأخبار ، وعيونهم لا تخطىء فى تمييز زبائنهم . ووجوه هؤلاء الخدم قد تغيرت ، فهم اليوم

أولئك العجائز الذين قد لفظتهم طاحونة الحرب ولم يعودوا يصلحون لحمل البندقية

• • •

وانك لتشاهد الشاب الذى قدم من أمريكا الجنوبية الشاب الأرجنتينى وهو ينتقل من مكان الى مكان فى لندن ، وقد جعل همه أن يأخذ بأكبر نصيب من المتعة فى هذه العاصمة الحزينة .

تراه فى ملابسه المتأنقة، وفى زيه الحديث ، وفى بذلته الضيقة ، وفى حذائه اللامع تراه يهبط المراقص ويتحين الفرص المرحة ؛ ولكنه كالفراش بألوانه الزاهية البديعة



حماية لندن من الغارات الجوية فى أيام الحرب

يرفرف فى جو قاتم . يحييه حاجب المطعم أو الفندق ، تحية ليست فيها حرارة ولا طعم ، كأنه يرى أنه خير لهذا الارجنتينى أن يرجع الى بونس ايرس المرحة التى لم تصلها بعد أصوات المدافع .

...

لقد أخذت الفتيات مكان الرجال فى كثير من مرافق الحياة ؛ وصار صوت المرأة الرقيق الرفيع يقرع آذاننا فى كل مكان ، ويجلب هدوءاً وراحة فى قلوبنا المضطربة .

جيمس ملن

الصباح فى لندن

الساعة الثامنة ساعة مبكرة فى لندن .

والساعة السابعة ساعة مبكرة جداً فى لندن ، حتى أنك لا تـكاد ترى ما يدل على الحياة فى هذه المدينة ذات اللايين السبعة .

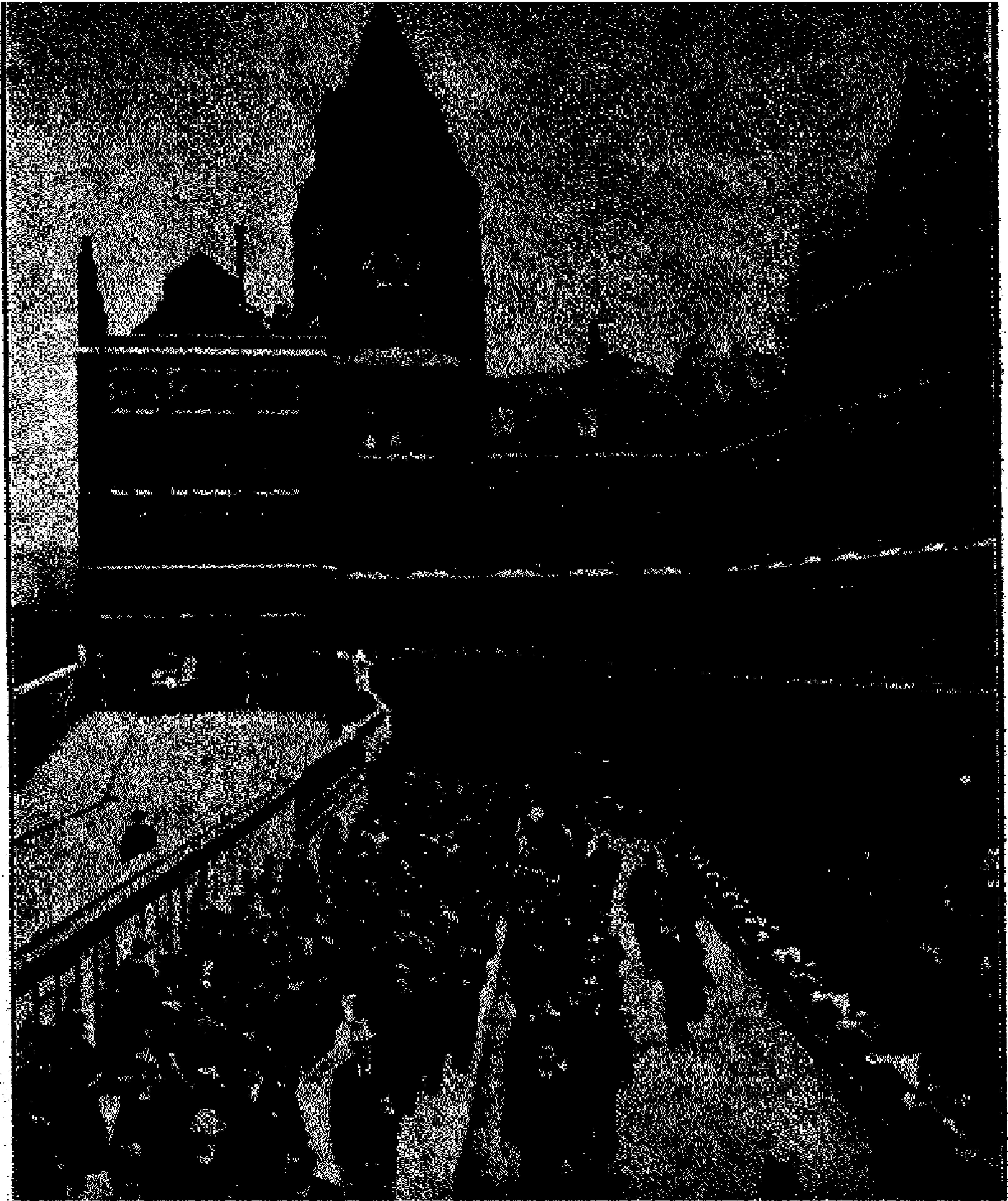
وقليل من رأى لندن بعد منتصف الليل ، وأندر من ذلك من رأى لندن فى الصباح الباكر . فالانجليزى لا يخرج من بيته الا ليذهب الى عمله وقد تناول طعام افطاره . ومن النادر أن تجد أحداً من أهل لنـدن يتناول طعام الافطار فى مطعم ، وأين هذه المطاعم التى تفتح أبوابها للجائعين فى الصباح ، ولو للراغبين فى احتساء فنجان من الشاى ؟

وهكذا ينتظر هذا الغريب الجائع الى الساعة التاسعة ، حتى تفتح المطاعم ومشارب الشاى أبوابها . وكنت يوماً ذلك الغريب الجائع فى لندن ، فقد جئتها زائراً . وصل بنا القطار فى الساعة السادسة أو نحو ذلك ، الى محطة فـكتوريا العظيمة ، فـكان الصدى يدوى فى أركانها الفارغة . لم تمض دقائق عدة حتى تفرق الجمع القليل الذى حمله القطار وصارت فارغة كما كانت .

حاولت أن أشجع نفسى على السير الى خارج الدار لـكى أرى لندن فى الصباح ، ولـكن بكورة الوقت وبرودته وانعدام الحركة كل ذلك لم يكن فيه ما يدفع الى التجوال

فى شوارع لندن المقفرة ، التى بدت أبنيتها السوداء الصخرية أكثر اغبراراً وأشـد قسوة فى وحدة الصباح .

وفى حجرة الانتظار الواسـعة الرحبة ذات الجدران الحجرية والسقف المرتفع والمقاعد الخشبية العارية التى ليست أقل صلابة من الحجر ؛ لم أجد بداً من الجلوس ومن التمدد عليها إلى أن بدأت لندن تفتح عينيها .



أفواج الخارجين من المحطات فى الصباح

واذا دارت الساعة الثامنة ، تنشط الحركة فى محطات لندن العظيمة ، ويدوى فيها الصفير ، وتخفق بالحياة والحركة ، وتمتلئ بالالآف التى سرعان ما تتفرق فى دقائق . ثم تمتلئ المحطة من جديد .

يخرجون كجيش منظم من أبواب المحطة، جيش من الشبان ومن الرجال ومن الفتيات العاملات ، يحمل كل منهم حقيبته ومظلته السوداء التى لا جمال فيها ، ويضع صحيفة الصباح فى جيب معطفه .

...

والوجوه التى تشاهدها فى شوارع لندن فى هذه الساعة المبكرة ، وجوه أصحابها يتقابلون كل يوم فى هذه الشوارع المقفرة . يسيرون يحيي بعضهم بعضاً ، وقليل منهم من يسير سبهللا ينظر الى النوافذ أو يقرأ أسماء الشوارع أو اعلانات الجدران، لأن هذا القليل ليس من رجال الصباح فى لندن ، لأنه ينتظر شيئا ما ، مطعما ، مصرفا أو موعد قطار .

...

عربات الخيل تجد طريقها سهلا فى هذه الساعة المبكرة ، عربات اللبن البيضاء الجميلة ، عربات البيرة ذات البغال الضخمة والبراميل المتعددة ، ثم عربات الفحم السوداء وقد امتلأت بأكياس الفحم المقفلة ، تراها تنحدر فى الطرقات الخلفية ، وترى الفحام وصبيه ـ وهما من الشخصيات البارزة فى لندن ـ يعملان بسرعة البرق فى نقل هذه الأكياس من العربة الى مخازن الفحم فى كل بيت .

وترى عمال النظافة العامة ، يعدون لندن لأهل لندن . وترى منظفى المداخن بعددهم القليلة يهرولون الى حيث يسيرون . ثم ترى الشرطى واقفا فى ركن الشارع ، أو

يتحدث إلى زميله ويتبعان كل سائر بنظرة خرساء .

. . .

وأنت فى البيت ترقب الصباح فى لندن .

وهناك نظام ثابت لا يخطىء ، ولا يختلف من يوم ليوم ، نظام البيت الانجليزى فى الصباح . بائع اللبن ، موزع الصحف ، موزع البريد .

اذا سرت فى هذه الساعة المبكرة فى احدى احياء المساكن تجد على درج كل باب بلا استثناء زجاجة أو زجاجتين من زجاجات اللبن .

وتحت أسفل الباب ، تجد صحيفة الصباح . ومهما استيقظت مبكراً ، فانك تجد هذه الصحيفة فى مكانها ولا تعرف متى يلقيها موزعها السحرى . فأنا لم أره يوماً خلال هذه السنين التى قضيتها فى لندن ، ولم أر زميله صاحب الزجاجات البيضاء التى كأنها تنبت كل صباح فى أركان أبواب المنازل .

وفى الساعة التاسعة . تسمع النقرات المتتالية السريعة ، تتبعها صلصلة ضعيفة !

هذه النقرات لا يخطىء فى معرفة صاحبها الطفل الانجليزى ؛ ولا يخطىء من يضبط عليها ساعته . هذا موزع البريد الذى يدور دورته الصباحية ، وينثر حمله فى فتحات الأبواب .

ثم تسمع هذه النقرات السريعة المتتالية بانتظام الى أن تتلاشى ، وقد ابتعد صاحبها فعلى كل درج لابد وأن يقف هذا الموزع ، لأن فى كل دار من ينتظر خطابا من قريب أو بعيد ، من زوج فى الهند ، أو حبيب فى استراليا ؛ أو أخ على مياه الاطلنطيق .

ويحين وقت الافطار فتنزل الى حجرة المائدة ، لتجد طعام الافطار بألوانه وأنواعه التى تناولتها بالأمس ، وفى السنة الماضية ·

ابريق الشاى مستور بغطاء كثيف .

مربى قشر البرتقال ·

جانب من مسحوق القرطم المطهى « بوردج » .

بيضة واحدة على قطعة من الخبز .

. . .

ثم تبدأ بتقليب صحيفة الصباح ، التى اعتدت قراءتها ، وتبحث عن تنبآت الجو ، لأنك فى لندن لا تعرف ما سوف يأتى به اليوم ، من مطر ، أو ضباب ، أو ريح . .

وقد تخرج وقد انتصفت الساعة العاشرة ، فتجد لندن غير لندن ، وتجد الوجوه التى كانت تحتلها منذ ساعتين قد اختفت . . .



عربة اللبن فى دورتها كل صباح

مقاهى لندن المنقرضة

لعل الشرقى الذى يهبط لندن اليوم ولا يجد فيها مقهى يستريح فيه ، أو يرقب منه السائرين كما يرى فى باريس أو روما أو بركسل ليظن أن حمى المقاهى لم تصل انجلترا بعد .

ولكن الحقيقة أن المقاهى كانت شائعة فى لندن شيوعا كبيرا الى ماقبل القرن الماضى ، واخذت تتطور على ممر الزمن حتى استحالت الى اندية وحانات ومطاعم ومشارب للشاى .

هذه الاندية الكثيرة التى نراها فى كثير من أركان بيكادلى ، قد اخذت مكان المقاهى التى كانت تؤمها جميع الطبقات فى القرن الثامن عشر ، وقد كان لكل جماعة من أهل لندن مقهى خاص يجتمعون فيه ، ويقامرون فيه بزهر النرد الى الهزيع الأخير من الليل .

وكانت هذه المقاهى تفتح أبوابها لجميع الطبقات بلا استثناء ، فكنت ترى فيها الشريف الارستقراطى والغنى الريفى وبجانبه اللص أو قاطع الطريق . لهذا كانت مقاهى الوست اند هذه مسرحا للفوضى والاضطراب ، بسبب النزاع الذى كثيرا ماينشأ حول حلقات القمار ، والذى كثيرا ماينتهى باستعمال السيوف ، ثم حراب رجال الحفظ .

وقبل ١٧١٥ كان عدد المقاهى فى لندن يربو على ألفين ، يتردد عليها أهل كل طبقة ، وكل حرفة ، وكل حزب · فكنت ترى رجال القضاء والمحاماة يتدارسون القانون أو الأدب فى تلك المقاهى التى توجد تجاه «التمبل» . بينما ترى رجال البلاط يتخطرون فى ملابسهم الزاهية الفضفاضة ، والتجار يبحثون شؤون الاسواق ورجال الدين يدرسون المذاهب والاديان والمشاكل الفلسفية

وفى جميع هذه المقاهى ـ الا القليل الارستقراطى منها ـ كان التدخين مباحا · وكان على كل داخل أن يدفع بنسا واحدا ، ثم بنسين لما يطلبه من طعام أو شاى أو قهوة ، ويدخل فى هذا قراءة الصحف ·

وكان شارع سانت جيمس عاصا بهذه المقاهى ، التى كان يتردد عليها كثير من كتاب ذلك العصر ، امثال استيل وأديسون وسويفت ، وقد دون هذا الأخير بعض رسائله فى كتابه المشهور « يومياتى الى استلا » فى احدى مقاهى هذا الشارع .

والى أوائل القرن الماضى كانت مقاهى شارع سانت جيمس تغص بالضباط بملابسهم العسكرية الملونة ؛ حين كانت الدرجات العسكرية تشرى وتباع ، وكان السلك العسكرى يفتح ذراعيه لاولئك الشبان الذى لا مهنة لهم ولا عمل

وأخذت هذه المقاهى فى التطور ، والتحول الى أندية خاصة بطبقات معينة . ففى ١٧٦٤ مثلا تحول مقهى تومز الى ناد باشتراك سنوى قدره جنيه ، وكان أعضاؤه نحو سبعمئة من الاشراف أو الأعيان والشمراء ·

وحذا هذا الحذو كل مقهى يجد عددا من رواده يمكنهم أن يتضاموا سويا ليقفلوا بابه فى وجه الجمهور

. . .

واليوم اذا سرت فى شارع سانت جيمس وغيره من شوارع الوست اند لاتجد أثرا لهذه المقاهى ؛ بل لاتجد من أصحاب المطاعم ومشارب الشاى أو الخمور من

يجرأ أن يضع مقعدا فى خارج مشربه أو على رصيف الشارع ؛

والاجنبى فى لندن لايكتشف الا بعد حين ، تلك الاندية الليلية التى تراها منعزلة فى طرقات بيكادلى الخلفية بانوارها الضئيلة التى لاتنبىء عما وراءها : والتى لا يسمح بالتردد عليها الا من كان معروفا بين روادها

فلندن التى قد حافظت على حياتها الاجتماعية فى كثير من الوجوه ، لم تلازم هذا الجمود وهذه المحافظة فى تاريخ مقاهيها ، التى لو بقيت الى الآن ، لكانت لندن اليوم غير مانعرفها ·



مجالس بيطادلى

قال صديقى

من ذا الذى زار لندن ولم يزر الريجنت بالاس .

وصديقى هذا ، يدعونه الرفاق فى لندن بعمدة الريجنت بالاس.و الريجنت بالاس ، مقهى أقرب شبها بجروبى وأضرابه ·

نعم · من ذا الذى يرحل الى لندن ، ولا يحن الى حياة المقاهى ، الحياة التى لاضابط لها ولا منظم ، الحياة التى لاتقاس بالدقائق والساعات بل بالأيام وأنصاف الأيام ؟

وحياة المقاهى غير معروفة فى لندن ، وغير معروفة فى انجلترا ؛ فالغريب فى لندن مخير بين الجلوس فى بيته ، أو السير على الاقدام الى مالا نهاية .

فالمصرى الذى ألف الجلوس على أطورة الشارع الساعة تلو الساعة، والذي تعودألا يستقر فى بيته ، هذا المصرى عزيز عليه أن تربطه فى حجرته ، هذا المصرى يفتش فى لندن الى أن يكتشف هذا المدعو الريجنت بالاس . .

أعرف من المصريين من يجلس فى هذا المقهى الى الظهر ويخرج للغداء أو يتناول شيئا من الساندوتش ، ثم يجلس الى العصر ، ثم الى المساء ثم الى بعد منتصف الليل . . .

هذا المصرى قد يعود إلى مصر ، ويقول انه زار لندن وانه عاش فى لندن ، وهو لا يعرف الا الطريق الذي يوصله الى هذا المقهى وأمثاله .

• • •

وليس صديقى هـذا العمدة الوحيد للريجنت بالاس . بل هنالك من يشاركه فى الرآسـة بين المصريين وغير المصريين . وأعنى بغير المصريين الأجانب ، من الهنود وغير الهنود .

فالانجليزى لا يعيش هذه الحياة ولا يرغب فيها ، وحيـاة المقاهى غير معروفة فى لندن لأنها حياة لا تتناسب مع نزعة هذا الشعب ، حياة خمول وجمود ، حياة كلام وجدال لا حياة عمل ، حياة لا تعلم الانسان معنى الزمن ولا قيمة الوقت .

. . .

اذا ما تركت القاعة الأولى ووقفت على باب البهو ذي الأعمدة والسقف المرمرى ؛ فانك تطل على فوضى بكل ألوانها وصفاتها . فوضى تخترق العين ، والأذن ، والأنف .

دخان التبغ قد انعقد فى الجو ، فجعل ضوء المصابيح والثريات خافتا ضئيلا ، فلا تـكاد تميز ما هنالك إلا بعد حين ، أصوات بكل لغة ، وضجيج يصدر من كل ركن ومن كل طاولة ، والموسيقى تزيد هذا الضجيج حدة ، وقد تلاشت نغماتها فى هذا الدخان المنعقد .

ثم وجوه على كل لون . ووجوه لا تراها إلا فى هذه الأركان الخفية من بيكادلى ، ووجوه اليهوديات لهن الغلبة بين الجنس اللطيف فى هذا المـكان ، تلك الوجوه التى تعرفها بالأنوف الطويلة المقوسة ، وبالأجسام الضخمة الشرقية ، وبالملابس المقمطة ذات الألوان العديدة .

وهؤلاء الفتيات من رواد ريجنت بالاس يحضرن فيه بانتظام اثنتين اثنتين . ويعرفهن الخادمات ، فلا يسرعن اليهن اذا ما قدمن ، بل يتركن ذلك للظروف !

ورواد الريجنت بالاس من المصريين وغير المصريين يعرفن هؤلاء ، ولهم كما لهن عيون صائبة فى معرفة الوجوه الغريبة من الزائرين والزائرات .

ولـكل من هؤلاء الرواد ركن خاص يهرع اليه اذا قدم،ولا يطمئن به المـكان إلا اذا جلس فيه .

والاجانب في كل مكان ، هم الذين يتطرفون فى مظاهرهم العـامة ، وفى حياتهم الاجتماعية . فالاجنبي هو الذى تراه يحكم لبس سترته احكاما يخرج مظهره عن المظهر العادى ، وهو الذي يحاول أن يلبس الغريب من الازياء ومن الالوان ، لـكى يستلفت النظر ، وهو الذى تراه يدخن بطريقة شاذة ، وهو الذى تراه يجلس متمددا فى مقعده تمددا ، واذا ضحك استلفت الانظار بضحكته ، واذا تـكلم أشار بيديه ورجليه ، ورفع صوته كأنه يخطب ·

وفى غير هذا المـكان ، لا يجد الأجانب هذه الفوضى ، ولا يقدرون على الظهور بهذا المظهر فى الحياة الانجليزية العادية . فهم لذلك يهرعون الى مثل الريجنت بالاس لـكى يفرجوا عن نفوسهم المـكبوتة وصدورهم المحبوسة .

...

هذهالعيون الزائغة التىلا تستقر هنيهة على وجوه الجالسين ، والتى تنظر باستعطاف حينا ، وحينا بقحة الى وجوه الجالسات ؛ هذه العيون لا تدل الا على فراغ هائل فى قلوب أصحابها ·

وهذه الابتسامات التى يخافت بها جارى الذى يلمع فى أصبعه خاتم الزواج ، والتى تصارح بهـا صراحة تلك الفتاة التى خبرت معنى هـذه الابتسامات ومداها . هذه الابتسامات لا تدل الا على فراغ هائل فى قلوب أصحابها

وهذا الفرنسى بلهجته الانجليزية ذات الصبغة الباريسية ، قد ترك باريس ليبحث عن باريس فى لندن ، لقد ترك الدوم وروتند ومنبرناس ، ليجلس فى الريجنت بالاس وبيكادلى .

وهذا اليهودى الألمانى بأسلوبه الانجليزى المفخم ، يجاهد اللغة جهاداً ، تحييه

الفتاة الانجليزية اليهودية التى لا يعرفها ، وتشجعه على الجلوس بجانبها وعلى الـكلام وعلى غير الـكلام .

• • •

ثم انظر لهذا الفوج من الفتيات الشقراوات ، اللاتى قد كثر وفوذهن على لندن ، على بيكادلى ، فى هذه السنين الأخيرة .

هؤلاء قد وفدن الى لندن من البلاد الشمالية ، من السويد ومن النرويج ومن فنلندا. وفدن الى لندن للدراسة الاجتماعية ، ولدراسة اللغة ، وهاهن لا يجدن مجالس أرحب لهذه الدراسة من مجالس بيكادلى .

وما أسرع أن اتصلت بهن وفود الجنوب ، وفود الشرق الناهض ، وتوثقت بينهم الصحبة والمعرفة !

• • •

ثم هذا شاب هندى بجسمه الطويل الأعجف وبشعره الأسود الفاحم المتجمع ، يدخن سيجارته بطريقة اصطناعية ، وينفخ دخانها بارستقراطية كاذبة . لم يرض أن يجلس هووزملاؤه الا فى الطريق ، لـكى يرى كل من تدخل وكل من تخرج ، لقد ملأوا المـكان برطانتهم التى لا موسيقى فيهـا ، وتلفظوا الانجليزية بطريقة مقلوبة عجيبة ، حتى ان المحدث لا أظنه يفهم نفسه .

• • •

ولماذا هذا البك الذى أظنه مصريا ، يتصابى بشعره الذى وخطه البياض ؟ لماذا يجلس الساعة تلو الساعة فى مثل هذا المـكان ، وقد حارت الـكلمات فى حلقـه فلا تخرج الا مبتورة مضطربة ؟ ولـكن عينه تفضحه ، ولـكن حركات وجهه تفضحه ، ولـكن اضطرابه يفضحه .

لقد تنازل عن وقاره ، وسلم بذلك لرفيقه الشاب ، الذي لا يرى ضيراً أن يكون مستهترا .

لقد تنظر الى مثـل هذا الرجل فى كبوته ، فتضحك وتبتسم ، وقد تهزأ به . ولـكننى أحزن ، أحزن للرجولة التى لم تصقلها الحيـاة ، أحزن للرجل الذى لم تعلمه تجاربه ، أحزن للرجل الذى يطل من علياء أربعينه أوخمسينه ، لـكى يلعب فى الوحل مع الصغار .

هكذا يرجع هذا البك الى مصر ، فيتحدث عن لنـدن . ويتحدث عن باريس ، ويتحدث عن برلين؛ وهو لايعرف الا بيكادلى، وهو لايعرف الا سان ميشل ومونمارتر ومنبرناس ، وهو لا يعرف الا بوتسدامر بلاتس وكور فرستندام .

هذا هو البك . .

أو الباشا الذي يذهب للاستشفاء . . .

مدرسة الدراسات الشرقية

لست أعرف السر فى اختيار هذا المكان لمعهد الدراسات الشرقية فى لندن . فى مورجيت ، فى قلب حى الستى ، حى البنوك .

ما أبعد الفرق بين الروح التى تسود هذا البناء ، والأبنية التى تحيط به من اليمين واليسار ! شركات البترول ، شركات التأمين ، والبنوك والمصارف !

الشرق مهد الفلسفة والأديان . ما أبعد المعهد الذى ينشأ للدراسات الخاصة به ، الدراسات الروحية ، من هذه الأبنية التى أنشئت لأجل المادة ، ولتقديس المادة ، والتى لا يعرف من يعيش وراء جدرانها سحر الشرق وروحيته ، بل انهم لا يذكرون عنه إلا أنه سوق جديدة للمواد الخام جديرة بالاستغلال ؟ والشرق لا يريد الا أن يكون شرقا ، يقدم المادة رخيصة بخسة لمن يطلبها من أبناء الغرب ، ولكنه يضن ويعتز بما هو أثمن من هذا جميعه . يعتز بأنه مهد الديانات مهد الفلسفة مهد الدراسات الروحية .

لهذا كان معهد الدراسات الشرقية فى لندن يتيما وحيدا بين شركات الستى وبنوكها وما أحراه أن يكون فى رتشموند الهادئة الصامتة ؛ أو شلسى ، الحى اللاتينى فى لندن !

...

ولمعهد الدراسات الشرقية فى نفسى ذكرى قوية ، بل ذكريات . فمنذ الدقائق

الأولى التى قضيتها فيه ، بذرت الحبات الباكرة لهـذه الذكريات التى تأصلت فى نفسى .

ومنذ الدرس الأول الذى تلقيته فى احـدى حجرات الطابق الثالث أو الرابع فى هذا البناء ، حيث القسم العربى ، بذرت كذلك الحبات الباكرة لفسائل أخرى نبتت زهوراً شرقية ! سرعان ما ينعت ، وسرعان ما ذوت ، ككل شىء فى الشرق .

. . .

يحييك الحاجب ذو الملابس الغامقة ويفتح لك الباب بل ويحنى رأسه ـ ولعل جو المعهد الشرقى التقليدى قد مزج بدمه هذا الاحترام ـ ومن ثم تسير كما سرت أنا إلى مكتب المعهد لتسأل وتستوضح .

عندما ذهبت لهذا المكتب لأول مرة أسأل وأستوضح ، لم أكتف ببيانات السيدة الموكل إليها هذا العمل ولم أرد إلا إلحاحا ، وكان بجانبي سيد فى عقده الخامس ، لم أر الا أن أشركه فى الاستيضاح والتفسير . ولم يخيب هـذا السيد ظنى فيبخل بالحديث ككل انجليزى .

قال هذا السيد انه لا يعرف شيئا عن الأجور ، ذلك لأنه « عالم » وقال هذه الأخيرة بعربية مفخمة ، أقرب إلى لهجة العراقيين .

وكان هذا السيد حقا ، لا يعرف شيئا عن شؤون المال ولا عن مسائل الأقساط والأجور . كان هذا السـيد المرحوم السير توماس أرنولد ، الذى كان أستاذا للغة العربية وتاريخ الاسلام فى جامعة لندن !

من الذي أتيحت له الفرصة ليعرف هذا الرجل العظيم ولا يحبه ، ولا يحفظ له كل ذكرى طيبة فى نفسه ؟ كان سير توماس أرنولد يعتز بالعربية كأنه أحد أبنائها ، كان محباً للشرق العربى كأنه مصرى أو سورى أو عراقى ، كان صادقا فى شعوره وكان صادقا فى أبحاثه ، نزيها لا يعرف الالتواء ولا الغرض .

بعد هذه المعرفة القصيرة بعام ، كنا فى حفلة ساهرة فى احدى فنادق لندن الفاخرة ولم يرد سير توماس ارنولد الا أن يعتز بأنه أستاذ اللغة العربية فى المعهد ، « لغة الملائكة » وقد قالها بلهجته المفخمة الرائعة ، التى دوت فى قاعة المحفل وقد أعقبتها عاصفة من التصفيق .

وكنا نحضر دروسه مرة فى كل أسبوع ، فى ذلك الطابق الثالث أو الرابع ؛ وكنا نفراً قليلا ، نجلس حوله ، فيتحدث إلينا ونتحدث اليه فى هدوء وبساطة . وكان معى مصرى آخر ، آنسة من طالبات التاريخ حينذاك ، وكان كلانا يحضر هذه الدروس بانتظام ، وكثيرا ما يقتصر الدرس على ثلاثتنا ، وكثيراً ما كان ذلك يحدو بأستاذنا الى أن يرجع بذاكرته الى أيامه فى القاهرة ، والى ذكريات الأزهر وحلقات الأزهر ، حين كان يرتاده فى عهد مضى . . .

. . .

وكثيراً ما كنت أقابل السير توماس ارنولد فى أروقة المعهد ، وكان يقف ليحييني بهز يدى ، ويتحدث إلى عن مصر وعن الشرق ، وفى كل مرة من هذه كان يذكر لى شيئا طريفا عن الشرق ، شيئا يستحسنه . كانت تعجبه حلقات الأزهر ، وكانت تعجبه طريقة الدراسة ، وكانت تعجبه الملابس الشرقية الفضفاضة ، وكان يقول لى انه يفضل أن يجلس القرفصاء عند القراءة ، وفى بيته فى لندن كثيرا مايجلس كذلك .

هكذا كان يفكر السير توماس ارنولد ، الذى قد مات ولم يقم أحد بشىء ما فى سبيل تقديره ؛ وقد دفن سير توماس ارنولد فى مكان ما فى لندن أو غير لندن ، ولا يكاد يعرف الذين يمرون بقبره شيئا كثيرا عنه ، واذا عرفوا فلا تستثير هذه المعرفة فى نفوسهم ذكريات قوية ، كما تستثيرنا .

ما أحرى أن يكون قبر سير توماس ارنولد بيننا ، لانه قد عاش للعرب وللعربية ، « لغة الملائكة » كما كان يلوكها بلهجته المفخمة الداوية ..

. . .

وكنا نحضر تاريخ الاسلام على أستاذ آخر ، ولم يكن أستاذا حين ذاك . كان مستر جب شخصية محبوبة ، ولعلها اكتسبت كثيرا من شخصية ذلك الرجل الراحل . وكان ممتلئا نشاطا وحركة وحيوية ، ومن كان يراه وهو يثب درجات سلم المعهد العديدة ـ ولا ينتظر المصعد ـ ما كان يظن أنه هو أستاذ اللغة العربية وتاريخ الاسلام وكنت أحضر وزميلتنا المصرية درسه مرة فى كل أسبوع ، وكان تلاميذه نفرا غير قليل . وكان درسه لا يخلو من الفكاهة ، ولا يخلو من الملاحظة الطريفة ، وكانت أبحاثه كثيرا ماتثير المناقشة والجدل شأن كل بحث علمى ، فاذا انتهت الساعة ، كثيرا ما كنا نقف حلقات حوله فى الردهة نستوضح ونتفاهم حتى نأتى على نهاية البحث .

وكنت فى تلك الأيام شاعرا ، أو على الأصح شعرورا ، كمكل شاب فائض العاطفة فى أوائل عقده الثالث ، وكان الأستاذ جب يقرأ لى هذا الشعر ، وكان ذلك الشعر يعجبه أو لعله كان يقول انه يعجبه .لذلك كثيرا ما كنا نجلس فى حجرته أو فى قاعة المكتبة الرحبة ، نتباحث فى الأدب العربى القديم والحديث . لذلك عرفته عن قرب ، فحملت له فى نفسى شيئا كثيرا .

. . .

وبعد تلك الأيام بسنين ، وقد قفلت الى لندن زائرا ، لم أرد الا أن أستعيد ذكريات معهد الدراسات الشرقية ، فكنت أسير فى الطريق الذي كنت أسير فيه مع ذلك الصديق القديم الذى جمعنا به ذلك المعهد ، وقد كنا فى تلك الأيام نقطع ذلك الطريق مرتين كل أسبوع .

ومع أننى أمقت السير فى طرقات الستى ، وبين البنوك والمصارف ، الا أن ذلك الطريق من محطة الترام الارضى الى المعهد قدقدسته ذكرى تلك الايام . فصرت

أقف حيث كنا نقف من قبل ، وصرت أطل على النوافذ التجارية التى كنا نطل عليها اذا ما سرنا سويا ، بل اننى ذهبت الى المطعم الذى قد ارتدناه مرة فى تلك الايام وجلست فى الركن نفسه الذى جلسنا فيه . . .

. . .

ما أعجب الذكرى فى النفس! الذكرى التى تصبح أقوى أثرا من الحقيقة نفسها! لعل تلك الأيام كانت أشهى من اليوم ، أو لعل الماضى المندثر أكثر عذوبة لأنه لن يرجع ولن يعود.

ولكن الحقيقة أن كل يوم يمر ،نقطع بعده مرحلة بعيدا عن الشباب، فتصبح تلك الفتاةسيدة بل وعجوزا، وذلك الفتى رجلا بل وشيخا هرما، لاتفيض صدورهما عاطفة كما كانت تفيض من قبل، ولم تعد تقودهما الأحلام الذهبية التى كانت تقودهما بالامس. والحياة ما هى الا تلك العاطفة، وتلك الأحلام ..

المكتبات القديمة

للكتب القديمة سحر خاص ، ولمحال الكتب القديمة جاذبية يعرفها من يعرف الطريق الى هذه المكاتب القديمة . هذه الجاذبية وذلك السحر تفتقده المكاتب المنسقة الزاهية بألوان الكتب الجديدة ، التى لاتحس نحوها بالحنين أو الاحترام الكافى . تشعر كأن هذه الكتب الجديدة غريبة فى الحياة ، لم تعرف بعد لها أصدقاء ، ولم تعركها الأيام كما عركت تلك الكتب التى قد تغبرت وهى مركونة فى رفوف هذه المكاتب القديمة .

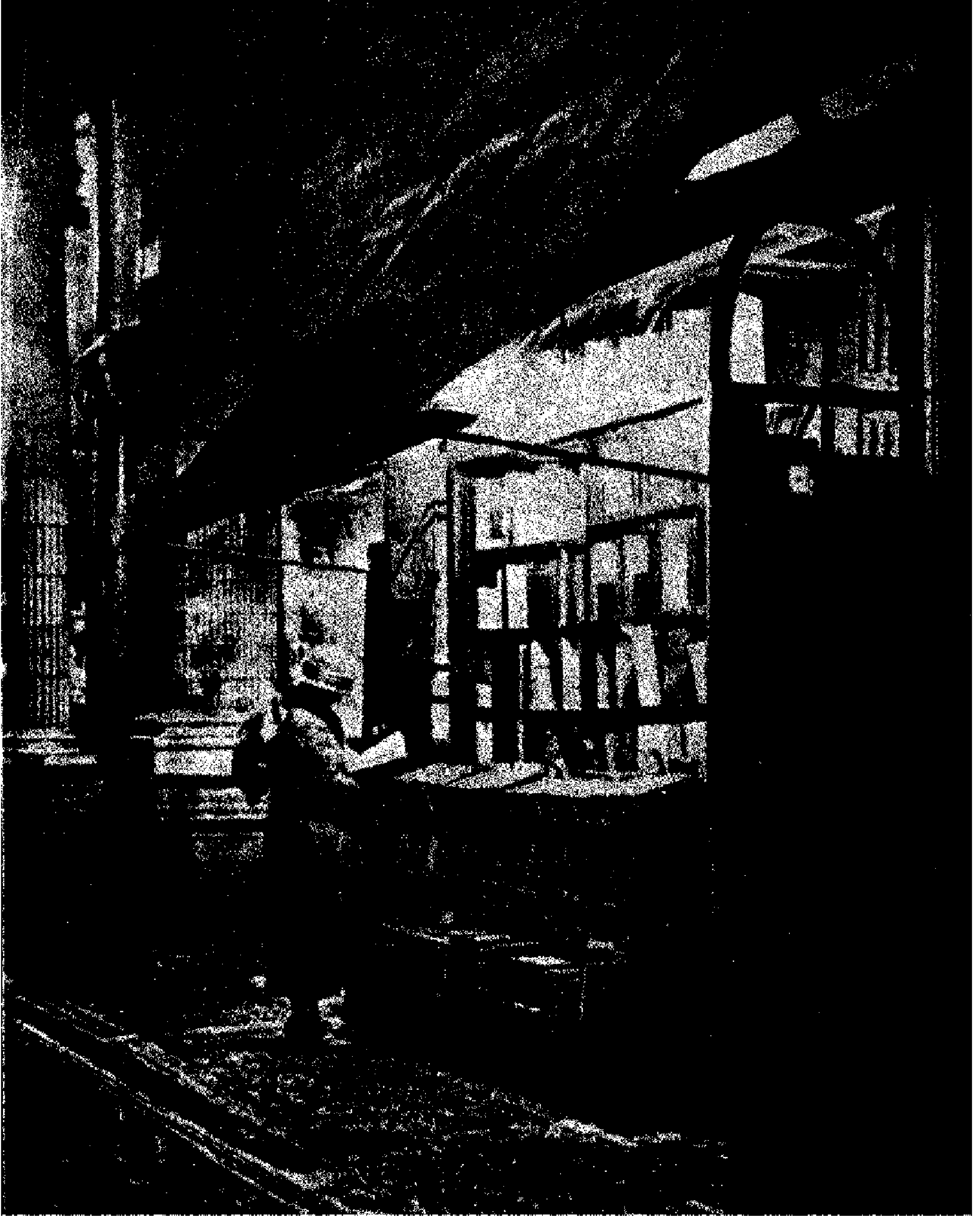
وللكتب القديمة فى لندن مكتبات عديدة . بعضها أعرق تاريخاً ، واقدم عهداً وأزهى بنفسه من المكتبات الجديدة . فى شارع اشيرنج كروس تجد هذه المكتبات متجاورة متلاصقة ، وفى فليت استريت تجد هذه المكتبات المتواضعة .

ولهذه المكتبات القديمة، أصدقاؤها وروادها ، ومن النادر أن تجد أصدقاء يزورون المكتبات الجديدة بانتظام كما تزار المكتبات القديمة.

وكثيرون من هؤلاء الرواد يترددون على هذه المكاتب دون أن يقصدوا كتاباً معيناً، بل انهم يدورون عليها دورة من حين الى حين يقلبون كل كتاب علهم يكتشفون مايروق لهم من بينها ، ولهذا الاكتشاف الفجائى لذته ، فهم كمنقبي الآثار ، يبحثون ولا يعرفون عما يبحثون .

وبعض هؤلاء الرواد يبحثون عن الكتب المفقودة ، الكتب التى تقع عرضاً فى

هذه المكتبات الأثرية والتى لا يعرف أصحابها قيمتها ، يبحثون بانتظام عن هـذه الـكنوز الخبيئة ، وقد يقطعون السنين وهم لا يكلون ولا يملون البحث ، وهم يقتنون



أثناء المطر تجد السيدة فرصة لاستعراض مجموعات الـكتب القديمة

عشرات من هـذه الـكتب الباهتة السقيمة ، يعللون أنفسهم بعشرات الآلاف من الجنيهات ثمناً لاحداها ، ولـكن قد تمضى السنون ، ولا يتعدى الرجاء الأمل :

. . .

لبعض هـذه المـكتبات اختصاص لاتتعداه ، ولأصحاب هذه المـكتبات معرفة وثيقة بما يجمعون فى مكتباتهم ولا يدعون مجالا لأولئك المنقبين عن الـكنوز الخبيئة ، وبعض أصحاب هذه المـكاتب فى اشيرنج كروس ، هم أنفسهم من هؤلاء المنقبين ، تجد الواحد من هؤلاء بنظارته المنحدرة على أنفه فى ركن من أركان مكتبته بين طبقات الـكتب وأكوامها ، يفحصها برفق وتؤدة ، ويقلب صحائفها ورقة ورقة ، كأنه يدرسها .

تدخل عليه ولا تكاد تراه وهو منهمك فى بحثه وفحصه ودراسته ، وهو لايكاد يشعر بدخولك ، ولا يندفع لسؤالك عما تطلب وعما تبحث عنه · بل هو يعرف هذه الرغبة فى نفوس زبائنه ، فهو لذلك يترك لهم المجال للفحص والاكتشاف ، وقد ينظر اليك اذا كنت غريبا تبدو عليك الحيرة ، ينظر اليك نظرة عميقة من فوق نظارته ، وقد يحييك ويرجع الى فحصه دون أن يرفع رأسه .

وهو له عين فاحصة فى فهم ميول زائريه ورغباتهم ؛ فتراه فى بعض الأحيان يسرع الى أحد هؤلاء ليدله على مجموعة وردت اليه حديثا ، أو طبعة نادرة لـكتاب معروف · وهو يعرف كذلك الزوار الذين يقضون فى أركان مكتبته المظلمة الساعات المتوالية يقلبون صحائف الـكتب القديمـة ، ويخرجون ولا يسألون حتى عن أثمانهـا . وبعض هؤلاء يترددون بانتظام فى طلب كتاب واحد أو مجموعة خاصة ، كأنهم يدمنون التفـكير فى أمر اقتنائه ·

والسيدات العجائز من زوار هذه المـكتبات القديمة ، يترددن عليها بانتظام ، وهن غير مرغوب فيهن ؛ لانهن يبددن سكون هذه الأركان الهـادئة بالاسئلة الـكثيرة

والملاحظات التى لا تنتهى ، والتى لا طائل تحتها .

يبدين اعجابهن علنا اذا اكتشفن شيئاً جديداً ، ولا يتورعن عن ابداء الامتعاض اذا اكتشفن سقما أو نقصا فى كتاب يبحثن عنه

. . .



أمام المكتبات المتلاصقة المتجاورة..

وفى اشيرنج كروس تعرض مجموعات الكتب القديمة أمام هذه المكتبات المتلاصقة المتجاورة ، حتى لا تكاد تعرف اين تبدأ الواحدة وتنتهى الاخرى ، فتنتقل بين هذه المكاتب وأنت لا تشعر .

وفى نوافذ بعض هذه المكتبات تعرض فى بعض الأحيان كتب أثرية نادرة ، ولاثارة دهشة السائرين الذين لا يعرفون عن عالم الكتب القديمة شيئاً ، يضعون عليها مئات الجنيهات ثمناً لها !

• • •

وفى مخازن بيع الأثاث القديم فى لندن ، نجد جانباً من الـكتب القديمة معروضة كذلك . ولـكن هذه الـكتب ليس لها الروعة وليس فيها السحر الذى لتلك التى تجدها فى مكاتب اشيرنج كروس وفليت استريت ؛ تشعر بأن هـذه الـكتب جزء من الأثاث ، تشعر بأنها بائسة بين المقاعد المـكسورة والقماطر المهشمة .

ولـكن جل هذه الـكتب ، من القصص والروايات التى لاشخصية لها ، لهذا لاترى من المنقبين فى هـذه الـكتب من رواد فليت استريت ، تجد أكثر هؤلاء المنقبين من الفتيات العاملات، أو من الشبان العاطلين، الذين يدفعون بنسات قليلة ثمناً لرواية ضخمة سقيمة الـكتابة .

أيام الثلج

فى كل شتاء ، ينخفض الترمومتر فى لندن دون الصفر ، حتى تتجمد المياه ويتساقط الثلج .

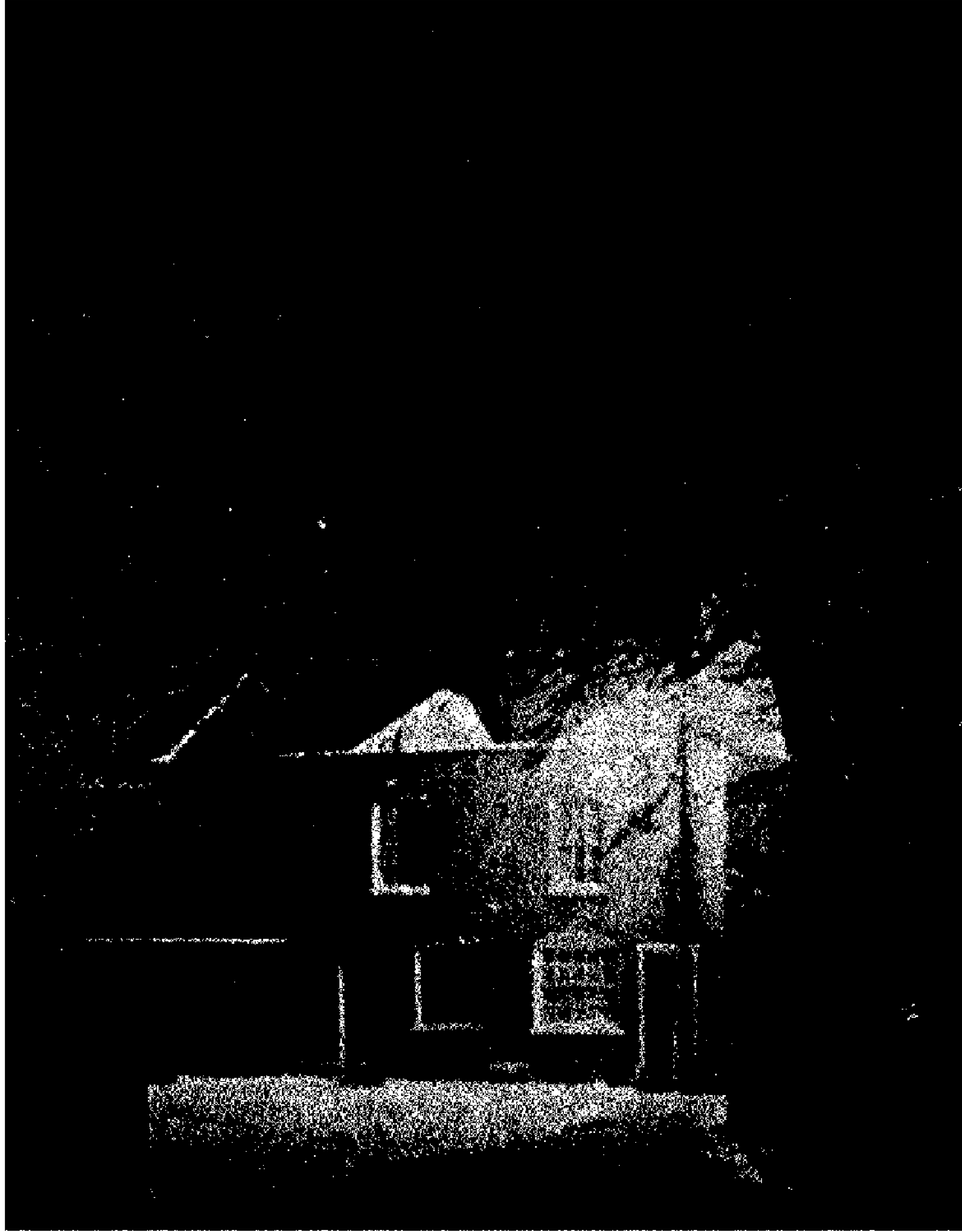
وفى كل مرة من هذه ، تسمع أهل لندن يقررون بأن أيام الشتاء هذه أشد ما عرفت لندن ، وتقرأ فى الصحف أن لندن لم تعرف هذا البرد منذ سنين ، وان كان الشتاء الذى قد سبق ، حدث فيه ما حدث فى هذا الشتاء !

وأيام الثلج محبوبة فى لندن ، فهى لذلك عزيزة نادرة ، حتى انها لتمر دون أن يشعر بها جميع أهل لندن . وتراك تسمع الأب ، وقد عاد الى بيته يذكر لزوجه كيف كان الصباح ناصع البياض ، وكيف كان الثلج جاثما على أشجار الحديقة . ولكن النهار وقد تقدم حتى أحاله الى قطرات ماء .

وأيام الثلج تشتهى فى أعياد الميلاد . وهى أمنية كل طفل ، أن يقضى عيد الميلاد لاعبا على الثلج . وتزين بطاقات العيد بهذا الثلج المتراكم ، ولكن أعياد الميلاد التى تحقق هذه الأمنية ، قليلة نادرة ، لذلك تراهم يتعللون بهذا الأمل ، لأن لأيام الثلج سحرها وجمالها ، ولندن فى أيام الثلج تستحيل بيضاء ، ككل شىء أبيض ؟ ! ويغطى الثلج قممها وبروجها السوداء ، ويغطى أشجارها التى قد نفضت كل شىء من عليها استعدادا لهذه الأيام القريرة .

...

وأول مرة رأيت فيها لندن مغمورة بالتلج ، كانت احدى ليالى عيد الميلاد.. وقد قطعت الليـل الى قرب منتصفه فى النادى المصرى ، لا أشعر بأن لنـدن قد استحالت الى مدينة مرا كشية بيضاء ، ولا أشعر أن لنـدن ساهرة راقصة وراء جدرانها ذات النوافذ التى تحجب الضوء .



ليالى الثلج فى لندن

خرجت فى الشوارع الرحبة المقفرة ، وكان البرد يتساقط كأنه القطن المتطاير من صانع الأثاث ، وكان يهبط على كل شيء ، وكان يهبط على كتفى وعلى معطفى . وكنت أشعر بزهو لذلك ، وكنت أشعر كأننى أريد أن أضحك مقهقها ، أو أريد أن ألعب ، شعور غريب !

وعندما ذهبت إلى البيت وقد انتصف الليل أو كاد ، كان الثلج قد استحال الى طبقات ينغرس فيها الحذاء بأكمله ، وأخذ أطفال لنـدن يحيون تلك الليلة البيضاء ، ويجمعون هذا البرد ، ويصنعون منه الـكرات يتقاذفون بها ، ويقذفون بها كل سائر لأنهم يريدون أن يلعبوا وأن يضحكوا مقهقهين ، كما كنت أشعر .

وما كدت أنعطف ، حتى أصابنى أول مقذوف من هذا الثلج المتـكور ، وما أن رفعت رأسى باحثا حتى كان آخر ؛ ولم ينفع النداء ولم ينفع الرجاء ، ولم يجد الا الهرب .

وهذا البرد المتراكم ، يستحيل بعد قليل الى ثلوج جامدة ، بعد أن كان هشا ناعما . ويتجمع الوحل فى طرقات لندن ، بعد أن كانت بيضاء نظيفة كأنها صحيفة من الورق . وتشتغل الفؤوس والمعاول فى تحطيم هذا الثلج المتجمع ، وتشتغل العربات فى حمله الى ظاهر لنـدن ، فتصبح شوارع لندن كأنها الفناء المهجور بعد أن فض العرس !

...

وأيام الشتاء التى يتجمد فيها الماء فى لنـدن ، ليس فيها السحر الذى لتلك التى يتساقط فيها البرد . وليس فيها من جمال الاان مياه السربنتين تتجمد ، فتصبح ملساء كالزجاج ، وتصبح ملاعب للمتسابقين بقباقيبهم ، وبعض هؤلاء يصرف الماء فى حديقة بيته فى الليلة القريرة ، لـكى تستحيل فى الصباح ملعبا للشبان على الثلج

والتيمز لايتجمد الانادراً ، لأن اندفاع الماء وكثرة الحركة المستمرة عليه ، لاتيسر هذه الاحالة ؛ ولو تجمدت مياه التيمز تحت أقدام البرلمان الانجليزى أو عنـد برج

لندن ، ما أظن انه يصبح متعة أو فتنة من الفتن ، لأن هـذه الأبنية ذات الرءوس المرفوعة الى السماء، لا تصبح يوما من الأيام، إطاراً جميلا لمرآة صقيلة، كمياه التيمز المتجمدة .

. . .

وفى البيوت يصبح الماء المتجمد خطراً داهما ، فهذا الماء السهل ، لا يتورع اذا ماقست عليه يد الطبيعة ، من كسر الأنابيب الحديدية التى حبس فيها .

الماء يكسر الحديد

ولكنه الماء المتجمد المحبوس .

الماء الذى قست عليه الطبيعة ، حتى غيرت من طبيعته

. . .

وفى هـذه الليالى التى يتساقط فيها البرد تصبح لندن وضاءة كأنها الليالى المقمرة فى الصحراء !

ولكن ما أبعد الفرق ؟

مآسى بيكادلى

تقدمت الىّ السيدة وسألتنى .

وقد كنت أسير فى شارع الريجنت تاركا بيكادلى ، ولم تكن الساعة العاشرة مساء. أما السيدة فكانت فى العقد الرابع أو الخامس أو بعد ذلك . جليلة المنظر ، تلبس نظارة ، لعلها للقراءة .

تقدمت الى السيدة وسألتنى :

ولكن لماذا لاأقول الحقيقة ؟ لماذا لاأقول انها تقدمت الىّ هذه السيدة الوقورة فى منظرها، وراودتنى ...

نعم راودتنى ، لأجل دريهمات قليلة . . .

. . .

جمدت فى مكانى وبهت . .

حاولت أن أرد بكلمة ، فحارت الالفاظ فى حلقى ..

نظرت اليها كالمذهول وفررت هاربا أسرع الخطى ، ولا أجسر على النظر الى الوراء، وسرت فى الطرقات المقطوعة المظلمة ، لأننى كنت حزينا مهموما ، لأننى كنت أبكى . . .

. . .

هذه السيدة ، كان يجب أن تكون فى هذه الساعة المتأخرة فى بيتها ، وليست

فى طرقات بيكادلى ، تحت رحمة السكارى وعين البوليس .

هذه السيدة كان يجب أن تكون بجانب زوج لها ، وحولها أكثر من طفل ، يقبلون يدها ؛ ويستعطفونها ويسألونها الدعاء . .

هذه السيدة كان يجب أن تملأ بابتساماتها قلب زوجها ، وهو فى عقده الخامس تملؤه حياة وقوة وبأسا .

ولكن أين هى الآن ؟

لا زوج ، ولا أطفال ، ولا بيت تأوى اليه ؟

أحلام لا أمل فى تحقيقها .

أحلام تعصر قلبها اذا ذكرتها الآن وقد تخطت الخمسين ؟

أحلام تثير نفسها حقدا وغضبا على الانسانية ؛ على الرجل ، وهى واقفة فى أركان بيكادلى تراود من هم أحفادها لأجل لقمة أو درهم . .

. . .

ماذا فعلت المدنية فى سبيل هذه الانسانية المعذبة . . . ؟

ماذا فعل الرجل لكى يقيل عثرة من كان سببا فى شقائها بأنانيته وحبه لذاته ؟

وماذا فعلت الفتاة لحماية نفسها من نفسها ، ومن الرجل الخاوى القلب ؟

وماذا فعلت المرأة فى سبيل هذه المرأة ؟

مشارب الشاى

تقاليد الشاى شيء موروث عندالانجليز . ومشارب الشاى فى لندن أندية اجتماعية أكثر منها مقاهى أو مطاعم .

والانجليزى لا يأكل شيئا إلا ويتجرع معه قدحا من الشاى ، وإذا جاء موعد الشاى تجرع قدحين وثلاثة وأربعة بل وخمسة أقداح .

وقد يمتدعقد الجلوس ساعة أوساعتين يحتسى فيها الشاى قليلا قليلا وهم يتحدثون واذا تقاعس أحدهم عن قدحه الخامس يقول له زميله « كن انجليزيا ولا ترفض قدحا من الشاي ! »

ولمشارب الشاى فى لندن شركات كبيرة كثيرة تديرها ، وبعض هذه الشركات تدير المئات من هذه المشارب . ولكل مشرب من هذه المشارب ذوقه وتقاليده ، وكنت كثير التراداد على هذه المشارب جميعاً ، فكنت أطلب القشدة وما إليها فى « الاكسبرس ديري » ، وكنت أطلب الحلوى من ذوات الثوب الارجوانى فى محلات A . B . C ، وكنت أطلب الشاي عند ليونس .

. . .

مشارب ليونس جزء متمم لحياة أهل لندن ، لأنها مشارب الشاى التى تطرقها جميع الطبقات ، فهى بنظامها وبالروح السائدة فيها تعطى لك صورة واضحة عن الحياة

الاجتماعية للشعب الانجليزي .

على مائدة الشاى ، يبحث الانجليزى مشاكله الخاصة والعامة ، وعلى مائدة الشاى يدرس ساستهم شؤون الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ؛ وعلى مائدة الشاى يفتح الانجليزى فاه ويخلع شيئاً عن جموده وانعزاله ؛ ثم على مائدة الشاى يحل شبانهم معضلات غرامهم ؛ ويبنون هياكل مستقبلهم ؛ وعليها يبرمون وعليها يقررون .

فمشارب الشاى ليونس العديدة التى تراها فى كل ركن فى لنـدن ، مجامع للدراسة ؛ والبحث ؛ وملتقى لصرعى الغرام .

لا أظن زواجا تم فى انجلترا ؛ ولم يعقدالطرفان احدى جلساتهما فى بعض مشارب الشاى ؛ فى احدى هذه المشارب القومية . .

...

رجعت الى لندن بعـد غياب سنين ؛ وكانت الساعة السادسة صباحا عندما وصلنا الى محطة "فـكتوريا ، والسادسة أو السابعة ساعة مبكرة فى لندن . خرجت من المحطة



عشرات من هذه المشارب فى لندن

أضرب فى الطرقات لأذكر ذلك العهد الذى عشت فيه فى لندن ، والأماكن التى

كثيراً ما كنت أطرقها ؛ وكنت قبل كل شيء أريد أن أتناول قدحا من الشاي في احدى هذه المشارب القومية ، لأن لهذا القدح من الشاي طعما خاصاً في فمي ؛ لا أستسيغه في مكان آخر .

كل مافي مشارب ليونس قد اعتدت رؤيته ، فألوان المقاعد والطاولات وزخرفة الجدران بل ومودة الفستان الأسود ذي الأزرار البيضاء اللامعة الذي تلبسه العاملات، واضح في ذاكرتي لا يتهوش .

وقائمة الطعام الصفراء ذات النقوش الخضراء والح. . ، بأصنافها العديدة التي تربو على المئة ، أذكرها الآن ، واعرف اثمانها ، ومكانها في القائمة .

بل انني خبرتها بنفسي ، طلبتها جميعاً بلا استثناء ، وعرفت منها الآن ما يصلح لأيام الحر والبرد ، وما يصلح اذاما أصبت ببرد أو زكام ، وما يناسب اذا كانت النزعة ملحة الى الاقتصاد .

لست أنا الذي ينفرد بذلك ؛ ولست أنا وحدي الذي يعرف قائمة ليونس بألوانها وأثمانها؛ولست أنا فقط الذي يحلو له أن يتناول الشاي أو الغذاء في هذه الأماكن. بل ان هنالك كثيرين مثلي كثيرين لا يبحثون فقط عن الشاي أو الغذاء ، بل عن الجو الانجليزي الذي يتناولون فيه الغذاء ويحتسون فيه الشاي.

عشرات من هذه المشارب البيضاء ذات النقوش الذهبية ، ميئتا مشرب منها في لندن وحدها.

كل منها صورة طبق الأخرى ، وكل ما فيها يدل على اناقة وذوق .

الجو الانجليزي الذي يجعل لمشارب الشاي هذه طابعاً خاصاً تشعر به إذا اعتدت الذهاب الى هذه المشارب ؛ وأرهفت الأذن الى ما يقال حولك ، وفتحت العين لما يدور بين يديك

الساعة الآن الخامسة أو السادسة · كل طاولة من عشرات الطاولات مشغولة ، ولا تـكاد تجد مقعداً خالياً . حركة دائمة من القادمين والخارجين ، ونشاط العاملات واضح فى حركاتهن وهن لا يدعن لك فرصة للنداء أو التصفيق ، فهن على رأسك اذا ما جلست ؛ وعيونهن فى ذلك لا تخطىء ، فهن كعمال الترام يعرفون من ركب أخيرا ولم يطلب التذكرة بعد !

واذا ما تأخرت العاملة لسبب من الأسباب ، هرعت اليك احـدى الملاحظات بفستانها الأسود أو الأزرق الداكن وبقلمها المترجرج على صدرها ، لتسمع طلبك أو شكواك .وفى كل صباح تلقى عليهن هؤلاء الملاحظات أوامر جديدة وتعليمات جديدة·

وعاملة ليونس ، مثال للنشاط والذوق والاناقة . هؤلاء العاملات يطلقون عليهن اسم « نپى » ويكدن يتشابهن فى كل شىء ، فقليل منهن من هى دميمة الوجه ، وقليل منهن من هى صلفة المعاملة ·

الابتسامة الحلوة الجميلة دائماً على وجهها ولو كانت فى حالة اعياء وتعب ؛ والملاحظات الطريفة الصائبة عن الأكل وعن غير الأكل لا تضن بها اذا سألتها عن شىء ما ! !

وفى هـذا الازدحام تراها تسرع الخطى تحمل عشرات الاطباق والملاعق والـكوبات وأباريق الشاى، وتسمع نقرات حذائها على أرض المطعم واضحة رنانة .

ولباس هؤلاء العاملات يدل على الاناقة وسلامة الذوق والبساطة · فالفستان من الحرير الأسود، ذو صفين رأسيين من الأزرار يبدآن من العنق ، ومريلة بيضاء منشاة لا تستعمل فى تنظيف أو غسل بل هى جزء من مودة الفستان ، ثم عصبة بيضاء منشاة حول الرأس ، أقرب شبها بلباس الممرضات .

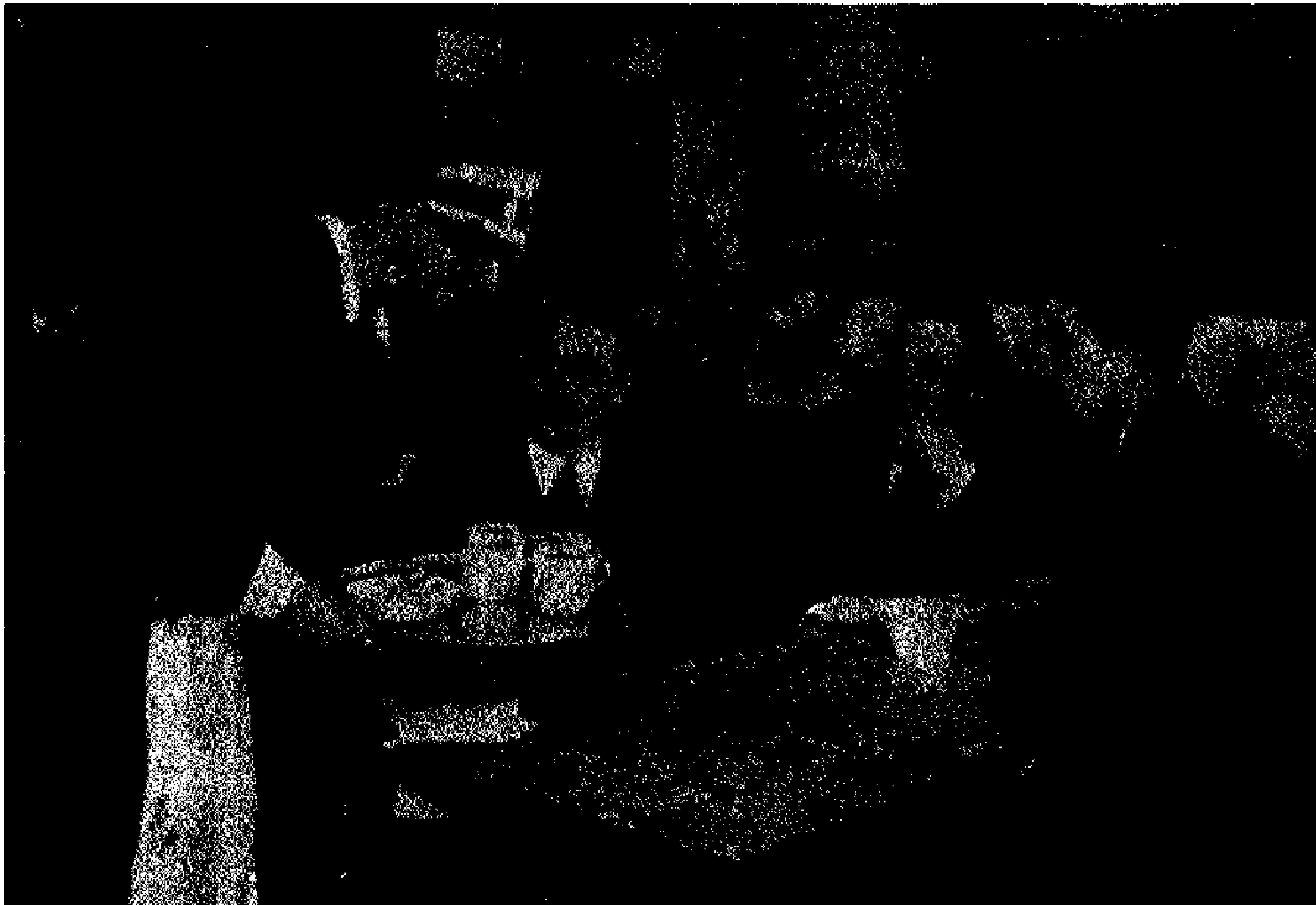
وهذه الاناقة فى الزى ، والمهارة فى العمل ، ليست من فعل الصدفة · بل انهؤلاء العاملات يقمن بـكل ما يحتجن اليه من زينة مجانا فى صالونات خاصة بهن وهذه

المهارة فى العمل قد اكتسبتها لا بالمران فقط بل بالتدريب الفنى فى مدرسة خاصة تديرها هذه الشركة .

...

ولما كان الكثير من رواد هذه المطاعم من رجال الأعمال الذين لا يقضون أكثر من ساعة فى الغداء ومثلها للشاى ، لهذا كانت السرعة فى تقديم الطلبات ضرورية ولازمة ، ولعلها السبب فى نجاح هذه المشارب وانتشارها .

الزبون المستعجل لا ينتظر ولا يريد أن يضايق نفسه بدق الجرس أو بالنداء على الخادم فى المطعم ؛ فهو يفضل أن يتناول قدحاً من القهوة أو شيئا من الساندوتش عن أن يجلس فى مطعم ويرقب بصبر هروع الخادم اليه ليسأله عن طلبه ، ثم ليرقب تنفيذ هذا الطلب بعد ربع ساعة أو يزيد .



والملاحظات الطريفة لا تضن بها اذا سألتها عن شيء ما ..

• • •

فى ساعات خاصة من النهار ، بين الظهر والساعة الثانية ، ثم بين الرابعة والسادسة ، لا تكاد تجد مكانا خالياً ، ولكن الجالسين لا يلبثون طويلا ، فسرعان ما تراهم ينتهون من طعامهم فى أقل من نصف ساعة ليحل غيرهم محلهم .

وهذه الساعة الواحدة التى تمنح للغداء لا تكفى الموظف أو العامل أو المستخدم فى مصر . لأن ساعة الطعام فى مصر لا تقل أهميــة عن ساعة العمل . فاذا ما انتهى من الطعام ، صارت رجلاه لا تقوى على رفعه ، وأخذ يتثاءب ويحط على أكتافه الكسل والنوم .

أما فى انجلترا فطعام الغداء ليس أساسيا لأن اليوم لا ينتهى بانتهاء الغداء بل يمتد الى مابعد تناول الشاى . لهذا كان طعام الغداء خفيفا سهلا ، يقوى على العمل ولا يعرقل سيره .

كثير من هؤلاء ـ لاسيما الفتيات العاملات ـ يطلبون قدحا من الشاى أو القهوه ، وشيئا من اللحم البــارد أو السمك والبطاطس المسلوق ، أو قطعة من الخبز والزبد والجبن ؛ ثم تفاحة أو برتقالة . ثم يشعل الرجل الغليون ، أو الفتاة السيجارة ! وبعد دقيقة يكون صاحبنا أو صاحبتنا فى الطريق الى العمل .

ولاجل هذا كانت السرعة أساسية فى هذه المطاعم والمشارب ، لاسيما فى ساعة الغداء فلا تجلس حتى ترى العاملة على رأسك تسألك بأدب عما تطلبه ، ولا تكاد تمضى دقيقة حتى تبدأ بتناول طعامك أو بعضه على الأقل . .

وليس كل مطعم من هــذه المطاعم يطهى جميع طعامه مستقلا ، بل ان كثيرا منها يرســل لها جانب من هــذه الأطعمة محضرا من المركز الرئيسى للشركة . لهذا كان ما تأكله فى أى مطعم من هذه المطاعم سواء ، فلا ينفرد واحد منها بشىء عن غيره .

وفى كل مطعم عاملات مختصات بتجهيز نوع خاص من الطعام ، هـذه للشاى والقهوة ، وهذه للسلطات ، وأخرى للمثلجات ، وهكذا .

وتحفظ هـذه الأطعمة بأطباقها فى صناديق من المعدن الساخن ، وعلى باب كل صندوق اسم الطعام ، فليس على العاملة إلا أن تفتح الصندوق الخاص وتخرج الطبق المطلوب جاهزاً ساخناً .

وهـذه السرعة قد تؤدى فى كثير من الأحيان الى تـكسير الـكثير من الآنية الزجاجية والخزفية التى تستعمل فى هذه المطاعم ، فمن حين لآخر تسمع فرقعة سقوط شىء منها على الأرض ، ولـكنك لاترى العاملة تقف تندب حظها فوق ما كسرته بل تسرع الى اختيارغيرها ، وعلى غيرها جمع هذه الآنية المـكسورة . فالعاملة لايخصم منها ثمن ماتكسره ، لأن السرعة التى هى شرط من شروط هذه المطاعم قد تجر الى شىء من الاهمال ، الاهمال الذى لابد منه وليس الاهمال المقصود .

وليست العاملة فقط هى التى لاتدفع ثمن ماتتلفه من أدوات فى هذه المشارب بل ان «الزبون» فى هذه المطاعم لايغرم اذا حدث وكسر طبقا أو قدحا . هنا تتحلى الروح الانجليزية ،روح الثقة بكل فرد من أفراد الشعب ، لان من المفروض أن يحافظ كل فرد على مالغيره ، لابدفع الغرامات ولـكن باشعاره هذا الواجب .

وما أبعد هـذه الروح وتلك التى تراها فى فرنسا ! وقد كتب على كل طبق من أطباق القهوة ثمنه ، فاذا حدث وكسر « الزبون » احدى هذه الأطباق دفع هذا الثمن المدون عليها بلا شرح ولا كلام .

أما فى مصر فسوء النية متوفر ، فاذاحدث وكسرت شيئا من هذه الأدوات ، فأنت مع استعدادك لدفع ثمن ماأتلفت ، قد لاتسلم من كلمة تقريع أو توبيخ من صاحب المطعم أو المشرب أو من خادمه ، وفى كثير من الأحيان تدفع الثمن مضاعفا .

وكما ان فى فرنسا تترك أطباق الخبز والـكرواسا ، والجاتو على الطاولات ، فان

أطباق السكر تترك فى مشارب الشاى فى انجلترا مع الملاحات وزجاجات الخردل والخل ونحوها .

ولو ادخلت هذه الطريقة فى مصر ، لاستهلكت المقاهى أضعاف ماتستهلكه من مقادير السكر . لالكثرة الزبائن ، بل لميلهم الى قرقشة السكر أثناء الساعات الطويلة التى يجلسونها بعد طلب فنجان القهوة المعلوم . .

...

ووفود الشاى يحضرون جماعات جماعات ، ويقضون وقتاً أطول من زبائن الغداء العجلين . ولو أن النشاط والحركة لا تهدأ فى ساعات الشاى الا أنك تجد من يقضى الساعة وهو يتناول قدح الشاى أو قطعة الكيك ويتحدث مع جاره ويدخن سيجارته أو يقرأ الصحيفة التى معه .

وكثير من هؤلاء الوافدين يحضرون من بيوتهم ، أو بعد انتهائهم من حيث يعملون لتناول الشاى . لهذا تجد هؤلاء الداخلين على ألوان مختلفة ؛ فعلى هذه الطاولة تجد رجلا وزوجته وطفله ، وعلى أخرى فتاتين تعملان سويا ، وبجانبهما شاب وصديقته ، أو ضعف هذه النسبة ، ثم على طاولة أخرى زوجين فى متأخر العمر يطلبان شيئا من السلوى فى مثل هذه المشارب الغاصة بكل الطبقات .

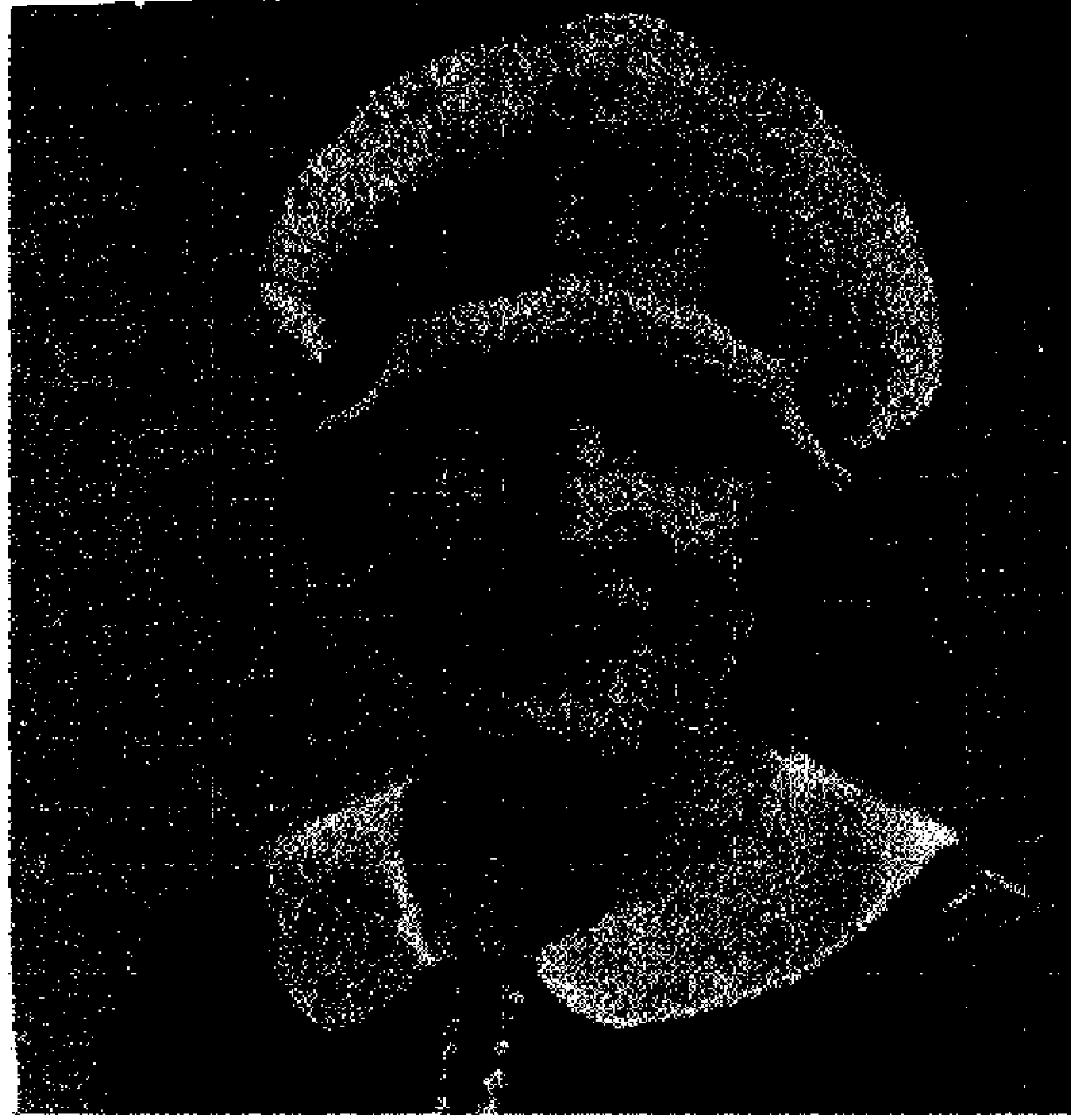
والغريب يجد بدوره شيئا من التسلية فى هذه المشارب . بملاحظة مايدور حوله ، أوبالدخول فى حديث مع جاره أو جارته ؛ الامر الذى يكون مستحيلا فى غير مشارب الشاى

...

إن لمشارب الشاى هذه ، لمن عاش فى لندن وحيدا أو عاش فيها طالبا ، ذكريات

لا تضيع . فقد كانت هذه المشارب مجالسهم ومطاعمهم وأنديتهم ، وفيها كانوا يبرمون أمورهم، وفيها كانوا يجدون السلوى فى وحدتهم . .

ولمشارب الشاى هذه فى نفسى كل هذا الأثر ، وكثير ...



رنبى شخصية ممتازة فى مشارب لندن

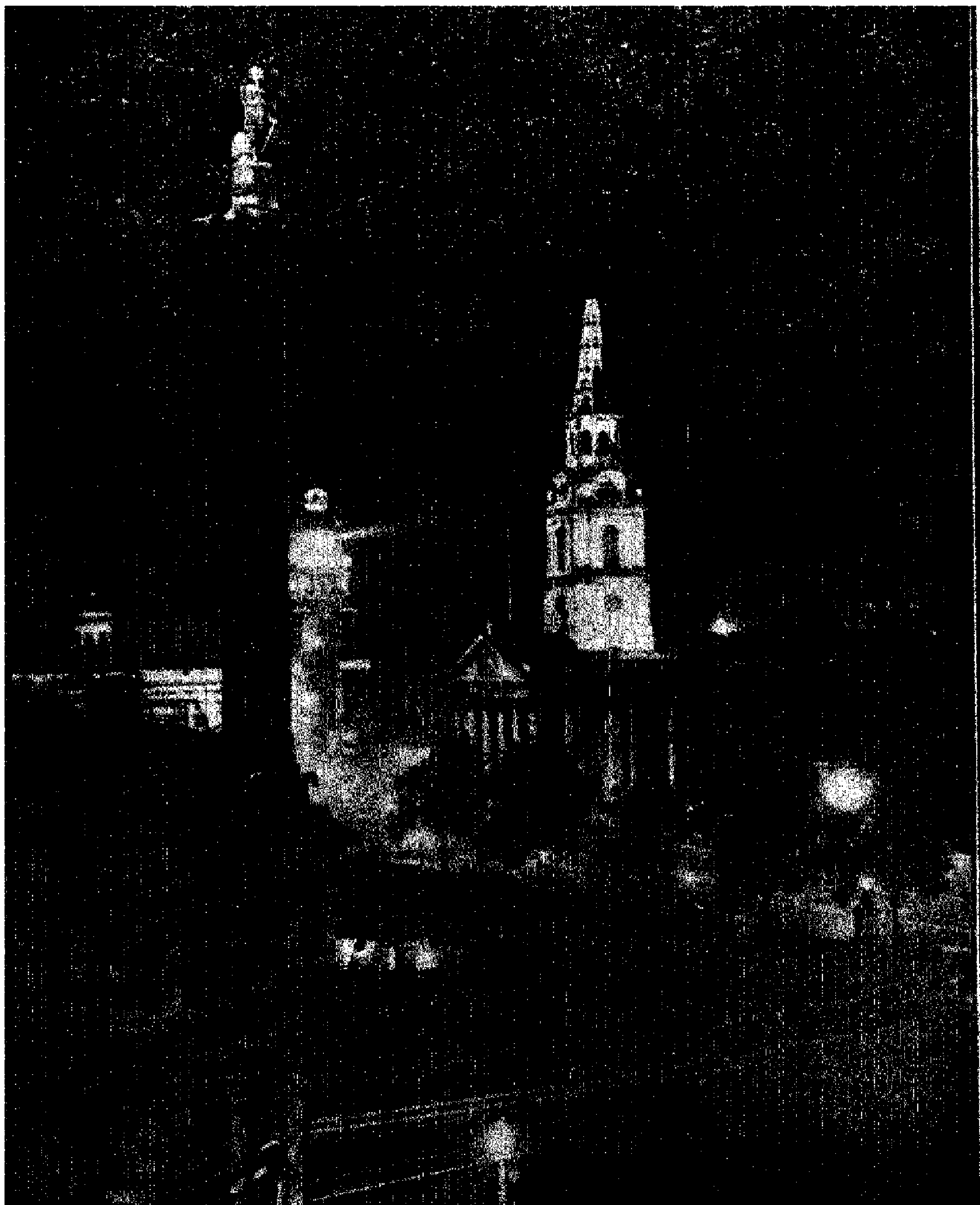
المتاحف والمعارض

بين متاحف لندن العديدة ، لابد وأن يجد الزائر شيئا طريفا فريدا . عشرات من هذه المتاحف والمعارض فى لندن ، معارض منزوية لا يكاد يشعر بوجودها إلا الذين يذهبون إليها قصدا ، ومتاحف تدل بفخامتها وبأبنيتها السوداء المرتفعة ، على الجهود وعلى المال الذي بذل فى جمع معروضاتها من كل ركن من أركان الأرض .

وفى سوث كنزجتن تجد الكثير من هذه المتاحف والمعارض ، حتى صارت سوث كنزجتن أشبه بالحى الفنى فى لندن ، وصار الجو الذى يسود شوارعها الواسعة ذات الأبنية الصامتة، بسكونه وهدوئه أشبه بقاعات المتاحف نفسها التى لاتكاد تسمع فيها صوتا أو لغواً أو حركة .

والوجوه التى تشاهدها فى سوث كنزجتن تراها كلما زرت هذا الحى . وجوه الأساتذة والطلاب وهم فى طريقهم الى الجامعة أو الى احدى كلياتها ، طلبة الفنون الجميلة وهم فى الطريق الى معهد الفنون الملكى ، جماعات الأطفال بقبعاتهم وشاراتهم المدرسية يسيرون صفوفا صفوفا يرافقهم معلموهم وهم فى طريقهم الى احدى متاحف سوث كنزجتن العديدة ؛ الى متحف التاريخ الطبيعى ، الى المتحف الامبراطورى ، الى متحف العلوم ، الى المتحف الهندى ، الى متحف الحرب .

ومتاحف لندن أكثر من هذا . فالمتحف البريطانى الذى هو بمثابة متحف للمتاحف فى رسل اسكوير ، حى آخر فى لندن له شخصيته وله جوه . ومعارض



والمعرض الاهلى فى ميدان ترافلجار يطل على عمود نلسن ...

التصوير مبعثرة ، فالمعرض الأهلي في ميدان ترافلجار يطل على عمود نلسن ، ومعرض التيت بعيد عن كل هذا ، هناك على التيمز ، بعيد عن البرلمان الانجليزى ، فى مكان منعزل لا تصل اليه إلا بعد السير الطويل .

. . .

وفى متحف الحرب ، تجد شيئا جديدا . ليس هو متحفا ككل المتاحف التى تسئمك بمعروضاتها المتكررة ، التى لا تنجذب اليهاالا بعد أن تقرأ دليل المتحف .

ملأت الحرب العظمى هذا المتحف بالطريف الجديد ؛ تتقدم الى قاعة المتحف فيقابلك فوج من أطفال المدارس ، لابل فوجان فوج داخل وفوج خارج . ذكريات الحرب العظمى لابد وأن تغرس فى نفس كل طفل انجليزى ، والحرب لابد منها اذا كان لابد من المستعمرات ولا بد من الامبراطورية .

صفوف طويلة من معدات الحرب ، مدافع ضخمة تمتد فوهاتها أمتارا عديدة ، هذا كان يستعمل فى بلجيكا، ذاك فى فرنسا، هذه مدافع كانت تحملها المدرعات والغواصات ثم صفوف البنادق التى لاتنتهى

وعلى الجانبين نماذج للغواصات والمدرعات والمدمرات وللطربيد ، وقطاعات من هذه جميعها لتوضيح طريقة عملها وكيفية استخدامها .

وفى ركن من هذه القاعة ، يقف الزائر المصرى متمهلا ، أمام معروضات كتبت بالعربية « الطريق الى القدس الشريف » « حارة كذا » « الضبطية » ومعروضات أخرى بالتركية . هذه الآثار من فلسطين ، قدمها الجيش الفاتح !

وفى النافذة الزجاجية يلمح الزائر قطعة من القماش الأسمر الخام مما يستعمله الفلاحون، كتب عليها بالحبر العادى وبخط عربى ملوث بالمداد « حاكم القدس الشريف . . » وبجانب هذه القطعة من القماش الأسمر ، صورة فوتغرافية تقص لنا قصتها .

هذه القطعة من القماش الاسمر الملوث بالمداد ،كانت راية السلام والأمان وقد حملها

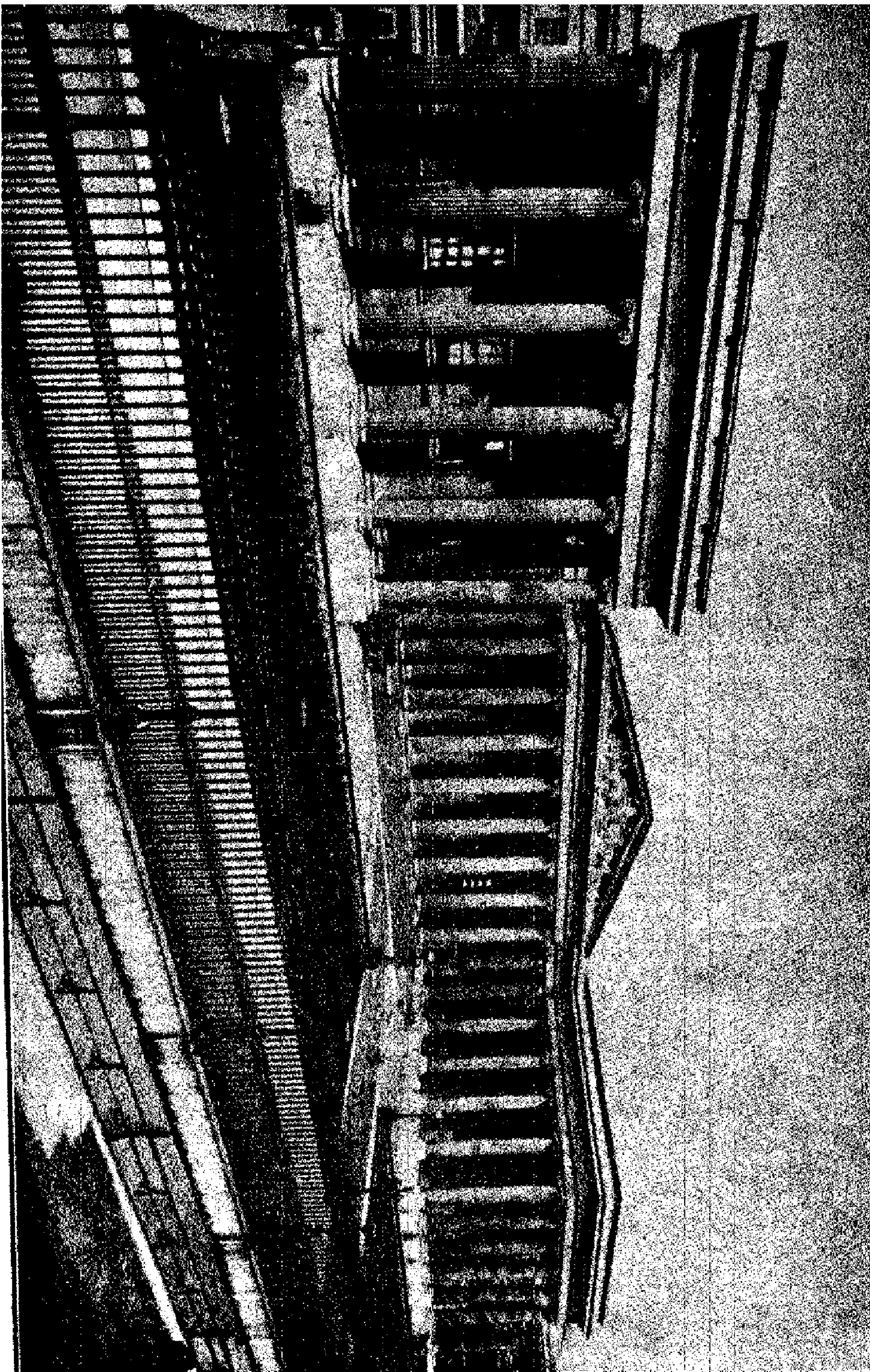
الحاكم التركى للقدس مع طائفة من زمرته رمز التسليم للفاتح الانجليزى ، فبذلك أسدل للستار على فصل من رواية لاتنتهى أدوارها ، بدأت منذ كان صلاح الدين يصول ويجول فى هذه السهول المقفرة المجدبة منذ قرون ، بل قبل ذلك .

وفى اطار من زجاج ، منجل حصاد كتبت تحته قصيدة عربية بماء الذهب ؟ هذا المنجل كما يقول الشاعر العربى ، حربة من الحراب الألمانية ، وجدها فلاح فلسطينى فصنعها منجلا يحصد الدريس بعد النفوس ! هكذا يتقرب هذا الكاتب الى سادته الجدد ، وينسى أنه فلسطينى عربى .

تترك هذه القاعة الى اليمين حيث النماذج العديدة للجنود الذين اشتركوا فى الحرب العظمى ، نماذج للابسهم العسكرية ولأزيائهم على ممر العصور . وعلى جدران القاعة ثبتت كثير من الأعلام والرايات ، التى اغتصبت من الجيوش الألمانية وغيرها . ثم اذا ارتقيت الدرج الى الطابق الأعلى تستقبلك صورة تعرف صاحبها ؛ تعرف هندمبرج بملابسه المرشالية وبشواربه المفتولة . وفى أسفل هذه الصورة مقعد ألصقت عليه ورقة كتب عليها ، ان هذا المقعد كان يجلس عليه صاحب هذه الصورة ، بين أركان حربه ، يدير دفة جيوشه ، كأنه اللاعب بقطع الشطرنج ، يرسلها الى الموت أو الى النصر والظفر .

وفى هذا الطابق عشرات من هذه الصور ، الصور الزيتية والمائية التى تحتل كل مكان فى جدران هذه القاعات ، هذه الصور التى تمثل الحرب العظمى فى كل أدوارها ؛ تمثل الجنود فى الخنادق ، تمثل مستنقعات الفلاندرز وقد طفت عليها أجساد الموتى ، تمثل المهاجرين فى روسيا وبلجيكا يحملون أولادهم ويهجرون مرضاهم ، يبغون موئلا من النار والدمار .

واذا انحدرت الى الباب ، تمر بمقطوعات من الصحف الانجليزية ، وتقرأ تاريخها « ١٤ يوليو سنة ١٩١٤ » وتقرأ العنوان الضخم التى كتب على رأسها « المانيا تعلن



المتحف البريطاني

الحرب» هذا أول فصل من القصة ، القصة التى هزت العالم ، القصة التى لا ندري ماختامها ؟ القصة التى من أجلها شيد متحف الحرب الامبراطورى فى سوث كنزجتن !

...

واذا خرجت من متحف الحرب ، وسرت إلى نهاية البناء ذى الأبراج المرتفعة ـ جامعة لندن ـ تمر على المتحف الامبراطورى والمتحف الهندى .

تدور دورة فى هذين المتحفين ، لتستعرض ما جمع فيهما من آثار ومن نماذج لمنتجات المستعمرات الانجليزية . وتمر على مكتب الاستعلامات فى هذا المتحف ، وترى الشاب الانجليزى يخرج محملا بالمذكرات والاعلانات الخاصة بأوغندا ونيجيريا بعد أن شاهد ثرواتها وحاصلاتها ، وبعد أن رأى الصور الجذابة عن الحياة فيها ، ترى هذا الشاب يخرج من المتحف الامبراطورى لا كما أخرج أنا ، بل برأس ممتلىء آمالا يخرج ليفكر كيف يترك لندن العظيمة ذات الثلج والضباب ، ليعيش فى قلب غابات افريقية ، ليعيش مع الزنوج ويشاركهم فى عششهم وأكواخهم، ولكن لكى يثبت العلم البريطانى فى تلك الاصقاع !

...

وفى طريقك إلى محطة الترام الأرضى ، تمر على متحف العلوم ، كما تمر على متحف التاريخ الطبيعى .

وفى متحف العلوم ، تجد غير ما وجدت فى المتاحف التى زرتها . ترى المدنية الانسانية فى درجاتها ، ترى كيف كان يعمل العقل الانسانى وكيف يعمل الآن ، وكيف يجاهد العلماء وهم فى معاملهم وفى حجرات دراستهم ، للكشف والابتكار ، كيف يعملون لينقلوا النوع الانسانى بأسره من طور الى طور ومن حياة الى حياة .

ولكن هؤلاء العلماء قد يضلون الطريق !

هذه النماذج من البالونات والطيارات التي تشاهدها في متحف العلوم ، قد فكر العلماء في أمرها لأنهم يريدون أن يتسيطروا على الهواء ، ولكنك اذا تدرجت من تلك القديمة التي صنعت من الخشب والقماش، مستعرضا تاريخها، وصلت الى تلك التي جهزت بالمفرقعات والمدافع الرشاشة التي فكر العلماء فيها ، ليتسيطر الانسان على الانسان !

وفي هذا المتحف تستعرض حياة كل شيء منذ ميلادها الأول إلى أن وقفت على قدميها ، تستعرض الدراجات ، السيارات ، القطار الحديدي ، الترام ، المدافع ، الالآت البخارية ، أجهزة الكهرباء . تستعرض الصناعات وتطورها ، المصانع والمعامل ، تستعرض تحت عين المجهر كيف اكتشف العلماء عالما كان خفيا عن العيون والأبصار!

وفي متحف التاريخ الطبعي ، ذي البناء الذي كأن نارا شبت فيه ، وذي الحديقة الواسعة الرحيبة ، تشاهد الحياة والأحياء متمثلة في النماذج المصنوعة والمحنطة والمحفوظة للحيوانات ، والحشرات ، وللزهور وللنبات ، ولكنها صور ليس الا ، حفظتها يد الانسان من البلى والفناء ، لهذا كان جمالها مستعارا وكان ابداعها مصطنعا ، بل انها لتذكر الزائر بنهاية الحياة لا بها ، وبالموتى لا بالاحياء .

...

وتترك سوث كنزجتن : متاحفها ومعارضها الى ميدان ترافلجار حيث المعرض الوطني للصور ، ومن ثم الى وستمنستر حيث معرض التيت .

وما أشبه معرض التيت هذا بمعرض لكسمبور في باريس ، يزهو بمعروضاته الحديثة القليلة على معرض اللوفر الهائل ، وهكذا يزهو معرض التيت في لندن على المعرض الوطني ، الذي يحوي نيفا وثلاثة آلاف قطعة فنية ، تمثل كل مدرسة أوربية ، لا سيما مدارس الفن الايطالي والهولندي .

أما معرض التيت فيمثل المدارس الحديثة ؛ لذلك كانت قاعاته زاهية بهذه المعروضات الحديثة ، التي ولا شك تستهوى عين الزائر الذى يقدر الفن بذوقه لا بحكم عمله ومهنته ·

· · ·

نترك معارض التصوير هذه ، ونشد الرحال الى رسل اسكوير حيث المتحف البريطانى العتيد · بناء هذا المتحف الذي يشبه المعابد الرومانية أو المصرية لا أدرى ، تحفة فنية فى حد ذاتها ، تشعر بذلك وأنت ترتقى درجاته العريضة .

ورسل اسكوير ، حى له شخصيته فى لندن · لا يزهو بأبنيته الفاخرة ، ولكن بالجو الذى يسود هذه الأبنية المتواضعة المتلاصقة . ·

أكثر الجمعيات العلمية الانجليزية من نزلاء هذا الحى ، وأكثر الروابط والجمعيات الاجنبية لا تخرج بعيدا عن هذا الحى. وهذا الحى يزهو بنوع حاص من المكتبات؛ المكتبات الخاصة التى تجمع الكتب التاريخية والشرقية ، الصينية واليابانية والعربية والفارسية ، وفى هذا الحى ، وحول المتحف البريطانى تجد تلك المكتبات التى تجمع المخطوطات والكتب النادرة ، والتحف الفنية ، والآثار . وفى هذا الحى تجد الكثير من مراكز النشر والطباعة الانجليزية · كل هذا تجده فى حى رسل اسكوير ، وأنت فى طريقك الى المتحف البريطانى ·

ليس المتحف البريطانى متحفا للآثار الانجليزية أو غير الانجليزية ، بل هو متحف للمتاحف . هو متحف للكتب ، متحف للآثار المصرية واليونانية والرومانية ، متحف للخزف ، متحف للمخطوطات الأثرية ، متحف للفن القديم ، متحف لعلم حضارات الانسان .

تعتلى الدرجات العريضة ، وتخترق البهو الخارجى إلى القاعة الأمامية التى كتب عليها « القراء فقط » هذه هى مكتبة المتحف البريطانى الشهيرة ، التى تعد أفخم وأوسع مكتبات العالم .

قاعة دائرة الشكل ، صفت مقاعدها حلقات حلقات متداخلة تضيق الى المركز حيث مكتب الموكل اليهم أمر العمل فيها . وفى الحلقة الخارجية ، فهرس المكتبة الذى يتكون من ألف مجلد ، وعلى رفوفها عشرون ألفا من المراجع التى قد يحتاج اليها القراء ، وهم يبلغون فى العام نحو ثلاثة أرباع مليون قارىء وقارئة . وبالقاعة خمسمائة مقعد لهم .

وفى مكتبة المتحف البريطانى أربعة ملايين كتاب بكل لغة ، تزداد بمعدل خمسين ألفا كل عام ، وتحتل خمسين ميلا من الأرفف ! وليست هذه القاعة الدائرة هى كل ما فى المتحف البريطانى ؛ بل انك اذا ارتقيت الدرجات الى الطابق الأعلى حيث قاعات الكتب الأثرية وجدت الكثير من المخطوطات والكتب النادرة كالماجنا كارتا وكالطبعة الأولى لمؤلفات شكسبير وملتن ، ثم قاعة الرسائل التاريخية حيث تعرض مخطوطات ورسائل كثيرة للعظماء كيوميات نلسن فى موقعة الطرف الأغر وغيرها

. . .

والقسم المصرى فى المتحف يحتل عددا من القاعات ، بها الكثير من الآثار المصرية ومن المومياء وغيرها . وبين هذه المعروضات يقف الزائر المصرى أمام لوحة من الحجر الأبيض ، لوحة عادية ولكن لعلها أثمن ما فى هذا المعرض . هذا هو حجر رشيد الذى كان مفتاح اللغة الهيروغليفية . الحجر الذى كتب بثلاث لغات ، فكشف بذلك الغطاء عن سر التاريخ والحضارة المصرية القديمة .

يثير مرأى هذا الأثر فى نفس الزائر المصرى حسرة ، كما يثيره مرأى تمثال الملكة نيفرتيتى اذا ما زار معرض برلين . هذه التحف المصرية النادرة ، ما أحراها أن تكون فى الأرض التى أخرجتها ، ما أحراها أن تكون فى قصر النيل ، فى متحف الآثار المصرية !

ومن ثم تزور الأقسام الاغريقية والرومانية بتماثيلها الرخامية والمرمرية ، وتمر على معروضات الخزف ، وترتقى الدرج حيث بقية المعروضات المصرية ، لتزور متحف الحفريات وتاريخ الانسان .

وكنت أرتاد هذا المتحف شهورا طويلة ، وقد كنا ندرس علم حضارات الانسان بين المعروضات التى استقدمت من بلاد الاسكيمو وغابات الكنغو وسهول استراليا · معروضات تمثل الحياة الفطرية للانسان .

. . .

تخرج من المتحف البريطانى ، وقد استعرضت العالم ، شعوبه وأممه ، وقد استعرضت الحياة الانسانية عصرا عصرا ، وقد استعرضت منتجات العقل البشرى ممثلة على الحجر ، وعلى الخزف ، وعلى الورق ·

وهذا كل مالدى الانسان ، لتخليد حياة نوعه على الأرض !

قبر الجندى المجهول

السائر فى شارع هوايت هول يقف قليلاً ويرفع قبعته ، إذا ماتخطى النصب الأبيض المتواضع ·



والغريب قد يمر على هذا النصب ، دون أن يقف مستمهلاً بل دون أن يرفع رأسه محيياً ، وقد لايظن أن هذا النصب الأبيض المتواضع ، يحمل سراً هائلا ؛ وقد لايظن أن هذا النصب الأبيض العارى ، ماهو إلا قبر الجندي المجهول البريطانى .

ليس هذا النصب التذكارى تمثالا فاخراً هائلا تتضائل إذا ماوقفت فى ظله· لا ؛ انه لاشيء اذا قارناه بتمثال نلسن الذي يطل عليه من ميدان ترافلجار حيث ينتهى شارع هوايت هول .

أشبه شيء بقاعدة مسلة مصرية ، مسلة لم تكمل ، بسيط فى فنه وذوقه

الى أقصي حدود البساطة . ولـكن أهل لنـدن لم يرغبوا عن هذا النصب المتواضع ، الذى أقيم حيث هو فى يوليو سنة ١٩١٩ الى أجل ، الى أن يفـكر الفنانون ملياً فى تخليد ذكرى آلاف ممن قبروا فى سهول الفلاندرز والدردنيل . وهكذا أعيدت اقامة هذا لنصب المتواضع ، اذ لم يرض أهل لندن عنه بديلا !

ولـكن قبر الجندى المجهول لايحتاج الى عمود هائل كعمود نلسن ، ولا كقوس فاخر كقوس ولنجتن لتخليد ذكرى أولئك الآلاف من الشباب ، الذين حصدوا ولم تتفتح أكمام زهورهم بعد .

تتلاشى كل عظمة أمامهذا النصب المتواضع ؛ انك لاتذكر اسما معيناً ، بل تذكر الانسانية المعـذبة جمعاء تتمثل فى صاحب العظام المجهولة المدفونة تحت أقدام هـذا النصب .

...

باقات الزهور البيضاء والحمراء لاتذبل تحت أقدام هذا النصب . لاتذبل مادامت هنالك قلوب متفطرة مكلومة ، لاتذبل ما دامت تبلل بدموع الأمهات التى لم تجف عيونها وقد جفت خنادق يبرس والفلاندرز !

...

وفى الساعة الحادية عشرة ، من اليوم الحادى عشر ، من الشهر الحادى عشر ، من كل عام ، يصبح هذا النصب ركن الرحى فى لندن !

هذا يوم المدنة !

مئات الآلاف من أهل لندن ومن غير لندن ، تفد الى هوايت هول ، حتى انه ليضيق بهؤلاء الوافدين ، الوافدين بقلوبهم الـكليمة وعيونهم السخينة ، وبملابسهم السوداء وينثرون باقات الزهور على هذا النصب الحجرى ، تنثر من كل يد ، من يد

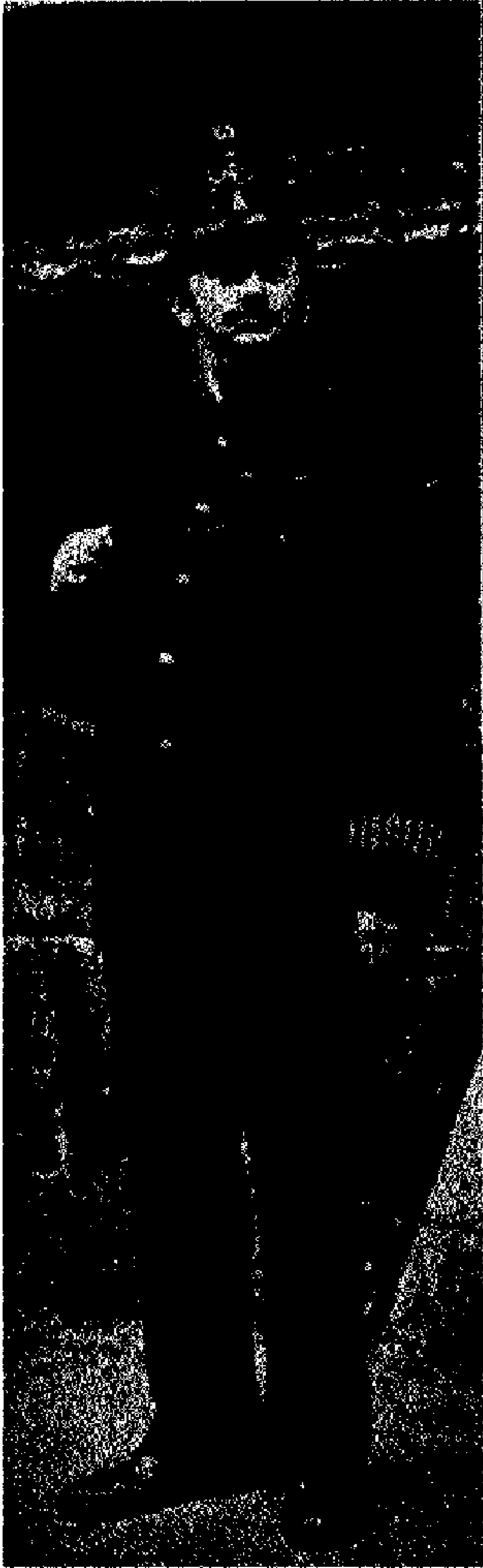
الملكة ، ومن يد العاملة . من الشيخ ليذكر ابنه ، ومن يد الشباب ليذكر أباه ، الذى لايعرف إلا أنه سافر ولم يعد منذ عشرين عاماً ، حين كان طفلا حابياً .

وفى تلك الساعة وفى ذلك اليوم من كل عام ، تصمت مئات الآلاف هـذه من حاسرى الرؤس ، تصمت دقيقتين تبطل فيهما كل حركة فى لندن ، لندن التى لاتعرف السكون !

ولـكنها فى هاتين الدقيقتين تذكر أولئك الآلاف من أبنائها الذين ذهبوا ولم يرجعوا !

شخصيات لندن

تتميز لندن بشخصياتها العامة ، تلك التى اذا اتصلت ببعض أصحابها اكتشفت أنها شخصيات ممتازة ، جديرة بالدراسة والتسجيل ·



ليس عليك أن تبحث عن هـذه الشخصيات فى دوننج استريت، ولا وراء جدران البرلمان الانجليزى، ولا فى أندية ماى فير ، لانك تصادفها فى كل مكان، فى الطريق ، وأمام الأبواب لا خلفها ·

الشرطى الانجليزى !

من ذا الذى ينكر أنه شخصية ممتازة ؟ من ذا الذى يزور لنـدن ولا تنطبع فى ذاكرته صورة ذلك المارد ذى الملابس القاتمة والازرار الصفراء اللامعة، والقلنسوة العالية التى تحمل التاج ؟

ليس أقل من انه مثل سام للرجولة الكاملة ، هو فى الطريق كل شىء ، وهو لا شىء ؟ لا شىء مطلقاً ، لا يجر معربداً الى مركز البوليس ، ولا يفض منازعة حادة ، ولا يعمل هراوته فى ظهور ولا فى وجوه ، لان

ذلك المعربد الانجليزى لا يوجد ليساق الى مركز البوليس ، ولان تلك المنازعة الحادة لا تنشب فى شوارع لندن ، ولان تلك الظهور لم تتعود على الهراوة ...

لا تكاد تلمحه وهو منزو فى حنية الابواب ، كأنه خجل من أن يُرِى وجهه للناس وهو لا يُكاد يفعل شيئاً ، كأن هنالك اتفاقا بين الناس على جعل هذا الشرطى عاطلا من كل عمل ..

ولكنك اذا وصلت الى حيث القلنسوة العالية ، وحملقت فى وجهه ، والى عينيه اللتين لا تفتآن تبص وتدور ، لعلمت أنه يتبع كل حركة فى الطريق ، وبفحص كل وجه يمر امامه

واذا حدث بعد ان تطاولت الى تلك الهامة المرتفعة وفتحت فمك بالسؤال والاستفهام عن الطريق أو عن غير الطريق ، لم تجد ذلك المارد مارداً كما تبادر الى ذهنك ، بل تراه يتقلص ويتداخل وينحنى الى ان يصل مكانك ، وتفتر شفتاه عن ابتسامة ضعيفة من تلك الابتسامات الانجليزية الباهتة — ويجيبك الى ما تطلب.واذا كنت عيياً فى الفهم تراه يستعيد ما يقول بكل تؤدة كأنه معلم يدرس فى فصل ، واذا كان الوصف معقداً سار بك شوطاً الى حيث تريد

والشرطى الانجليزى يجيبك عن كل شيء ، لانه يعرف كل شيء ، واذا جهل شيئاً أخرج دليله من جيبه الخلفى ، وأجابك بثقة ومعرفة اكيدة ، وقد تسأل عن الفنادق وعن أجورها ، وقد تسأل عن مطعم وعن غلو أو رخص أثمانه ، وقد تسأل عن بيت أثرى وعن قيمته وعن موعد زيارته ، وقد تسأله عن رأيه الخاص ، فيصارحك القول ويصدقك الاجابة . وقد تسأل عن أجنبى يسكن فى المنطقة التى يدور حولها ، فيبهرك لشدة ملاحظته ودقة انتباهه

وفى الليل ترى تلك القامة اكثر ارتفاعاً ، وذلك التاج أشد لماناً فى الشوارع القفراء المعتمة ، ولكنك لا تلمح تلك الابتسامة الباهتة المعهودة !

...

والامنيبوس الاحمر مارد آخر فى شوارع لندن . الامنيبوس ذو الطابقين ، الذي يسير كأنه عربة من عربات الترام الضخمة حتى انك اذا رأيته للمرة الاولى تعجبت كيف لا ينقلب من علوه . وكل سيارة تقف بجانبه تذكرك برحلات جلفر الى بلاد الاقزام، وكل سيارة تتضاءل بجانب هذا المارد الاحمر.



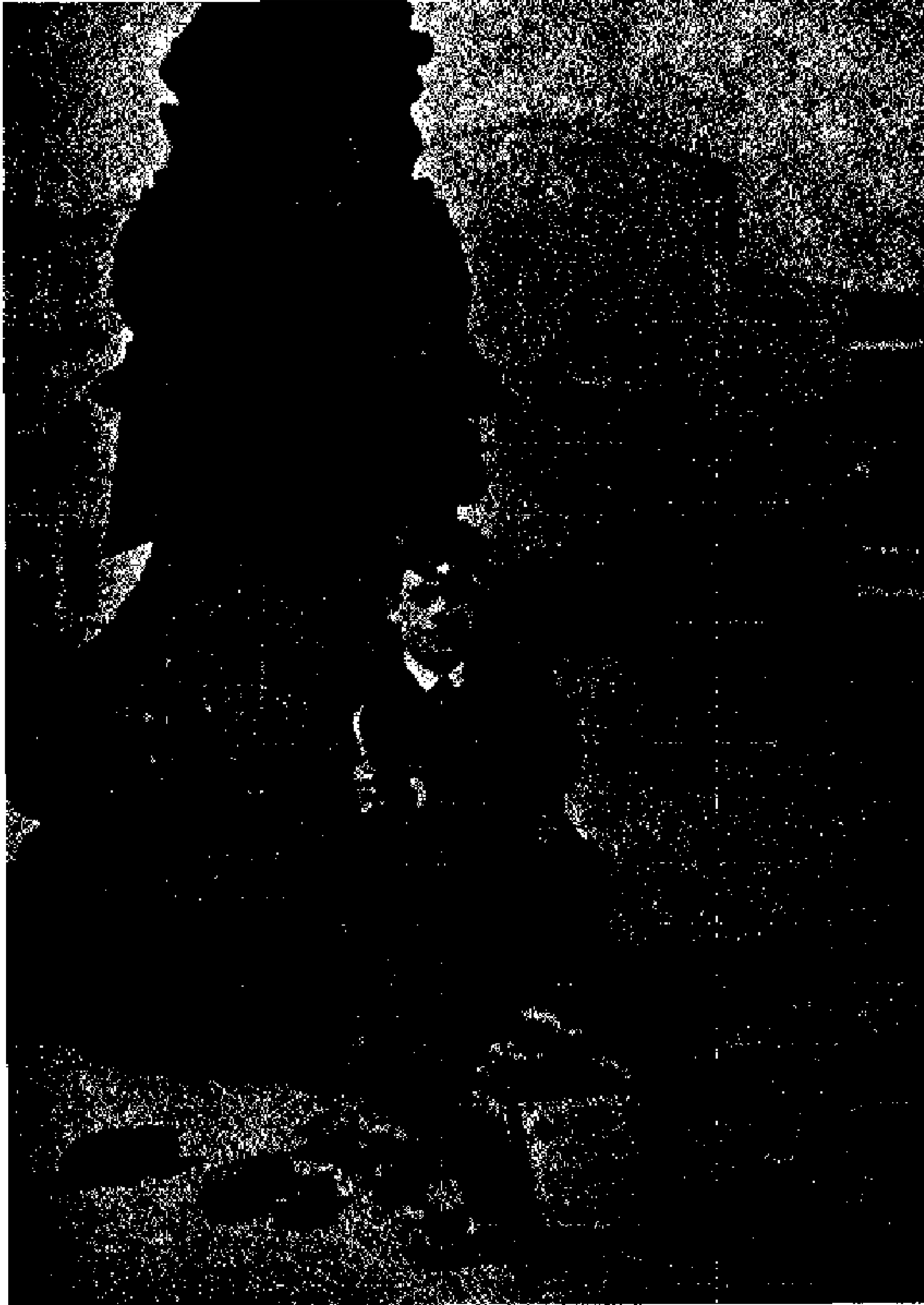
وهذا اللون الاحمر الزاهى ، يكسب شوارع لندن القاتمة شيئاً من البهجة ، لان الالوان الزاهية فى لندن قليلة ؛ والكاتب الانجليزى مورتن يسأل نفسه هذا السؤال. كم تتغير لندن اذا وقفت عربات الامنيبوس هذه فى لندن ؟ كم تتغير لندن اذا تبدل لون هذه العربات الاحمر بأى لون آخر ! لا شك ان اللندنى الصميم يشعر بأن عاصمته قد فقدت شيئاً ، يشعر بأن شخصية بارزة من شخصيات لندن قد اختفت

وسائق هذه العربات الحمراء ، وملاحظها كل منهما له شخصيته المستقلة . وفى ساعات العمل التى لا تزدحم فيها هذه العربات تقترب هاتان الشخصيتان اللتان

كتب على صاحبيهما الطواف فى شوارع لندن الى غير نهاية، ويتحدثان من وراء الحاجز الزجاجى الذى يفصل السائق من الراكبين . وفى ساعة الحركة يقف صاحب هذه الشخصية الثانية يرقب الراكبين المتدافعين ، يقف ولا يتكلم كأنه الشرطى الانجليزى المختفى خلف أركان الشارع ، حتى اذا تكامل العدد رفع يده ، ونظر الى الفتاة الرشيقة التى تريد الاسراع الى منزلها بعد عمل يوم كامل ، ولم يبتسم كأنه لا يشعر بانها تريد الاسراع ، ولا يفتح شفتيه الا ليقول آسف يا آنستى

وترجع الآنسة الى طوار الشارع ، وهى تبتسم ابتسامة طفيفة، ويدق الجرس ، ويتحرك المارد الأحمر .

...



وماسح الأحذية شخصية أخرى ، ولكنها شخصية نادرة الوجود . لأن قليلا من هؤلاء لانجليز من يفكر فى طلاء حذائه خارج منزله ، وقليل من هؤلاء الانجليز من يدفع بحذائه الى الخادم أو الخادمة لتنظيفه ، لأنه ينظفه بيده .

والأجانب الزائرون يبحثون عن ماسح الأحذية هذا ، يبحثون عنه بجد ولا يجدونه إلا فى أماكن خاصة معينة ، تكاد تكون معدومة فى لندن ذات الملايين .

ومن النادر أن تجد ذلك الانجليزى الذى يقف فى الشارع ، على باب محطة بيكر استريت أو فى أركان اكسفورد سيركس ، لماسح الأحذية المرح. وفى الدقائق المعدودة التى يقوم فيها بمهمته ، لاتعدم منه الملاحظة الطريفة ، أو نكتة انجليزية مقبولة . فاذا انتهى من عمله الآلى الذى لا يكاد يستغرق تبديل رجليك ، ودفعت له البنس رفضه بإباء وشمم ، فهو لا يقبل إلا أربعة كاملة !

...

وفى الساعة التاسعة من صباح كل يوم ، تعتاد على سماع النقرات السريعة المتتالية .

هذا هو ساعى البريد ! شخصية أخرى رسمية، بملابسه الزرقاء ذات الخطوط الحمراء الداكنة ، والقلنسوة المنبطحة ، التى ليس فيها عظمة رجل البوليس .

وساعى البريد هذا صديق الجميع ، يعرفه الأطفال ، وتحييه الفتيات إذا ما مررن به فى الطريق ، أثناء احدى دوراته اليومية .

وهو يعرف كل غريب سكن المنطقة التى يرتادها ، ويحفظ الأسماء الصينية واليابانية والهندية ، أسماء الطلاب الذين يسكنون رسل اسكوير أو كامدن تاون . ويحل طلاسم هذه الأسماء المكتوبة بخطوط أقرب الى كتابة هذه اللغات الشرقية النائية .

ومكاتب البريد الفرعية فى لندن ، فى كثير من الأحيان، جزء من مخازن الأدوية

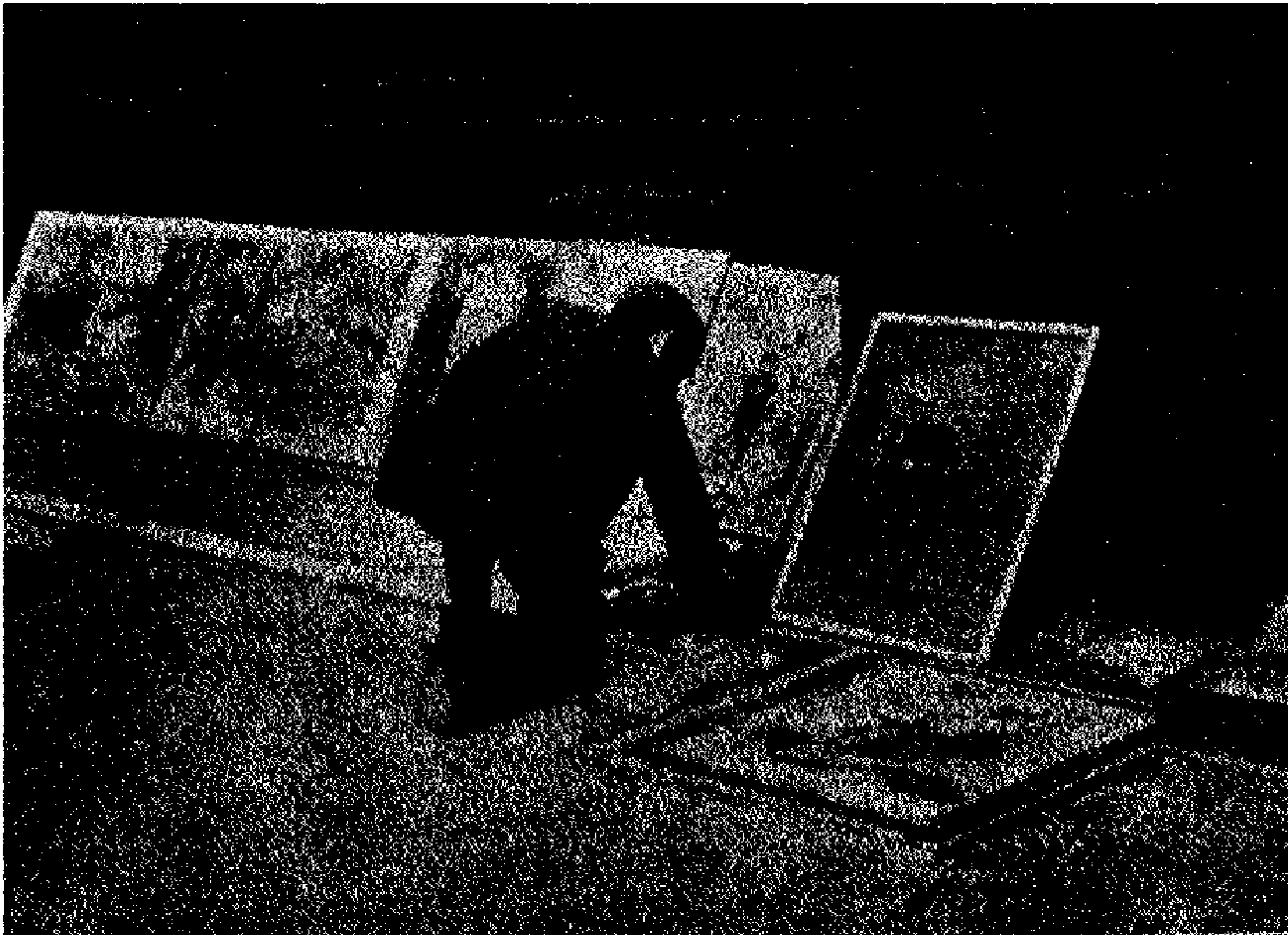
أو المخابز ، فتسجل فيها خطاباتك وتشترى مايلزمك من فطائر وكيك فى وقت واحد.

ولاتكاد تجد فى هذه المكاتب رجلا ، لأن العمل فى مكاتب البريد قد صار من اختصاص النساء فى لندن .

...

وتمر فى طريقك على مصور الشارع ، الذى قدجعل من أرض الشارع ومن بلاطه لوحات لفنه . تمر عليه وهو ينحنى فوق مايرسمه ، بالفحم أو الباستيل واذا انتهى من عمله هذا كل صباح ، وأعاد ما قد محاه فى الليلة السابقة جلس فى نهاية هذه المعروضات ، وخلف قبعته فى الطرف الآخر حتى لايمل السائرين ، الذين يتطلعون الى فنه ، بملهم بالسؤال .

وتراه صامتاً لايتكلم يراقب بعينيه الدائرتين السائرين ، ويعرف بالمران أولئك الذين يقفون دقيقة أو بضع دقيقة يرقبون مثل هذه المعروضات ، ويعرف أولئك الذين



يقرنون هـذا النظر وهـذا الوقوف ببنس أو اثنين يجودون به عليه . فيبتسم ابتسامة رجل من رجال الأعمال ؛ ويحنى رأسـه ، وتسمع كلمة الشـكر تخرج ضعيفة هادئة من فمه.

ولا يجلس مصور الشارع عادة منفرداً بل كثيراً مايصحبه كلبه : وكلبه هذا فى كثير من الأحيان تحفة فنية أخرى ؛ أكثر زهواً من لوحاته المرسومة . ويقبع هذا الـكلب بصبر يرقب السائرين مع سيده ، ويهز ذيله للسيدةالعجوز ، التى لاتحتمل أعصابها أن تمر على مثل هذا الـكلب الأنيق دون أن تداعبه أو تسرح شعره بأصابعها، ولأجله تتحف سيده بأكثر من بنس واحد .

. . .

وسائق التاكس من الشخصيات الممتازة فى لندن .

وعربة التاكس هى ذاتها شخصية أخرى ممتازة . وهاتان الشخصيتان تناسب الواحدة منهما الأخرى أشد المناسبة .

عربات التاكس هـذه التى تدرج فى شوارع لندن ، لاشك انها قبيحة ، ليس فيها جمال ولا طلاوة . عربة ضخمة سوداء ، كأنها الصندوق ؛ اذا جلست فى داخلها لاتـكاد تطل من نافذتها الا اذا انحنيت وثنيت ركبتيك .

والسائق كأنه فى عالم آخر . هو كعربته ، ضخم متـكور ، ملتف فى معطفه الأسود ، قد الصقت على صدره قطعة كبيرة من المعدن دونت عليها نمرته

مفتول الشوارب فى كثير من الأحيان ، لايزال يحتفظ بتقاليد الماضى ، ولعله خليفة سائق العربات فى العصر الفـكتورى المنقرض . متأدب جل التأدب ، يدور بعينيه مع السائرين على الطوار بجانبه ــ لا سيما فى أيام المطر ــ ولـكن عيناه لاتبصان بقحة ولا استعطاف . بل هو يرى أنه يؤدى واجباً لهؤلاء السائرين ، يقوم به اذا طلب منه أداؤه .



وفى ساعات الراحة حيث لاتتطلب السرعة ، يجلس على مقعده المرتفع ، ويضع نظارته على أنفه ، يقرأ صحف الصباح فى الضحى ، وصحف المساء فى المساء . واذا جاءت الساعة الخامسة تناول قدحه من الشاى وقطعة الـكيك فى الحجرة الخشبية الخاصة بسائقى هذه العربات .

وفى أيام المطر تراه يسير بعربته متمهلا بحذاء طوار الشارع لينجد من أضجره المطر أو من فقد ترامه الأخير ، وكلما تقدم الليل كلما قويت عناصر هـذه الشخصية المزدوجة ، حتى اذا كان الهزيع الثانى صار بطلا يؤبه له فى عالم الطرقات المقفرة .:.

• • •

وقليل من عرف شخصية موزع اللبن فى لندن حق المعرفة ، لأنه فى دورتيه اليوميتين ، لايزور زبائنه الا فى وقت لايجد فيه رجلا عاملا فى البيت .

فى الساعة الخامسة أو السادسة ولندن جميعها نائمة ؛ يدور صاحب هذهالشخصية بعربته البيضاء الأنيقة يوزع زجاجات اللبن فى أركان الأبواب الخلفية التى تقود الى « البدرون » حيث المطبخ عادة .

وفى الساعة العاشرة أو التى تليها ، تسمع نداءه على كل باب ، نداءه الذى يشبه حداء الرعاة « كو و و . . » لقد جاء ليجمع الزجاجات الفارغة .

وهو لا يضن بملاحظة أو فكاهة على صديقته الخادمة الرشيقة — لأن له فى كل دار صديقة من هؤلاء، وهذا بلا شك من مميزات شخصيته — ولا يضن على سيدة

البيت العجوز باحدى الملاحظات الانجليزية المعروفة،التى يكررها من باب الى باب ، ومن يوم الى يوم دون ان يشعر بانها قد صارت تافهة

— صباح الخير يا سيدتى

— صباح الخير . .

— صباح بديع أليس كذلك

— نعم

تقول هذا وهى تسرع الخطى،لأن المطر أخذ يتساقط بشدة اكثر منذى قبل..!



عيد الميلاد

التمهيد لعيد الميلاد فى لندن اكبر بهجة من العيد نفسه . فمنذ الأسابيع الطويلة الى الخامس والعشرين من ديسمبر، يستعد أهل لندن وتستعد لندن لعيد الميلاد ، واكسفورد استريت يزدحم بكل قدم ، فلا يعوق أهل لندن المطر ولا الضباب ولا الثلج عن الخروج ، فى اكسفورد استريت وفى غير اكسفورد استريت لشراء ما تقضى به تقاليد عيد الميلاد .

وتقاليد عيد الميلاد ثقيلة . يحافظ عليها الانجليز أشد المحافظة ولا تفرط فيها السيدة الانجليزية، ولا يهزأ بها الطفل الانجليزى الحديث. واذا ما جاء عيد الميلاد جاء بتقاليده كما جاء بخرافاته وآماله التى تتجدد كل عام

ما أبهج عيد الميلاد فى أيام الثلج وقد غطى كل شىء وأحال أبنية لندن السوداء بيضاء زاهية ؟ وهذا أمل من آمال عيد الميلاد لا يتحقق كثيراً ، ولماذا كان هذا الامل أو كانت هذه الخرافة، وبيت المقدس وهو مركز هذه التقاليد ومحورها لا يعرف الثلج ولا البرد ؟ وخرافات الارواح تروج فى عيد الميلاد ويحلو للاطفال أن يسمعوا قصص الجان والمردة حول مدفأة عيد الميلاد، كما يحلو للرجل ان يقرأ هذه القصص فى مجلات عيد الميلاد .

يحلو لهؤلاء الكبار أن يقرأوا قصص الأرواح وحكايات البيوت المسكونة ، ففى ليالى عيد الميلاد يخرج أولئك الذين سجنوا فى قصور القرون الوسطى أو قتلوا فى

سراديبها يجرون سلاسلهم وقيودهم أو يحملون رءوسهم المقطوعة تحت أذرعتهم يجوسون خلال هذه القصور ، ويحيون ساكنيها الجدد !

وكما أن للكبار خرافاتهم ، كذلك الصغار لهم جانب من هذه الخرافات التقليدية .

...

سنت كلوز ! هذا بطل عيد الميلاد الخيالى . هذا هو صديق الأطفال ، وحبيبهم المنتظر فى عيد الميلاد . شخصية خيالية ولكنها شخصية محبوبة .

شيخ مرح ، له لحية متدلية ، بيضاء كالثلج ، كثلج عيد الميلاد ، يرتدي جلبابا وطرطورا أحمر،اللون الزاهى الذى يحبه الأطفال.يزور هذا العم كلوز الاطفال فى كل عام،فى ليلة عيد الميلاد ، ولا يجد طريقه الى أطفاله الأعزاء ، الا عن مدخنة البيت ، يهبط منها ، دون أن يدق الأبواب أو يقرع النوافذ .

...

وهذا الشيخ المرح ، لا يهبط من المدخنة الا محملا بكيس قد أحنى ظهره ، ملأه بكل ما أمله الطفل قبل أن ينام ، لان هذا العم السحرى لا يزور أصدقاءه إلا وهم نيام ، فيضع تحت وساداتهم الجوارب التى ملأها بهذه الهدايا ، أو يحفظها لهم فى أحذيتهم خلف الابواب ، حتى اذا استيقظ الطفل مبكرا عرف أن العم كلوز قد زاره وهو نائم .

...

ان الحياة أضيق من أن تتسع لآمال الانسان وأحلامه ، رجلا كان أم طفلا ، فلم يكن له بد من أن يتصور عالما سحريا ، أكثر جاذبية من هذا العالم ، يجد فيه ما تتطلع اليه نفسه التواقة ، نفسه التى ترضى بما هو كائن . أليست خرافات عيد الميلاد وغيرها بنيت على هذا الأساس ؟

. . .

شارع الريجنت مزدحم فوق العادة ، وشارع أكسفورد لا تكاد تجد فيه موضعا لقدم ، آلاف السيدات ، قد خرجن من بيوتهن يبحثن عن مستلزمات عيد الميلاد ، عن هدايا عيد الميلاد .

. . .

كل نافذة تمر أمامها لها جاذبيتها ، وحول كل واحدة من هذه تجد جموع السيدات يبحثن عن الجديد الغريب ، يبحثن عن المبتكرات الطريفة فى الزى أو فى اللعب أو فى الهدايا ، وكل سيدة من هؤلاء تجدها محملة بما اشترته ، وقد تجدها تجر انسانا متعبا مرهقا قد حمل من صناديق الورق وحزماته الشيء الكثير حتى انك لا تكاد ترى وجهه ، مسكين هذا الرجل الذى يسير رغما عن ارادته من نافذة الى نافذة ، ومن مخزن الى مخزن ، مسكين هذا الرجل انه زوجها !

تريد المرأة أن تنقل كل شيء الى بيتها ، ما أشبهها بالنمل الذى يدخر ويدخر ويجمع ، ولا يسأم من الجمع ، كأن الطوفان سيفيض فى الغد ، كذلك هؤلاء السيدات اللاتى يخرجن قبيل عيد الميلاد ، يبحثن عن كل شيء ، ويدفعن آخر بنس يحملنه .

. . .

لعيد الميلاد تقاليده فى الأكل ، وتقاليده فى الهدايا ، ثم تقاليده الاجتماعية .

البندق ، واللوز والجوز ، من التقاليد المحترمة فى عيد الميلاد ، وما أشبهها بتقاليدنا الشرقية . ولكن أهم من هذا وذلك تناول اللحوم البيضاء ، لحوم الديكة على مائدة غداء عيد الميلاد . شيء مقدس ، أكثر تقديسا من الكعك فى عيد الفطر فى مصر

. . .

وليس للانجليزى أن يشترى ديكا بأكمله فى عيد الميلاد ، لانه يكتفى برطل واحد أو رطلين بحسب حاجته ، وحاجته محدودة حتى انها لتعد بخلا وتقتيرا . ولكن الحقيقة أن هذه الملايين من الديكة التى تربى وتعد لعيد الميلاد ، لا تكفى الملايين من الآكلين ، لهذا كانت فاحشة الثمن لا يقدر على اقتنائها كاملة الا القليل .

. . .

وكانت العائلة التى أسكن بينها ردحا من الزمن فى لندن ، خليطا من الانجليز والايرلنديين ، وكانوا كثيرا وكانوا كراما . لذلك لا بدع أن يبتاعوا ديكا بأكمله ، وأن يرسل اليهم آخر من وراء البحار، من ايرلندا. ولكن السيدة ـ وهى العنصر الانجليزى الصميم ـ لم ترض بهذا الخير المضاعف ، وعدته تبذيرا لا مبرر له . لا سيما وأن عدد أهل الدار ـ ويدخل فى ذلك الضيوف الساكنون ـ ليس كبيرا ، خمسة عشر على الاكثر !

. . .

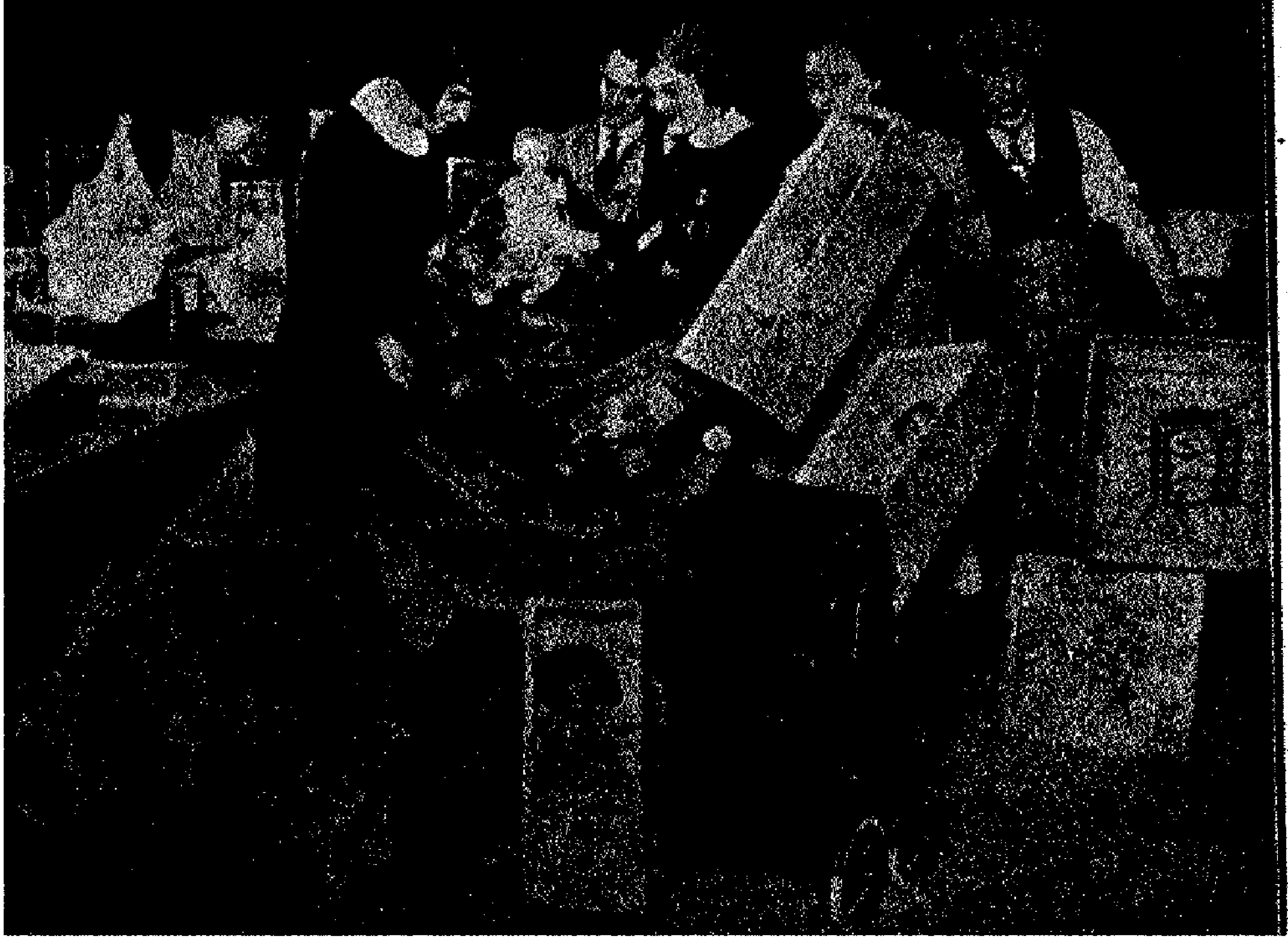
فقلت فى نفسى ان السيدة لا شك مخطئة ، فهذان الديكان سوف لا يكفيان كل هذا العدد الجم من الآكلين . ولكن تقديرى هو الذى أخطأ فقد تناولنا جميعا من الديك الأول غداء عيد الميلاد ، وتناولنا منه العشاء ، ثم اليوم الثانى والثالث . .

كل شىء يوزن بالدانق والدرهم عند هؤلاء الانجليز ، حتى ليصبح الديك خروفا والواحد اثنين !

. . .

وكما تخرج السيدة لتشترى لحوم الديكة ، وتشترى البندق واللوز ، فهى كذلك

تخرج لتشترى هدايا عيد الميلاد . هدايا لزوجها ، ولأبنائها ، كما يخرج الزوج ليشترى هدايا عيد الميلاد لزوجته ولأطفاله ، كما يخرج هؤلاء الأطفال أنفسهم ليشتروا هدايا عيد الميلاد لوالديهم وأصحابهم .



هدايا عيد الميلاد

شبكة مزدوجة من الهدايا ، بين الآباء والأزواج ومن فى حكم الازواج، وبين الأبناء والأصدقاء وكلها فى النهاية تقع على عاتق الآباء ! وكل واحد من هؤلاء يفتن فى أن يبهر عين من يرسل اليه بهداياه، وعلى مائدة غداء عيد الميلاد تظهر هذه الهدايا الخبيثة.

وهدايا الأطفال ، من ألاعيب ومن دمى ومن كتب ، خير ما يبهج فى عيد الميلاد . ملايين من هذه وتلك تباع كل عام فى لندن ، يحملها لهم رسولهم السحرى ، العم كلوز

وملايين من بطاقات الميلاد تمر فى أسبوع عيد الميلاد على دار البريد العام فى لندن ، ترسل من لندن الى لندن ، ومن لندن الى برمنجهام وليفربول وأدنبره

وأبردين . . ، ومن لندن الى الأبناء والأزواج فى استراليا وكندا ؛ ومن وراء البحار ومن هؤلاء الأزواج والأبناء ، ترسل الى لندن هدايا عيدالميلاد، وبطاقاته ، يذكرون أمهم ، وهم فى مهجرهم .

ومئات من المصورين يشتغلون ويفتنّون فى رسوم هذه البطاقات، التى تجدها أكواما أكواما عند ولورث وفى مخازن الورق والكتب ، حتى لا تكاد تجد بطاقة تشبه أخرى ، وتقرأ فيها أشعار التهانى القديمة العتيقة ، وتشاهد الثلوج فى رسومها قد غطت كل شىء ، وأحالته أبيض ناصعا .

والكتب هدايا ممتازة فى عيد الميلاد . وسوف نقطع مرحلة طويلة قبل أن تصبح الكتب فى مصر ، هدايا تتبادل فى الأعياد · تطبع هذه الكتب التى تتخير لهدايا عيد الميلار طبعا أنيقا ، بالجلد المزخرف والورق المصقول الجميل ، مؤلفات شكسبير وأشعار تنسون ووردسورت وبيرون وشلى ، وفوق ذلك رباعيات عمر الخيام ، هدية ممتازة فى عيد الميلاد ، تطبع فى كل عام على نسق جديد ، وبفكرة طريفة .

أما كتب الأطفال فشىء لا يحويه عد ، من الكتب ذات البنس الواحد ، إلى تلك التى تبلغ عشرات الشلنات · الكتب الجميلة ذات الألوان الزاهية الطريفة ·

. . .

وهكذا تستعد لندن بالديكة وبالبندق والجوز ، وبالحلوى والفاكهة ، وبالهدايا وباللعب وبالكتب وبالموسيقى ، تستعد لعيد الميلاد .

ولكن التمهيد لعيد الميلاد ، أكثر روعة فى لندن من العيد نفسه . جاء مساء اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر، وفتحت أبواب تلك الحجرة التى لاتكاد تستعمل فى البيوت الانجليزية، والتى ليس لها وجود فى كثير منها، هذه هى حجرة الجلوس ·

ويجتمع فى هذه الحجرة أهل البيت جميعاً ، ويجتمع معهم الأصدقاء وأصدقاؤهم ، ويجتمع ضيوف البيت الغرباء ، الذين وإن كانوا يسكنون تحت سقف واحد ، إلا أنه

قد يمر العام دون أن يكلم الواحد منهم الآخر . . إلا فى مثل هذه الليلة .

ويفتح غطاء المعزف الذى لا يفتح إلا نادراً ، وتدار أقراص الجرمافون العتيقة . لاستعادة الأغانى القديمة المحبوبة ، ولا يمتنع الأب عن احتساء قدح من البيرة الحمراء يقدمه له ابنه ، ثم لا تمتنع الأم كذلك ، وتستثير الموسيقى الفتيان والفتيات إلى الرقص ثم تستثير العجائز ، يستعدن عهد الفالز والتانجو . . !

حتى اذا انتصف الليل ، أخذ الضيوف العجائز فى الانسحاب والآباء والأمهات فى التراجع ، وبدأ راقصو « الفوكس تروت » الذى يلهب العاطفة ، يحيون ليلة عيد الميلاد تحت فروع « المسلتو » الخضراء ، التى تباح تحتها القبلات . .

• • •

وفى يوم عيد الميـلاد ، تجتمع العائلة جميعها ، حول مائدة الغداء ، التى يتوسطها الديك العتيد ، الذى تراه كما هو اذا ما انتهى الغداء ، كأن الأيدى لا تقـدر على مسه بسوء ! ثم يتناولون بودنج عيد الميلاد ، شىء أثقل من الـكعك ، لابد من الاسبرين والمانيزيا ، للقضاء على فعله . .

• • •

ويمر أسبوع على تلك الليلة ، وتستعيد الأعصاب المنهكة حيويتها بعد السهر والرقص والأكل ، وتستعد لندن وأهل لندن لاحياء ليلة السنة الجديدة .

ونترك البيوت هذه المرة ، ونتوجه شطر بيكادلى لنحيي هذه الليلة مع أولئك الذين قد هجروا بيوتهم إلى أندية بيكادلى ، مع أولئك الغرباء الذين لا يجدون فى الفنادق والبنسيونات متعة أو سلوى فى مثل هذه الليلة .

ويسير معى القارىء فى بعض منعطفات بيكادلى ، الى حيث الجيلد كلوب ، أحد اتحادات الممثلين ، وهناك نسأل عن سيدة روسية نعرفها ، هى احدى ممثلات السينما فى استرى ، استديو انجلترا .



وحول كل نافذة من هذه تجد جموع السيدات يبحثن عن الغريب والجديد .

تطل برأسك على القاعة الكبرى ، تجد المئات من الفتيات والشبان ، من كل جنس ومن كل لون ، تجد الفرنسي والصينية ، والأمريكي والروسية ؛ والايطالى والبولونية ، وتجد اليونانية والهندية والاسبانية ، بل وتجد من عاشت فى مصر زمنا ، ومن تحدثك بالعربية المبتورة .. ! سبحان من جمع هؤلاء جميعا فى هذا المكان ، جمعهم الفن !

وبين هذا الجمع اللاغط ، وفى الجو الملبد بدخان السجائر ، والمشبع برائحة التبغ والبيرة وعطور السيدات ، تقضى الليل حتى منتصفه .

حتى اذا قارب الليل الانتصاف ، صمتت الحركة ، ووقف الجميع فى صفوف ودوائر ينشدون أغنية الوداع للعام الرائح . .

ثم ينصتون من جديد الى دقات الساعة ، هاهى تدق الثانية عشرة ، وهاهم يصيحون ويهتفون ، يحيون العام الجديد . . . مات الملك يحي الملك . . ؟

ما أشد نكران الانسان ، وأنساه بالامس . .

فلسفة الطعام

فى محيط لنـدن الهائل ، قد لاتـكتشف الوجوه الأجنبية بسهولة ، الوجوه الفرنسية أو الايطالية أو الهنغارية . ولـكنك اذا سرت فى اشيرنج كروس وانعطفت الى سوهو ، حى المطاعم الأجنبية تـكتشف أن الوجوه الانجليزية الأصلية قليلة نادرة .

واذا تخيرت احد هذه المطاعم العادية المغلقة الأبواب فى حى سوهو ، وجدت جوا غريبا لاتـكاد تعهده فى لندن ، وتجد وجوها لم تجمعهم فى لندن إلا مائدة الطعام ، وتسمع الانجليزية مبتورة مقلوبة ، اختلطت باللهجات الايطالية والاسبانية

. . .

لايزال الأجنبي فى لندن غريباً ، حتى يكتشف بعض هذه المطاعم ؛ ولاتزال الحياة فى لندن ثقيلة جافة ، حتى يكتشف الشرقى فى لندن بعض هذه المطاعم الايطالية أو الهندية أو اليونانية المتمصرة .

ورابطة الطعام ، قوية وثيقة لاسيما فى بلد غريب كلندن ، لهذا تجد رواد هـذه المطاعم المنزوية فى أركان سوهو ، قدجمعتهم صداقة والفة مكينة . وتجد الشرقى الذى يفد الى لندن ، يبحث عن هذه المطاعم باهتمام ، وكثيراً مايحمل عناوين هذه المطاعم معه قبل أن يهبط لنـدن . كأن لندن بما فيها من مئات المشارب والمطاعم الصغيرة والـكبيرة ، عاجزة عن تقديم مايستسيغه هذا الأجنبي النازح .

ولم أكد أستقر فى لندن، حتى اكتشفت احد هذه المطاعم، اكتشفته بعد ثلاثة أيام، ولم أقض فى لندن أسبوعا حتى اكتشفت مطعماً ثانياً وثالثاً، لا تخرج جميعها عن حى سوهو.

وأخذت أرتاد هذه المطاعم شهراً أو بعض شهر، حتى ثارت نفسى على نفسى، حتى مججت الطعام وزهدت نفسى فى هذه المآكل الشرقية أو الشبيهة بالشرقية التى كانت تقدم لنا فى هذه المطاعم.

بدأت أشعر كأننى كنت آتى أمراً إدا، لقد كنت أترك اكسفورد استريت والاستراند لكى أنعطف فى أزقة سوهو، لقد كنت أترك الضياء والهواء، لكى أتدحرج فى هذه المطاعم الأرضية التى تضاء نهارا بالكهرباء!

تدفع الباب فيرن جرس مثبت فيه، كأنك تدخل جحراً من أجحار المخدرات، ويستقبلك اليونانى أو الايطالى الذى عاش ردحاً من الزمن فى مصر، ويحييك بكلمات عربية ممسوخة، لكى يجعلك تشعر بأنك بين أهل واخوان. واذا كنت من مرتادى مطعمه، حياك بلهفة وهز يدك وكتفيك، وتبادل معك نكتة محفوظة ثقيلة.

تجلس فيهرع اليك بقائمة الطعام، ولا يتركك تقرأ ألوانها المعدودة، بل تراه ينحنى على أذنك ويسر لك شيئا فتهز رأسك قبولا، فيأتى لك بهذا الطبق الخاص، الذى يأبى أن يكون علنا

ماذا؟ فول مدمس! شىء جميل فى لندن، هذا هو التحفة التى أراد أن يبرك بها هذا اليونانى المتمصر، تبدأ بأكله فلا تعرف له طعماً.

تظهر الامتعاض، فيهرول اليك صاحب المطعم بابتسامته المصطنعة، ويحاول أن يشرح لك مزايا هذا الفول، فلا تقبل شرحاً. وتبدأ تقرأ القائمة من جديد، وتراه ينحنى على أذنك ويسر لك شيئاً، فتهز رأسك قبولا... ثم تراه يرجع محملا بطبق به باذنجانة طويلة متمددة.

وتبدأ فى الأكل ، وهو واقف على رأسك يقص عليك قصة هـذه الباذنجانة وكيف اكتشفها صدفة فى لندن . . .

. . .

والمطاعم الايطالية والهنغارية ، أكثر احتراماً من هذه المطاعم التى لاتعرف هل هى شرقية أم غربية ، وبين هـذه المطاعم الايطالية ماهو فاخر حقاً ، لا يدل مظهره الخارجى البسيط على اناقته الداخلية .

والانجليزى الذى يزور مطاعم حى سوهو حينا بعد حين ، يدفع ثمنا عاليا لهـذه الزيارة ، هو لايعرف ماذا يطلب من القائمة التى تقدم له بالفرنسية أو الايطالية التى يجهلها ، وهو يعتمد على شرح الخادم الايطالى ، الذى تـكتشف من حركات وجهه ومن ابتسامته الخفية أنه لايقول الحقيقة كلها . . .

. . .

وتزور فى لندن المطاعم الصينية والهندية ، التى لاتبعد كثيراً عن حى سوهو هذا . وكنت أرتاد مرة كل شهر أو شهرين مطعما هنديا من هذه فى اشيرنج كروس ، لم يستمر طويلا حتى أغلق أبوابه .

تدخل هذا المطعم ــ وكانوا يدعونه التاج محل ، والتاج محل اسم لمقبرة ! ــ فيقابلك شاب هندى أهيف مرتفع القامة بشعر أسود كالفحم ، وينحنى لك رأسه محييا ، ويقودك الى مقعد منعزل فى قاعة يعبق فيها دخان العود ، وقد جللت بستائر زرقاء مزركشة لاتجعل ضوء النهار ينفذ اليها بسهولة . فتشعر بأنك فى جو شرقى خيالى !

ثم يتقدم اليك هندي آخر بقائمة الطعام ، تدور عيناه فى رأسه كأنه أحد الحواة وتقرأ قائمة الأرز ، واللحوم الغارقة فى التوابل ، والفطير المصنوع على نار الفحم ، والحلوى الهندية ، ثم الشاى المعطر . . .

• • •

تنتقل بين هذه المطاعم الشرقية ، حتى انك لاتـكاد تشعر بأن فى لندن مطاعم .

ولـكن فى لندن مطاعم على كل لون ، مشارب الشاى فى كل ركن ، تتناول فيها كل شيء مما يستسيغه الانجليزى ، اللحم البقرى البارد المقدد ، البطاطس المسلوق أو المقلى ، السبانخ والبازلاء المسلوقة . البيض ، ثم السمك · ألوان محـدودة معينة ، والانجليزى قانع بهذه الأصناف المحدودة المعدودة . يتناولها يوما بعد يوم ، ولا يفكر فى استبدالها ، أو التجديد فيها .

• • •

وفى الليل تمر على مطاعم السمك والبطاطس المقلي ، مطاعم شعبية ، تشاهد حولها الأطفال والـكبار ، وترى السيدة السمينة وراء منضدة البيع وأمامها أنواع السمك ، كل نوع عليـه ثمنه ، وأكوام البطاطس المقلى ، وترى الطفل الذى يخرج من دار السينما يهرع الى احدى هذه المطاعم ، ويقدم البنس الى السيدة السمينة التى تقف وراء منضدة البيع ، فتضع له كومة من البطاطس فى ورقة تلفها بسرعة آلية

وترى هؤلاء الأطفال ، وترى الفتيان والفتيات العاملات حلقات حلقات حول هذه المطاعم وعلى أبواب دور السينما المحلية ، يحملون هذه الأوراق الملفوفة · يأكلون ، ويتحدثون ·

• • •

واذا تقدم الليل ، لم تبق الا أنوار بعض هذه المطاعم الليلية الصغيرة . والـكثير من هذه المطاعم أو المشارب يديرها اليهود ، وترتادها طبقة خاصة ، وتراها بكثرة حول الوست اند فى شارع أدجوير ، وتتنهام كورت، وأشرنج كروس .

وجميع هذه المشارب متشابهة ضيقة ، ليس فى تنسيقها جمال ، على أبوابها « يافطة » كبيرة بها أنواع الطعام وأثمانه . وما يقدم عادة فى هذه المشارب متشابه أيضا ؛ الشاى

والقهوة والساندوتش والبيض والسمك ولحم الخنزير والفاكهة والكيك .

وعندما تدخل الحجرة الضيقة ذات المقاعد الخشبية ، تشعر بأن جواً غريباً يسود المكان ، وتتوجه اليك الأنظار الى أن تجلس ، وتنتهى من طلب قدح الشاى والقهوة وقطعة الساندوتش، عندئذ فقط تشعر بأن الأنظار قد تحولت عنك ، وان المكان بدأ يكون مريحاً دفيئاً ، لا سيما اذا كانت الليلة باردة ممطرة .

والمقاعد فى بعض هذه المطاعم ليس فيها شىء من الذوق ، على الأقل فى نظرى . مقاعد من الخشب الجاف ذات مساند عالية ، أشبه بدواوين قطارات الدرجة الثالثة ، حتى اذا ما جلست لا تعرف ما يجرى بجوارك ·

. . .

وبعض العمال لا يلذ لهم الطعام المتأخر إلا على قارعة الطريق وهم وقوف . وهذه المطاعم الليلية المتنقلة فى لندن لا تفتح أبوابها إلا بعد الساعة التاسعة أو العاشرة ، فى أماكن معروفة معينة تمر السنون دون أن يغيرها صاحبها ، وهذه المطاعم غرف صغيرة من الخشب تجرها الخيل . وفى الساعة المتأخرة فى لندن تمسى هذه المطاعم المتنقلة كل ما يدل على الحياة فى شوارع لندن ، لا سيما فى الليالى الباردة .

ورواد كل مطعم من هذه المطاعم المتنقلة يعرف بعضهم بعضاً تراهم يقفون حول العربة ، وأمامهم أقداح الشاى الضخمة ، وقطع الساندوتش والكيك ، والغلايين فى أفواههم تدفىء المكان بدخانها · وتسمع النكات تتبادل بين صاحب المطعم بملابسه البيضاء ، وبين زبائنه لا سيما الذين يترددون عليه كل مساء .

. . .

وبينما هؤلاء العمال يتناولون عشاءهم المتأخر على قارعة الطريق ، وهم وقوف حول هذه المطاعم المتنقلة ، اذا بعثات من أهل لندن يتناولون طعامهم فى قاعات الرخام والمرمر الزاهية ، التى تدوى فيها نغمات الموسيقى ·

ليس لك أن تذهب الى الرتز أو التريكاديرو أو فراسكاتى وتدفع جنيها أو بعض جنيه ثمناً للعشاء ، بل إن مطاعم الكورنر هاوس قد جعلت هذا الأمر يسيراً محققا .

هذه المطاعم الشعبية الفاخرة ، أخذت تنتشر فى لندن عاماً بعد عام ، المطاعم التى لا يقفل أكثرها أبداً ليلا ولا نهاراً . وعندما فتح مطعم الكورنر هاوس الجديد فى شارع توتنهام كورت ، كتبوا على بابه « يفتح يوم كذا الى مالانهاية » ! وهكذا تمر على هذا المطعم الفاخر ذى الطبقات الأربعة ، فى أية ساعة فى الليل أو النهار ، فتجد الجمع الحافل المرح الذى يتناول العشاء الساخن الشهى فى الساعة الثانية صباحا كأنه فى مثل هذه الساعة ظهراً !



قاعة فى احدى مطاعم الكورنر هاوس

ومطاعم الكورنر هاوس هذه تديرها فى لنـدن شركة ليونس صاحبة مشارب الشاى ، وهى كهذه المشارب رخيصة معقولة ؛ لهذا كان العامل الانجليزى الذى يقف حول تلك المطاعم المتنقلة فى مقدوره أن يجلس فى احدى قاعات الكورنرهاوس ذات الأعمدة الرخامية أو المرمرية ، وينصت الى فرق الموسيقى التى لا تنقطع أنغامها ويمتع العين بالجموع الحافلة ، من الشباب بملابسه التى فكر أصحابها فى ألوانها وأزيائها قبل ارتدائها ، تحت أنوار هذه القاعات المتألقة ، ولا يدفع الا شلنا أو شلنين ثمنا لعشائه !

...

وكلما يتقدم الليل فى هذه المطاعم ، كلما تتغير وجوه المترددين عليها وتتبدل ، فاذا كانت الساعة الثامنة تجد هذه القاعات تطفح بالوجوه البريئة الباسمة ، وتجد وجوه الأطفال حول الموائد مع آبائهم وأمهاتهم . ولكن لا يكاد الليل ينتصف حتى يختفى أصحاب تلك الوجوه ، لقد ذهبوا وخلفوا لندن ومجامع لندن لهذه الطيور الليلية التى لا يحلو لها أن تستمتع بلندن الا فى غفلة من أصحابها .

وراء جدران الجامعة

فى انجلترا ستة وثلاثون ألف طالب وطالبة فى الجامعات ، فى اثنتى عشرة جامعة. ومن بين هؤلاء أحد عشر ألف طالب وطالبة فى جامعة لندن وحدها، أى أن جامعة لندن تخرج نحو ثلث الطلاب فى جامعات انجلترا جميعها .

ومع ذلك فليست جامعة لندن أقدم الجامعات،وليست تباهى بتاريخها أوتقاليدها، جامعة أكسفورد أو كمبردج العتيدة . ولكن جامعة لندن بآلافها ، جامعة لندن بطلابها الذين يفدون اليها من وراء البحار، جامعةلندن بدرجاتها العلمية التى ليس فى منحها هوادة ولا رفق ، تتناسب فى عظمتها مع لندن .

فى صخب الاستراند ، وفى حركة تتنهام كورت رود ، تنزوى قليلا لتدخل أقدم وأكبر كليتين من كليات جامعة لندن . فى هذا الصخب وهذه الحركة ، يشتغل عشرات الأساتذة وراء جدران هذه الكليات الحجرية السوداء ، ومئات المعلمين ، وآلاف الطلبة والطالبات .

ما أبعد الفرق بين ما يجرى وراء جدران كلية الملك فى الاستراند ، أو مدرسة العلوم الاقتصادية فى كنجز واى ، أو معهد الدراسات الشرقية فى مورجيت ، وبين ما يجرى أمامها فى الشوارع التى ارتفع الضجيج فيها حتى أصم الآذان ، وصار الوقت فيها يقاس بالدقائق ، ففى كل دقيقة ، تخرج آلاف الجنيهات من جيب الى جيب !



جامعة لندن

وبينما تعمل جامعة لنـدن بكلياتها هذه ، فى هذا الصخب وهذا الجلاد ، اذا باكسفورد، اذا بكمبردج ، فى راحة وهدوء ، فى عالم كأنه سحرى، لا تجد فيها بناءً يشمخ على أبنية كلياتها ، كما تتضاءل كليات لندن مع فخامتها أمام الشركات والبنوك التى تحيط بها!!

. . .

ومنذ نيف ومائة سنة فقط فى عام ١٨٢٨ أنشئت هذه الجامعة ، التى صارت اليوم جامعة جامعة ، وامتدت فروعها فى كل مكان،فى سوث كنزجتن الهادئة بين المتاحف، وفى الاستراند ، وفى الستى مركز البنوك ، وفى الريجنت بحدائقها ؛ اختلطت الجامعة بكل جو فى لندن ، وفتحت لها لندن صدرها .

ولا تقوم جامعة لندن فى سوت كنزجتن بالتدريس أو بالقاء المحاضرات الخاصة أو العامة ، اذ أنها تركت ذلك إلى كلياتها العديدة التى مازال عددها فى اطراد . فهذا البناء الفاخر المخطط فى سوث كنزجتن ، الذى قد علاه برج باسق كأنه مأذنة تونسية أو فنار ، ما بين متحف الحرب والمتحف الامبراطورى ، لم يعد هذا البناء الا حيث يجتمع مجلس ادارة هذه الجامعة العظيمة ، وحيث تعقد الامتحانات العامة فى قاعاتها الرحبة الواسعة .

ومجلس ادارة جامعة لندن يتكون من أربعة وخمسين عضواً ، يعين الملك من بينهم أربعة ، وتنتخب البقية من هيئات التدريس فى الجامعة وغيرهم.والامتحانات العامة التى تعقدها جامعة لندن ، فى هـذا البناء فى سوث كنزجتن لا تباريها فيها أية جامعة فى العالم . آلاف كل عام يدخلون هذه الامتحانات التى تتدرج وتتنوع حتى لاتدخل تحت حصر ، من شهادة القبول فى الجامعة إلى الدكتوراه فى العلوم والفلسفة والآداب ، ومن دبلومات الفنون الحربية الى الموسيقى الى الدين واللاهوت .

فاذا جاء شهر يونية صار هذا الطريق الذي يؤدى الى جامعة لنـدن والى متاحف

الفنون الطرزية والحرب وغيرها ، مزدحما كل يوم بفوج جديد من الطلاب ، هؤلاء بمثلثاتهم ومساطرهم فتعرف أن فى هذا اليوم ستحفل قاعات الجامعة بطلبة الهندسة ، ثم تغيب يوماً فتجد أن هذا الشارع قد حفل من جديد بذوى الياقات البيضاء المعقودة فتعرف أن هذا يوم طلبة اللاهوت .

وهؤلاء الآلاف من الطلاب الذين يدخلون هـذه الامتحانات ، ليسوا من أهل لندن ، وليسوا من أهل انجلترا ، بل هم من كل مكان ، من استراليا ونيوزيلندا ، ومن الهند والصين ومصر ومالطة وغرب افريقية ، ومن المانيا ومن ايطاليا ؛ فجامعة لنـدن تفتح أبواب امتحاناتها الى هؤلاء جميعاً ، فهى ليست جامعة للتدريس فقط بل هى فوق ذلك مجلس للامتحانات ، يمنح شهاداته ودرجاته المختلفة المحترمة . اذ أن بين أغراض هذه الجامعة ــ أو لعله من أهم أغراضها ــ أن تـكون نقطة الاتصال بين أنحاء الامبراطورية ، فالشاب الانجليزى الذى يرحل الى ناجيريا أو كينيا، دون أن يتم دراسته العالية، من الحـكمة أن تجعل تحصيله متصلا،بأن تفتح له جامعة لندنأبوابها دون شرط الا مؤهلاته العلمية

واذا ارتقى الزائر درجات الجامعة العريضـة العديدة الى القاعـة المعتمة بعض الشىء ، تنتظره درجات أخرى عـديدة تقوده الى قاعات ثـلاثة تسع الآلاف من الطلاب ، مستمعين أو ممتحنين . وفى هـذه القاعة تمثال ضخم للملـكة فـكتوريا ، كما تشاهـد فى جدار مدخل الجامعة لوحـة أخرى لهذه الملـكة وضعت تذكارا عند ما شيد هـذا البناء فى عهدها . وقاعات هذا البناء العديدة ازدادت ضيقا على ضيق بقماطر الـكتب التى كدست فيها المجلدات من السقف الى الأرض ، وازدادت ضيقا بالموائد التى تصف عليها من حين الى حين حقائب الجلد السميك ، الى الآن ؟ الى برمودا الى كلـكتا الى فلسطين ، هـذه حقائب الامتحانات فى طريقها الى ما وراء البحار !

وفى جاور استريت أقدم كليات جامعة لندن. هذه هى «الـكلية الجامعة»، ولعلها أروع أبنيـة كليات الجامعة بأسرها . بنيت حقا لـكى تـكون كلية جامعـة ، حدائق متسعة ، فى هذا الحى الذى تباع فيه الأرض بالفتر والشبر . وعلى كل جانب تطل أبنية الـكلية ، يتوسطها المدرج الـكبير ذو الأعمدة والتماثيل الاغريقية ، التى لا يجد كثير من الطلاب والطالبات مجلساً الا تحت أقدامها ، وكـكل بناء حجرى فى لندن ، قد صار هذا البناء ملطخا قاتما ، كأن حريقا شب فيـه أو لعب اللهب بسقفه ؛ وكنا جماعة المصريين فى هذه الـكلية ، كثيرا ما نتناقش فى أمر اسوداد هذا البناء وعن الحريق التى ربمـا شب فيه ، أو عن الضباب الذى لطخه على هذا النحو . ولـكن الحقيقة ، ان هذا الاغبرار قد جعل لهذا البناء روعة ، أشـبه شيء بروعة المعابد والأديرة القديمة .

وكنت من طلاب هذه الـكلية زمناً ، هجرتها الى غيرها وغيرها ، حتى لا أكاد أذكر كلية من كليات هذه الجامعة حتى دخلتها وتلقيت فيها فرعاً من فروع الدروس

لقد هبطت لندن ، ورأيت أبواب هذه الـكليات مفتوحة امام كل طارق، فصرت كأننى الطفل الذي نسيته أمه فى حانوت للعب ، ففتح عينيه على صناديقها المفتوحة والمغلقة ، فصار يجر هذه فتزمر ، ويهز هذه فتشخلل ، ويدوس هذه فتموء ، ويحمل هذه فتثب وتركض !

وهكذا كنت أنا اذ ذاك ، وهكذا دخلت الـكلية الجامعة فى جاور اسـتريت لأدرس علم المصريات ؟ ولست أدرى اليوم ما الحافز على هذه الدراسة ! ولـكننى كنت طالباً منتظما لا أنقطع عن حضور هذه الدروس ، فى الطابق الأعلى فى الجامعة فى ذلك المـكان الذي كدس بالتماثيل والمومياء المصرية وبقطع الخزف ، ثم برفوف الـكتب والمجلات القديمة والجديدة !

وكانت تدرّس لنا اذ ذاك مس مرى وكنت أعجب بهذه السيدة، ولـكننى كطالب

كنت أخافها ! لقد كانت نظراتها نفاذة الى قلوب طلابها ، وهى تحدق اليهم من فوق نظارتها التى تخفضها حتى قمة أنفها · وكانت لا تتهيب أن ترمى تلاميذها بكلمة تقريع اذا تلجلجوا فى الاجابة على اختباراتها التى لا تنتهى لا سيما فى اللغة الهيروغليفية والقبطية ، وكان يوم الجمعة مخصصاً لهذه الأخيرة ، وكانت دروسها صعبة ثقيلة ، وكنا نجتمع قبل الدرس لحل رموزه بالاشتراك .

وكنا اذا سرنا شوطا فى الدرس ، وقفت عن الكلام وفتحت صندوقا بجانبها اعتدنا على رؤيته وأخذت منه قطعة من الحلوى، وأعطته الى من بجانبها من الطلاب، وأداره بين زملائه ، وكثير من هؤلاء كن من السيدات العجائز اللاتى بلغن العقد السابع والثامن . وكنا ننتهز فرصة هذه الدورة لكى نحول العين عن الكتابة القبطية التى تجهد النظر ، وتستثير الأعصاب .

وكان أستاذ المصريات ـ ولا يزال ـ فى الكلية الجامعة السير فلندرز بترى ، وكان شخصية أعجب بها دون خوف ، ولكنه لم يكن يتردد على هذا المتحف الا فى فترات معينة ، وكان دائم العطف والابتسام والتشجيع للمصريين الذين يدرسون هذا الفرع ، وكان بذقنه الطويلة البيضاء كأنه برنارد شو ، ولكن ظهره قد تقوس ، بفعل السنين الطويلة التى قضاها منذ القرن الماضى فى مصر ، يعمل بجد فى البحث والكشف عن آثار الحضارة المصرية المدفونة .

وكانت دراسة هذا العلم تستلزم أن ندرس فروعا أخرى ، فى غير هذا المكان من الكلية ! ندرس علم الأحجار والمعادن ، ندرس المساحة !

لعل دروس المساحة هذه هى التى وضعت حدا لدراستى لعلم المصريات ، وجعلت الكلية الجامعة فى نظرى ثقيلة، وجعلت أستخف نفسى كلما أتذكر كيف كنت أقضى ساعتين فى كل أسبوع أحمل موازين المياه والسلاسل لنخرج الى حديقة الكلية نقيسها ونمسحها !

• • •

وفى مدرسة العلوم الاقتصادية، كنا ندرس علم حضارات الانسان، وكان علما طريفاً شيقاً . وكان أستاذ هـذا العلم ـ الأستاذ سلجمان ـ شخصية متميزة . كان إذا ألقى محاضرته ، كأنه يتكلم إلى نفسه ، ولا يكاد يشعر بأن هنالك من يقيد كلامه أو يدون ملاحظته وكان لا يلتفت إلينا إذا تكلم بل إلى السقف عادة ، ويجلس على مقعد ويمدد ساقيه على مقعد آخر !

وقليل منا من كان يفهم كل ما يقول ، فكان يستخدم المصطلحات الفنية دون حساب لهؤلاء الطلاب ، ولم أكن بين هذا القليل الذى يفهم محاضرته ، وإذا قص علينا حكاية عن رحلاته فى غابات أمريكا الجنوبية أو روى أفكوهة ، ذكرها بسرعة كأنها نظرية هندسية وسرعان ما يربطها بمحاضرته وبحثه ، دون أن يبتسم بل دون أن يعطى لنا مجالا للابتسام اذا كان قد فهم الحكاية أو الأفكوهة أحد منا !



الكلية الجامعة ـ أقدم كليات جامعة لندن

وفي شارع اشانسرى لين الذى يقودك من هوبورن إلىفليت استريت ، تنعطف فى شارع أكثر ضيقاً حيث تجد كلية بربك ، وقد كنت أرتادها ليلا ·

وحول هذه الـكلية أبنية الـكثير من الصحف والمجلات ومطابعها ، حتى انها تقفل هذا الشارع الضيق بعرباتها التى تحمل لفائف الصحائف والمجلات الى كندا واستراليا !

وهنا كنا ندرس الأدب الانجليزى ، والفلسفة والمنطق وعلم الأخـلاق . وكان الدكتور كيلنج مدرس المنطق غريباً فى مظهره وفى طريقته بعض الغرابة · وأكبر ظنى أنه اسكتلندى فهو يلبس بذلتين من الصوف الاسكتلندى السميك ، يتناوب استعمالها . وكانت له طريقة غريبة فى المشى . يحك حذاءه بالأرض حكا ، حتى كنا نعرف قدومه وهو فى أول الردهة . فاذا دخل أغلق الباب وراءه ، وحيانا وهو يدور بعينيه ليعرف من الذى تأخر عن درسه ، ويفتح حقيبته التى تلازمه وينثر أوراقه على المنضدة · لقد كان الدكتور كيلنج كأنه فيلسوف بالفطرة !

...

وفى حجرة الطلبة العامة فى كلية بربك كثيراً ما كنت أقضى ساعات اليوم ، أراجع فى دفاترى أو أرقب لاعبى الشطرنج أو الورق ، أو أجلس بقرب المدفأة ·

وطلاب هذه الـكلية ممن يعملون نهاراً ، فهم لذلك أعرف بالحياة وبقيمة الدرس والتحصيل من طلاب غير هذه الـكلية وكنت قلما أدخل فى حديث مع أحـد ، اللهم الا أولئك الرفاق الذين نجلس وإياهم فى دروس الأدب الانجليزى أو المنطق والفلسفةفكان لنا فى كل درس من هذه جماعة ، ولـكل جماعة ركن لايعتدى عليه أحد إذاحضروا هذه الدروس . وكانت الفتيات يجلسن فى الصفوف الأولى ، يجلسن جماعات ويخرجن كذلك .

وهن فى الجامعات الانجليزية اكثر نشاطاً وأكثر دقة من الشبان ، يحضرن بدفاترهن وأوراقهن كاملة وقلما يستمرن شيئاً من أحد ، ويدونّ مايلقى عليهن فى هذه المحاضرات كلمة كلمة ، وقلما يفوتهن شيء ، حتى الرسوم التوضيحية كانت تدون بأناقة ومهارة ..

وتراهن فى مكتبة الكلية يجلسن فى أركانها الخفية يراجعن أو «يبيضن» ما كتبن أثناء المحاضرة ، وقد ينقلن مذكرات طويلة مملة من كتاب بلا ضجر أو سأم .

...

وفى كنجز «كلية الملك» فى الاستراند ، قضينا وقتاً أكثر روعة ، لا تزال ذكرياته بارزة قوية .

وقد تمر على بوابة كلية الملك ، ولا تكاد تكتشفها أو تميزها بين هذه الصفوف المتراصة من مخازن البيع ذات النوافذ المكتظة بالملابس النسوية والأحذية والحلوى ، خليط من كل شيء

...

وكان لابد من أن نستعرض قبل الانتظام فى سلك الكلية ، فجلسنا فى حلقة طويلة نمر على عميد الكلية واحداً واحداً يفحص هيأة كل منا ويدرس نواياه وآماله وأحلامه ، فتذكرت يوماً مثل هذا مر عليه أكثر من عشر سنين حين دخلت المدرسة الابتدائية ، وجلسنا ونحن نرتعد ننتظر دورنا فى مقابلة الطبيب .

وكأنه كتب عليّ ألاّ أطلب العلم إلا فوق السطوح العالية ، وهكذا أخذت أعتلى الدرجات حتى وصلت إلى نهايتها ، إلى حيث كتب «قسم علم النفس» ، كأن هذا المكان برج فى قلعة من قلاع القرون الوسطى ، وكان فعلا برجا ، بسقوفه المنحدرة ، وكان الحمام يجتمع ويعشش على نوافذه ، وكنا ننظر من نوافذ هذا المكان إلى التيمز وإلى برج لندن وإلى وستمنستر وإلى كنيسة سنت بول . وفى هذا البرج

درست علم النفس ، أو على الأصح اغرمت بهذه الدراسة . وكان كل من حوى هذا القسم ظريفاً حبيباً ، أساتذته وطلابه ومساعدوه .



كلية الملك فى الاستراند

وكلما كتب لى أن أزور لندن ، كان لابد من أن أزور هذا المكان ، ولو كان خالياً من أساتذته وطلابه ، خالياً إلا من الأجهزة والكتب والاعلانات القديمة ، ثم ذلك المساعد الشاب ، الذى لم يكد يرانى بعدغياب سنين ثلاث حتى هرع إلى ينادينى باسمى الطويل، وأخذ يقص على خبر الاساتذة والزملاء القدماء، ومن نجح ومن أفلح، وعن مواضيع رسالاتهم وعن ابحاثهم .

ثم جاءنا المستر بارلت ذلك الأستاذ الظريف الذى كان يدرس لنا علم النفس التجريبي ، وأخذ يسألنى عن مصر وعن الشرق وعما صنعت بعلم النفس ؛ ولم أرد

إلا أن أهديه كتابى العربى فى علم النفس ، فأخذ يتهجى ويتمتم قراءة عنوانه ، فقد عاش ردحا يجرى ابحاثه فى جاوه . . .

. . .

وكان لى مكان مختار فى مكتبة هذهالكلية أنزوى فيه، وكان لكل طالب وطالبة مكانه المختار . والفتيات الهنديات شخصيات بارزة فى هذه الكلية ، بملابسهن الشرقية الزاهية الفضفاضة ، وكان بينهن الوسيمات الجميلات ، وكنت أغتبط بقربهن وكنت أشعر بغبطة ولذة لوجودهن ، وكنت أتباهى اذا ماوفدن على المكتبة وهن يجررن أذيال أقبيتهن التى تصبغ المكان بصبغة خيالية فتانة ، فى عينى وفى عيون الفتيات الانجليزيات وفى نظر الطلاب !

وكنت أختلس النظر إليهن ، وقد فتحت كل واحدة منهن حقيبتها الكبيرة ـ التى لاتتناسب مع شرقية الملابس الحريرية ـ ونثرت منها الأقلام والكتب والدفاتر وانكبت عليها قراءة وكتابة وتدويناً ، وكنت أتخيل هؤلاء وقد رجعن إلى الهند ، يوقظنها من سباتها ، يخلعن عن أهلها تقاليد الأجيال الرثة البالية .

لقد كانت هؤلاء الهنديات ، أكثر مايروعنى فى كليات لندن ، لقد كن أكثر روعة من الشبان الهنود بلحاهم المسترسلة وعمائمهم الزرقاء والحمراء الزاهية !

. . .

وفى ساعة الغداء لاتكاد تجد مكانا فارغاً فى مطعم الكلية الرحب ، حتى كنا نبكر قبل أن « تجبر » الأصناف الطيبة مما كان يقدم فى هذا المطعم،لاسيما بودنج البلح الذى كان صنفا ممتازاً عندى !

وكان الغداء لايزيد عادة عن قطعة من الجبن والخبز أو قطعة من السمك البارد وطبق أو طبقين من الحلوى ! ثم فنجان من القهوة أو الشاى !

وفى نادى الطلبة،قاعتان واحدة للطلبة وأخرى للطالبات فى بدرون الكلية،وليس

لهذا التفريق مجال فى كليات لندن الأخرى ، ولـكن لعل كلية الملك هذه التى أنشئت خاصة بالمرأة ، لم تر أن تقضى على تاريخها وتقاليدها ، فحافظت على هذا التفريق

وتخرج من باب الـكلية إلى الفناء الضيق ، ومن ثم تدخل فى نفق طويل مظلم يقودك إلى التيمز ، فلا تشعر على جـداره الصخرى الرحب بشئ من المتعة ، ولا يستثير خيالك المتعب بعد جهاد يوم فى ذلك البرج ، الذى ترى الحمام قد حام حوله وجثم على نوافـذه ، والذي ولا شـك ما زالت ترفرف عليـه روح أفلاطون وارسطو !

... ما أروع الذكرى . . ؟

فنانو الشوارع

أشعر بحسرة كلما أمر على هؤلاء الفنانين فى شوارع لنـدن ، لأن هؤلاء الذين قد جعلوا همهم اسـعاد السائرين ، لا تدل وجوههم على أنهم يعرفون طعم هذه المتعة أو تلك السعادة، وليس آلم للنفس ممن يريد تسليتك أو اسعادك وهو أكثر منك حاجة إلى هذه السلوى والسعادة !

وماذا تجـدى النغمات المنسجمة ، التى تبعثها الأصابع المرتعشة ، وترسلها الشفاه الصفراء الذابلة ؟ ومن ذا الذى يستسيغ أغانى الحب وألحـانه ممن عصفت به الفاقة لا الهوى ، والفقر لا الغرام ؟ ومن ذا الذى يستجلى الفن وانسجام الألوان من صاحب الوجه الذى لعبت به الريح حتى صار كالحا لا لون فيه ؟

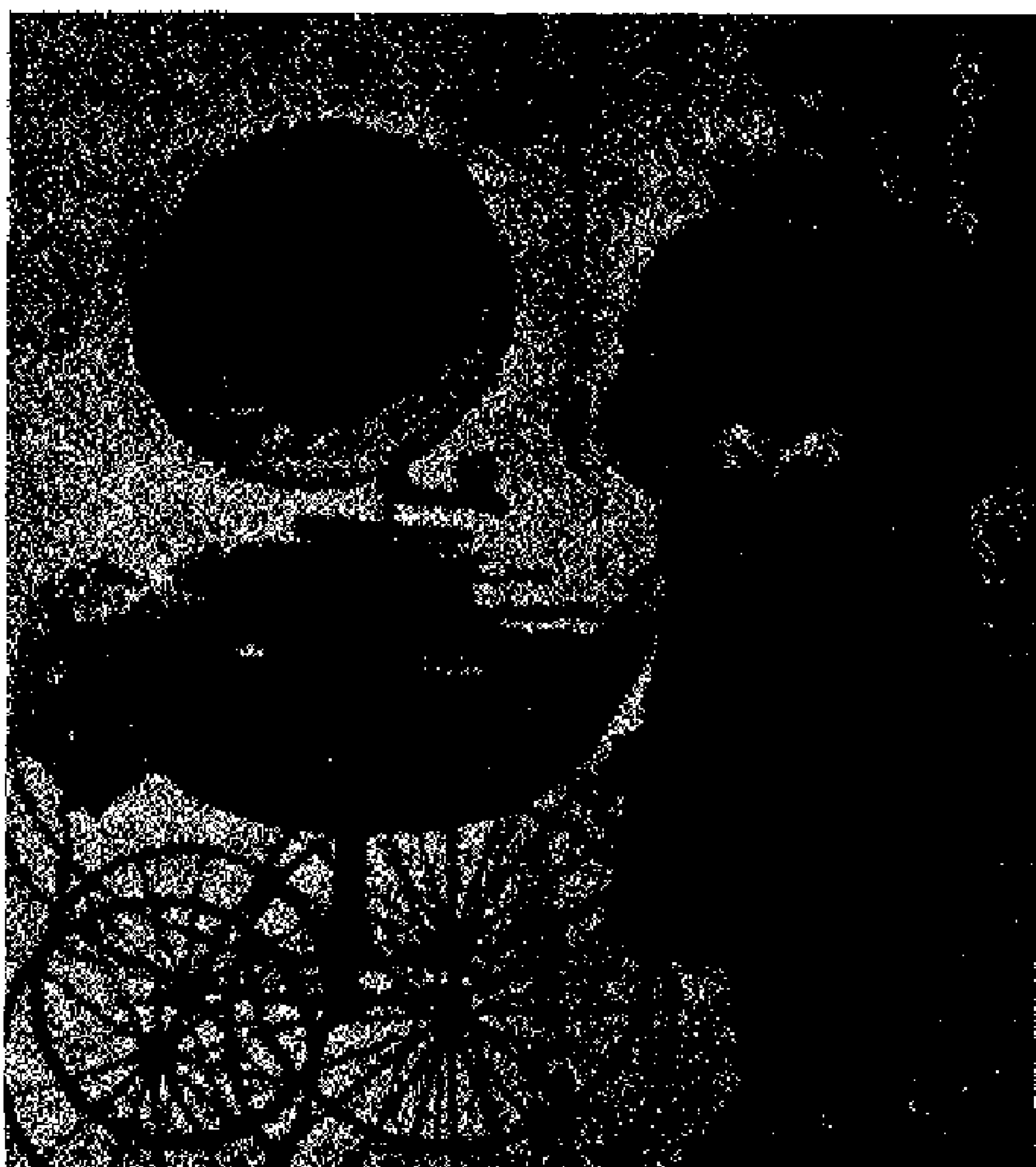
هكذا أشعر بشىء من الحسرة كلما أمر على هؤلاء الفنانيين فى شوارع لنـدن !

الفنان الموسيقى أتعس هؤلاء جميعاً . تراه واقفاً أمام أبواب الحانات ، ينفخ فى زمارته ، أو يرن أوتار قيثارته ، وقد علا الضجيج فى قاعة الحانة ، حتى انك لتخال هذه النغمات التى يرسلها عاجزة عن أن تلج الباب الذى يفتح ليقفل .

واذا ما انتهى من دوره ـ لم يشعر بذلك أحد إلاهو ـ أوقف العزف وحمل قيثارته تحت ابطه وقبعته فى يده يدور حول الواقفين والجالسين يجمع البنسات النحاسية .

وذلك الموسيقى الذى تراه أمام المطاعم، لايحمل قبعته مثله إلى حيث الآكلين ، فهو يكتفى بوضعها بجانبه،فاذا ماانتهى من الدور بدأ سواه حتى يمل هو من العزف والانشاد.

وكثير من هؤلاء المنشدين والعازفين من صرعى الحرب ، فبينهم المبتور الساق أو المقعد العاجز ، ولعلهم حملوا هذه القيثارات لا حبا فى الفن ، ولكنها الموسيقى لغة من عجز عن أن يصل إلى الناس بلسانه ، ليقص عليهم آلامه ومصائبه، ويستثير عاطفتهم وانسانيتهم .



وتمر على هذا الفنان العجوز الذى يثير فيك دون كلام كل عطف، تمر عليه وقدوضع ذلك الجرامافون العتيق ببوقه، وترى القرص يدور ولا تكاد تسمع صوتاً منبعثا منه ، إلا اذا انحنيت عليه وأدنيت أذنك اليه . وترى السائرين يقفون قليلا يمعنون النظر الىهذا الشيء المتحرك الذى قد انقرض من كل بيت الا من بيت هذا الرجل وترى السيدة تضع بنساً فى قبعة الرجل ، وهى تبتسم إلى الجرامافون الصغير المتحرك كأنهطفل يريد اضحاكها وقد أشغل جفونه النعاس !

وفى أيام الأحد أو الأعياد تجد جماعات هؤلاء الموسيقيين يسيرون صفوفا رأسية أو أفقية ، وينفخون فى أبواقهم لينتبه حتى من كان فى بيته ، وهؤلاء عادة من الجنود القدماء ، تعرف ذلك من الشارات والأنواط التى علقت على صدورهم ولكن الحرب الأخيرة قد ملأت الصدور بهذه الأنواط، حتى لم يعد عجيباً أن نراها على صدر كل سائل .

. . .

وجيش الرحمة بملابس أصحابه البيوريتانية الزرقاء يرج بدوره شوارع يوم الأحد الصامتة بفرقه الموسيقية وبطبله وزمره . فتراهم ينتحون زقاقا أو شارعاً مسدودا ،

ويقفون حلقة يطبلون ويزمرون وينشدون ، ويجتمع حولهم الأطفال والنساء والعمال العاطلون ، ولا يخلو الموقف من نكتة بارعة من هؤلاء المستمعين ، عن السيدة المتحمسة فى انشادها أو خطابتها .



ومصور الشارع أكثر حظا من هؤلاء الموسيقيين ، فلا تلمح فى فنه ذلك الأنين الصارخ بالشكوى ، فهو يعرض فنه الصامت صامتا ، وقلما يتخير شخصية باكية أو وجهاً حزيناً ، ليشرك السائرين معه فى ألمه وحزنه .

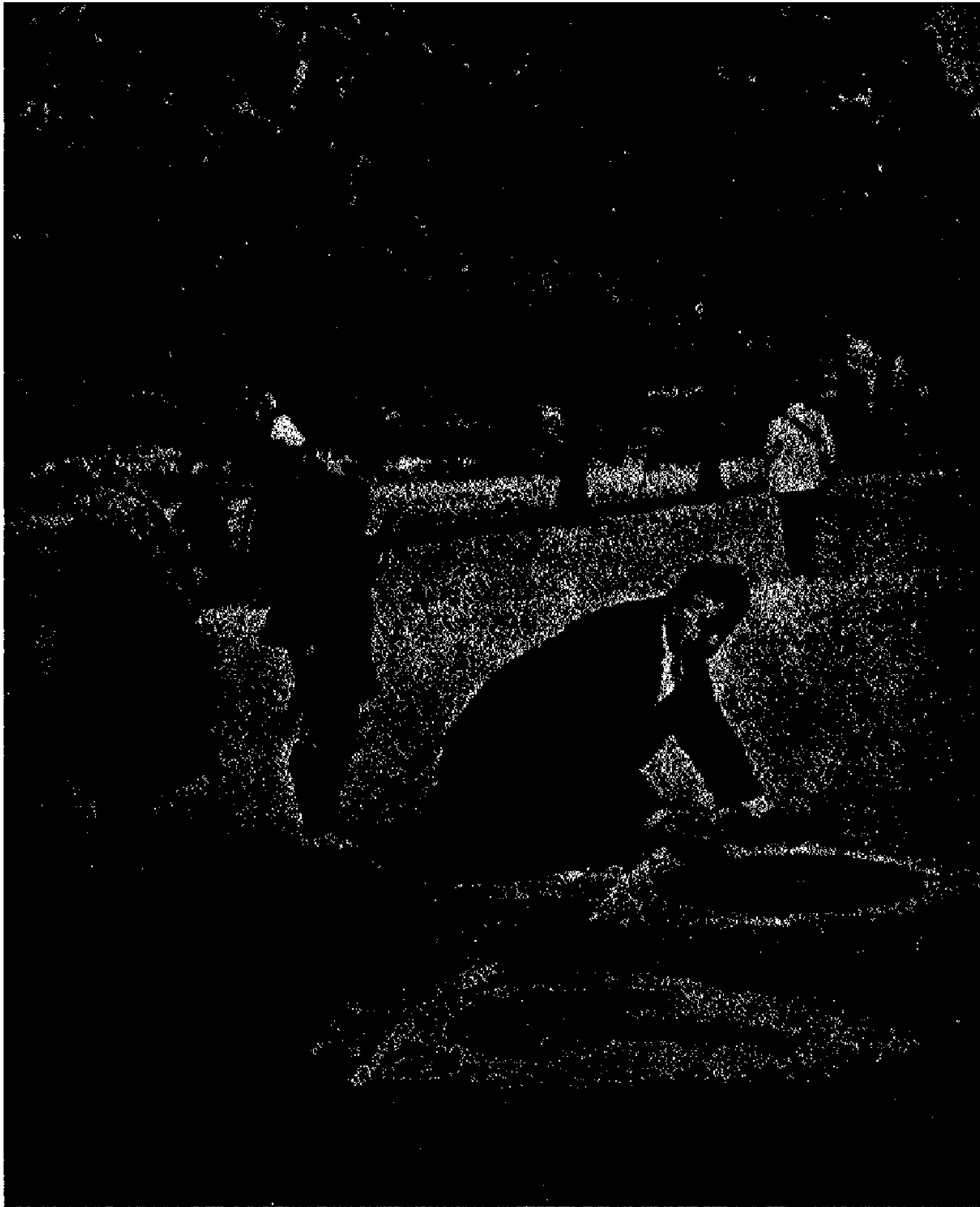
وهؤلاء المصورون على أنواع ، بعضهم قد جعل أحجار الشارع لوحات لفنه ، فتراه يرسم على كل بلاطة منها صورة كأنه يزخرف جدران دير . وأيام المطر لا يرحب بها هؤلاء الفنانون فهى تغسل ما صنعت أيديهم أو تجعلها باهتة لا روعة فيها ، وتجعل السائرين يهرولون ولا يلتفتون الى هذا الجالس فى ركن الشارع ، وقد محا المطر ما أخذ يفتن فى رسمه وتصويره .

ولكل فنان من هؤلاء مكان لا يتعداه ، تمر عليه وهو قابع فيه كل يوم ، وتمر السنون وهو هو فى مكانه ، وتلك الصور التى كان يرسمها منذ سنين لا يزال يعيد رسمها اليوم ، كأن الله لم يفتح عليه بفكرة جديدة طوال هذه الأيام. وربما كان فى ذلك

نوع من الاختصاص، فبينما هذا قد اختص بنقش صور الممثلين أو رجال السياسة ترى ذلك قد اختص برسم القطط والكلاب ، أو الزهور . كل لا يتعدى اختصاصه .

كما ترى ذلك الذى اختص فى الرسم بالفحم ، أو بالباستيل أو بألوان الماء أو الزيت ، أو الذى جعل فنه الرسم على القماش بالصوف ، وترى حوله الفتيات ينظرن الى مهارته وهو منهمك فى عمله لا يلتفت اليهن

وتمر على ذلك المصور المبتدىء الذى يحاول أن يجعل تصويره ناطقا ويأبى ذلك الفن الا أن يكون صامتا ؛ فترى الوجوه النسوية التى يرسمها كأنما شدت من آذانها ، ووجوه الساسة كأن عليها علامات البله ! تمر على هذا المصور الذى قد مسخ الحقائق فى فنه ، فتظن أن هذا المسخ ربما كان طريقة مبتكرة فى التصوير ! وما هو كذلك .



هايد بارك

لست أعرف مكانا أحب الى فى لندن من هايد بارك ، ولست أعرف مكانا لاتسأم من الترداد عليه ، ولا تمل من الاختلاف اليه ، مثل هايد بارك .

فى أيةساعة من ساعات اليوم ، وفى أية حالة نفسية ، يحلو لى السير فى هايدبارك. فى الظهيرة كما فى المساء ، وتحت المطر كما فى أيام الصحو ، وفى الليـلة القارسة كما فى اليوم الصائف ، وفى يوم الأحد كما فى غير هذا اليوم

هايد بارك لها جمالها فى كل يوم ، وفى كل ساعة من كل يوم ، ترتادها وأنت منهك متعب ، وتردها وأنت ساهم مفـكر ، وتزورها وأنت لاتعرف كيف تقتـل فراغاً انـكشف لك فى لندن . وفى كل ذلك تجد هايد بارك غير مملولة ، تجد فيها هذه المتعة والسلوى التى تبحث عنها .

...

ولا أظن مكاناً ربط اسمه باسم لندن كهايد بارك ، وكثيرون لايعرفون مكاناً فى لندن ولا يسمعون عن اسم فى لندن كهذا الاسم ، هايد بارك .

ومنذ سنين ، حين كان اسم لندن لايتعدى ما كنا نذاكره فى كتب الجغرافيا الابتدائية ، سمعت باسم هايد بارك ، وكان لهذا الاسم فى أذنى رنين لا أعرف سببه ، لعله تناسق فى الحروف . لقد كانت هايد بارك منبراً لخطباء الثورة المصرية فى لندن ، وكنت أتصورها مكاناً غريباً معتما ، قد زاد إعتاماً بدخان الغلايين . وكنت أتصور

الخطيب ، كأنه خطيب المسجد ، يتكلم بتلك اللغة التى لم أكن آمل يوماً أن أتلوكها أو أن أفهمها ، لهذا كنت أتصورها فعالة قوية ، لعجزى عن فهمها .

كانت تلك الصورة عن هايدبارك وعن المجاهدين المصريين فى لندن وعن الداعين لتحرير مصرفى هايد بارك ، أقرب شئ إلى الحلم البعيد !

ودارت الأيام دورتها ، وهبطنا لندن فى تلك الليلة التى قد تكاثف ضبابها ، وسارت بنا العربة بحذاء سور ممتد مظلم ، وقال قائل هذه هايد بارك ، فتجددت الذكرى ، وأخذ ذلك الحلم يبعث من جديد ؛ وليس أروع من أن ترى هايد بارك فى مثل هذه الليالى المظلمة الجامحة ، ليس أروع من أن ترى هايد بارك تحت مساقط المطر ولم يبق من روادها إلا الذين لا يفزعهم الظلام ولا يثقل عليهم المطر .

والذين يبحثون عن جمال الأزهار وعن فتنتها تخونهم هايد بارك . فهى ليست تلك الحديقة الجميلة المنسقة إلى صفوف وأحواض يفوح منها شذى الورد أو عبير الزهر ، وهى ليست كذلك الحديقة ذات العرائش الظليلة الفتانة بألوانها الزاهية المتناثرة ؛ لا ، ليست كذلك هايد بارك ، وليس فيها فتنة أو سحر من هذه الناحية .

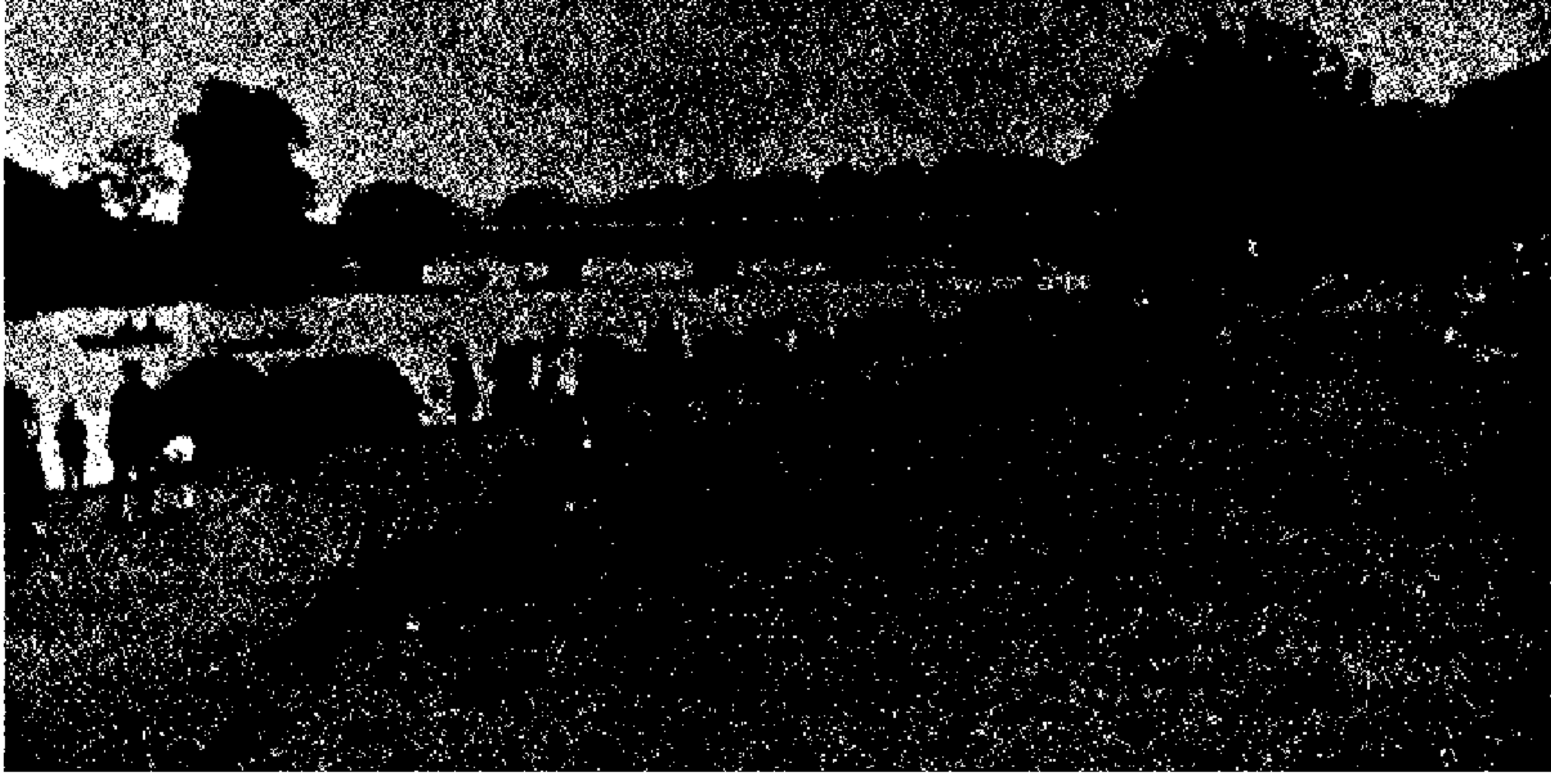
فسيح من الأرض ، فسيح أخضر لانهاية له من الحشائش ، وأشجار البلوط والقسطل تحف بهذا الفسيح ، وتتجمع حينا كأنها غابة فى برية موحشة ، وتتفرق فترى كل شجرة منها قائمة بنفسها رافعة رأسها كأنها حارس فى هذا الفسيح .

ليست فتنة هايد بارك فى زهورها أو تنسيقها ، ولكن هذه الخضرة الفسيحة التى تملأ العين كما تملأها مياه المحيط الزرقاء المترامية إلى الأفق البعيد ، وهذه الأشجار المتجمعة أو المتفرقة ، وذلك النهير الذى ينساب بهدوء ورفق فى وسطها ، هذا كله سحر هايد بارك !

...

تدخل هايدبارك من كل باب ، ومن كل مكان ، فهى قلب لندن أو هى فى قلب لندن

تدخلها راجلا كما تدخلها فى عربتك أو سيارتك ، فهذه يسمح لها بالدخول كما يسمح للسائرين على الأقدام . وترى صفوف هذه العربات الارستقراطية على ضفاف السربنتين فى أيام الصيف ، أو تحت ظلال أشجار القسطل المسنة .



السربنتين

والسربنتين النهر الاصطناعى الذى يشق هذه الحديقة ، كما يشق حدائق كنزجتن التى لا يفصلها عنها الا طريق مسور ، هـذا النهر يجعل هايد بارك متجددة كمياهه ، ويجعل التسلية فيها لا تنضب .

فى صباح الأحـد ؛ تجد المقاعـد الخشبية المصفوفة على ضفافه عامرة بالجالسين أفراداً وجماعات ، كل جماعة معها كلبها ، حـتى لا يقل مجمع الكلاب فى عدده وفى مرحه ، عن مجمع الصغار والأطفال اللاعبين ، الذين يما كسون هـذه الكلاب فيرمون اليها بالكرات وقطع الأخشاب فى مياه السربنتين ، فتتنافس الكلاب فى الوصول اليها مخـترقة أسراب الأوز والبجع البيضاء التى تسرح وتمرح طليقـة على مياهه الهادئة .

والسباحة على مياه السربنتين مباحة فى أماكن معينة ، فيها الأكشاك والمزالق وتراها عامرة فى أيام الصيف ، حـتى لا تـكاد ترى على ضفة السربنتين حيث يباح

الاستحمام الا رءوس السابحين والسابحات ، وعلى رماله عراة الظهور والسيقان قد لوحتهم الشمس ، وجعلت أجسامهم تتقشر كما تتقشر أجساد الثعابين !

وفى أيام الشتاء القارسة ، وفى الصباح المبكر ، لا تجد مياه السربنتين المثلجة خلواً من أولئك الشبان الذين قد قطعوا على أنفسهم أن يغمروا أجسامهم فى مياه السربنتين كل صباح ، فى أيام الصيف البديعة ؛ وفى أيام الشتاء القارسة على السواء

وفى بعض أيام الشتاء ، تقسو الطبيعة حتى تجمد مياه السربنتين، فيصبح كالمرآة الصقيلة ، تحفه أشجار عارية نفضت أوراقها الخضراء ، وفى مثل هذه الأيام الشاتية يصبح السربنتين متعة جديدة ، لهواة الانزلاق على الثلج ؛ ولا تفقد مياهه المتجمدة أولئك السابحين الذين يبحثون عن فجوة فى سطحه الثلجى ليغوصون تحت الثلج فى مياه النهر الدفينة .

وقوارب المجذفين على مياه السربنتين لاتقل جمالا ومتعة عن أسراب البط والبجع البيضاء التى تترك نفسها على سطحه يدفعها الماء أينما سار . وفى كل قارب مقعدان للمجذف ولمن يدير دفة القارب، وترى الفتيات باذرعتهن المكشوفة وصدورهن العارية يمسكن حبل هذه الدفة ، وينظرن نتيه إلى المجاذيف النى تضرب صفحة الماء الساكن بانتظام ، ويدرن أعينهن إلى ذراعى الشاب العاربتين التى تدير هذه المجاذيف !

وترى الصديقتين لاتنتظران بعض تلك الأذرع المفتولة ، بل تهرولان إلى أحد القوارب المصفوفة على ضفة السربنتين، وتخلعان معطفيهما وتأخذ الأولى موضع الفتى حيث المجاذيف ، وهى تبتسم ؛ ثم تتبعها بنظرة لها معناها عند صديقتها

. . .

لم تعد هايد بارك كما كانت بالأمس معرضاً للازياء ، وفى ضحى أيام الآحاد كان ذلك الطريق المظلل الذى يطل على بارك لين، معرضاً لسيدات الطبقة الارستقراطية، يعرضن فيه ــ وهن يسرن سبهللا ــ أحدث الأزياء ، وكان الكثير من أهل لندن، لاسيا من

السيدات ، يهرعن الى حيث هـذا الطريق ويجلسن على مقاعـده يراقبن أسراب هؤلاء السائرات ، ويأخذن عنهن أحدث الأزياء !



هواة الخيل فى هايد بارك

ولم يبق من تقاليد العهد الماضى هذه ، الا أسراب الخيل التى تشاهدها من حين إلى حين فى طريق « الروتن رو » الذى ترك كماهو ولم يرصف ، لـكى يجد هواة الخيل مجالا فى قلب لندن لهذه الرياضة .

واقتناء الخيـل فى لندن ، لم يعد ميسوراً كما كان فى القرن المـاضى ، لهـذا ترى أعين الجالسين سرعان ماتتحول إلى هؤلاء الهواة بملابسهم الصفراء وكرابيجهم القصيرة ، وهم يدورون حول هايد بارك فى هذا الطريق !

وتجد عائلة بأسرها على صهوات هـذه الجياد ، تجد الشيخ والزوجـة والفتيات والأطفال ، يتخطرون بشىء كثير من الاعجاب بالذات ، وينظرون بشىء كثير من التيه إلى عيون المعجبين من الجالسين على ضفاف السربنتين .

منظر فتان !

. . .

ورواد هايد بارك من جميع الأوساط والطبقات . وفى أيام الأحـــد ، وفى أيام

الصيف بجد هايد بارك ، ومروج هايد بارك الفسيحة عاصة بهؤلاء جميعاً :

جماعات العمال ، والعمال العاطلين ، جالسين على الحواجز الداخلية الواطئة ، أو نائمين تحت ظلال الأشجار ، أو تحت عين الشمس الدفئة .

وجماعات الفتيات العاملات ، من خادمات المنازل والمطاعم والمتاجر ، يملآن ممرات هايد بارك وطرقاتها ، يوزعن ابتساماتهن على هؤلاء الجالسين ويجبن على الملاحظة بالملاحظة ، والنكتة بالنكتة ، ويرددن على تحية هؤلاء الجالسين بلا كلفة ولا امتعاض .

ثم جماعات الحرس الملكى ، بمعاطفهم الحمراء الزاهية ، شخصية ممتازة بين رواد هايد بارك فى أيام الأحد ، كل يتأبط ذراع صديقته التى تسير بتيه وقد غمرت عينيها ألوان هؤلاء الحراس الحمراء القانية !

وحول كشك الموسيقى ، تجد الآلاف من الجالسين والجالسات، لاسيما من العجائز اللائى يقطعن الصباح كله يستمعن الى الموسيقى ويقرأن ما معهن من قصص أو صحف .

. . .

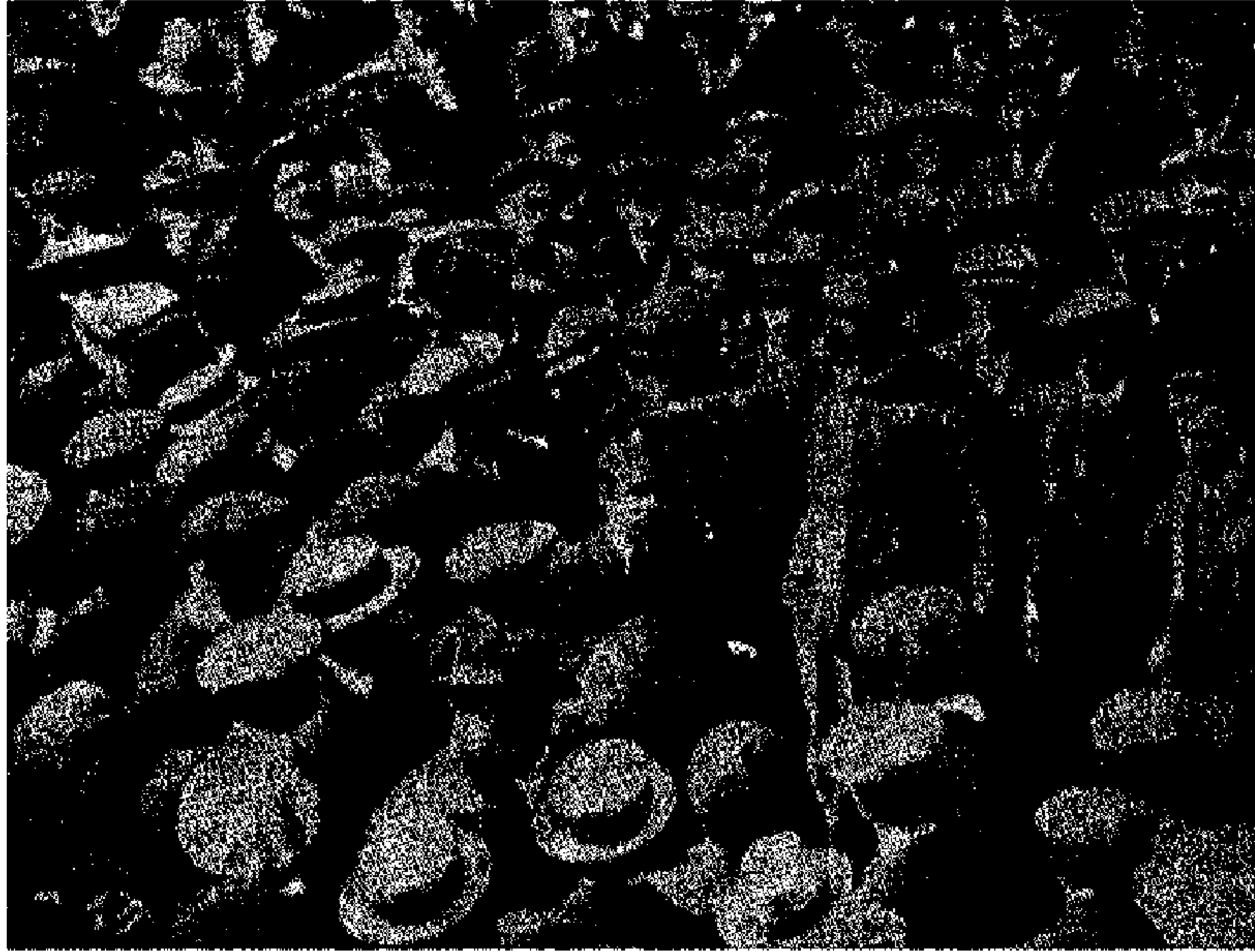
واذا دخلت هايد بارك من حيث الماربل آرش ، فانك تمر على مجامع الخطابة . عشرات من الخطباء ، ومئات من المستمعين والمستمعات .

وهذه المنابر الخشبية يؤجرها هؤلاء الخطباء ببعض شلنات ، يؤجرها من أراد ، وكل من تحار فى رأسه فكرة وكل من يستهويه مبدأ يريد أن يروج له . وهؤلاء الخطباء من جميع الطبقات ، من العامل العاطل الى عضو البرلمان ، وتجد مع كل واحد من هؤلاء اتباعه ومستمعيه ، يقفون حوله حلقات حلقات . وحرية الرأى مكفولة فى هايد بارك ، وليس لمستمع أن يقاطع خطيباً ، وليس لمستمع أن يكره

خطيبا على السكوت ، ولو كان ينادى بقلب نظام الحكم ، أو كان ينقد الحكومة نقداً مراً .

وكثير من خطباء هايد بارك من أولئك الذين جعلوا الخطابة مهنة لهم ، تراهم هنالك كل يوم ، أو فى أيام معينة كل أسبوع . وكثير من هؤلاء يخطبون فى كل فن وينتقلون من بحث الى بحث ، كيفما تتوارد خواطرهم ، والجمهور يستمع ولا يحاول تسخيفهم .

وقد يعيد الخطيب من هؤلاء ما قاله بالأمس والأمس البعيد ، ويكرر افكاره ونكاته وألفاظه . وكثير من رواد هايد بارك لا سيما من العمال العاطلين يعرفون هؤلاء الخطباء ، وتراهم يسبقونهم فى نكاتهم المحفوظة ، لا لغرض سوى أن يكون الجمع أكثر مرحا . وخطباء الدين كثيرون فى هايد بارك ، وتجد منابرهم متجاورة ، هذا يبشر بالكاثوليكية وهذا بالبروتستنتية ، وهذا بالكنيسة الانجليزية ، ثم هذا



حلقات الخطابة

بالصهيونية وبجانب هؤلاء ترى الهندى الذى يبشر بالبوذية . وترى الانجليزى يتنقل بين هؤلاء جميعاً ، يستمع اليهم بلا تفريق ، ولا تـكاد تراه يتحمس لخطيب ما ، اللهم الا اذا كان عارفا بأصول النكتة البارعة .

وليس برود المستمعين أشد من برود هؤلاءالخطباء ، فترى الخطيب الذى يقف على منبر من المنابر الفارغة ، يتكلم ويشرح ويفند ، ولا تجد حوله مستمعاً أو تجد أمامه انجليزيا واحدا ينصت اليه وهو يدخن فى غليونه وقد يناقشه ويستوضحه ، ثم تراه ينصرف اذا مل الحديث ، تاركا هذا الخطيب المتدفق وحيداً يتحدث الى نفسه .

وما من مشكلة عالميـة أو خاصة الا وجدت طريقها الى منابر هايد بارك ، وما من مسألة اقتصادية أو سياسية أو دينية الا وبحثت على منابر هذه الحديقة ، ويسمع لها الانجليزى سواء أ كانت تعنيه أم لا تعنيه .

وها هم دعاة الشيوعية بأعلامهم الحمراء ترفرف على منابر هايد بارك ويجمعون حولهم الآلاف من الانجليز ، وهاهم دعاة الوطن القومى من اليهود بأعلامهم الزرقاء يحاولون أن يثيروا حماس الانجليز ضد الحـكومة الألمانية بلا جدوى ، وترى الهندى الذى يناهض الاستعمار الانجليزي ويطالب بحرية الهند ، وترى الخطيب الايرلندى الذى ينادى بانفصال ايرلندا من الحـكومة المتحدة والذى لا يتورع عن لذع الانجليز بقارص القول ، وهم حوله صامتون الا اذا تعرض الى ناحية طريفة شائقة !

...

وفى الليل تزيد هايد بارك فتنة وسحراً ، وفى الليالى المقمرة الناصعة ، أو فى الليالى المظلمة الدامسة لا تفقد هايدبارك روادها من الفتيان والفتيات الذين يحلو لهم الانبطاح على هذه المروج الخضراء ، وتمر على هؤلاء العشاق من رواد هايد بارك ، فلا تجد من يرفع اليك نظره سائلا أو متسائلا !

. . .

هذه هى هايد بارك التى كانت يوما حديقة ملكية مغلقة فى وجه الشعب . هايدبارك التى وان كانت خالية من أحواض الزهور، الا أنها بنهرها المنسكب، بقواربها، بكلابها وجيادها ، بمنابرها ، بفتيانها ، وفتياتها ، وبروح الشباب والحياة التى تتدفق فى جوانبها ، بهذا كله قد صارت كعبة اللايين من أهل لندن ، ومن زائرى لندن .

فاذا ما ذكرت لندن ذكرت هايد بارك الحديقة المتجردة . .

ايام الزهور

فى الحادى عشر من شهر نوفمبر ، تنتشر فى شوارع لندن بائعات الزهور الحمراء .

والحادى عشر من شهر نوفمبر هو يوم الهدنة ، وهـذه الزهور الحمراء هى زهور البوبى ، التى كثيراً ما كنا نراها مزهرة فى حقول القمح والشعير دون أن ينبتها زارع . وهذه الزهور الحمراء الاصطناعية ، ليست تمثـل زهرة البوبى التى تنبت فى الحقول الانجليزية ، بل تلك الزهور القانية التى كانت تغطى سهول الفلاندرز اذا ما أقبل الربيع ، سهول الفلاندرز التى قد اصطبغت بدماء الجنود ، فى سنى الحرب الأخيرة! وليس أدل على دماء الضحايا من زهرة البوبى ، الزهرة الحمراء القانية ، ذات القلب الأسود الفاحم . الحمرة رمز التضحية ، ثم السواد رمز الحزن .

ومنذ الصباح الباكر ، تخرج هؤلاء المتطوعات ، تخرج بصناديقهن التى رتبت عليها زهور البوبى ، وتحمل علب الصفيح المغلقة التى تجمع فيها ما يجود به المشترون، اذ ليس لهذه الزهور ثمن مقدر ، فقد تدفع بنساً واحداً ثمناً لها وقد تدفع أضعاف هذا القدر ، وليس أقدر من الزهور على تمثيل العواطف الانسانية ، وليس أقدر من زهرة البوبى الحمراء والسوداء على تمثيل هذه العاطفة التى يفيض بها قلب كل انجليزى فى يوم الهدنة . .

وليس أعرف من هؤلاء السيدات والفتيات المتطوعات باثارة العاطفة الانسانية فى نفوس السائرين ، فتراهن يقفن أمام المطاعم ، وعلى أبواب محطات الترام الأرضى ،

وفى أركان الشارع ، يعرضن زهورهن الحمراء ، ويعرضن ابتساماتهن معها . .

ولا تجد الانجليزى الذى يتهرب من شراء زهرة البوبى ، الطفل والشيخ ، والعامل والعاملة ، والسيدة ورجل الأعمال ، تراهم يسعون الى حيث المتطوعات ، فاذا ماانقضى ذلك اليوم ، ترى زهور البوبى قد تحولت الى باقات فى كل بيت تحفظ الى أن يحين اليوم الحادي عشر من جديد .

وتتفنن هؤلاء المتطوعات فى اقتناص الشخصيات البارزة فى لنـدن ، الوزراء وأصحاب البنوك ، ولـكن لا تراها ترهق سائراً بالسؤال ، ولا تراها تلح فتثقل عليه ، فهى تعرف ان العواطف تدفع الى الاحسان من غير سؤال أو الحاح ، ولا ترى هذه السيدة



بائع الصحف يشترى زهرته . .

المتطوعة تقترب ممن تعرف أنه أجنبي ، حتى لا تكرهه على احسان لا يدفعه اليه شعور أو عاطفة . .

. . .

وفى يوم من أيام يونية الصائفة ، يقيم لندن عيداً آخر من أعياد الزهور . هذا هو يوم الملكة الاكسندرا ، هذا يوم المستشفيات ، وكل ما يجمع من أثمان هذه الزهور يوزع على المستشفيات .

وترى فى هذا اليوم ذلك الجمع من الفتيات الذى تراه فى يوم الهدنة ، والكثير منهن من طالبات الجامعات ، أو من سيدات الطبقات الراقية .

ويخرج الملك كما تخرج الملكة فى أيام الزهور هذه ليبتاع زهرته . ممن تكون مجدودة موفقة فتكون فى طريقه حينذاك ، وهكذا تندمج الأسرة المالكة الانجليزية فى الشعب ، وتشاركه فى عواطفه ، وليس هنالك من العواطف الانسانية ما لا تفيض فى أيام الزهور وفى أعياد الاحسان .

النادى المصرى

منذ عشر سنين ، أنشىء هذا النادى المصرى فى لنـدن ، فى هذا المـكان نفسه ، المنزل الحادى والسبعين فى بيكر استريت · بناء ذو طابقين ، قد أثث تأثيثا فاخرا أنيقا ، به حجرات للقراءة والجلوس والسمر والطعام ؛ ثم للبلياردو ثم للورق !

ولـكل غرفة من هذه روادها · ولـكل غرفة من هذه جـوها الذي تتميز به . والـكثير من الطلاب المصريين فى لندن ، لا ينقطعون عن الترداد على هذا النادى ، يأ كلون فيه ويجتمعون فيه ، ويذا كرون فيه ، تراهم فى كل وقت . وكثير من هؤلاء يعيشون سويا فى منزل واحد ، يتحدثون بالعربية ، ويتباحثون فى دروسهم بالعربية ويقرأون الصحف العربية بانتظام، ويأ كلون الطعام المصرى الذى قد يطهونه فوق ذلك فى بيوتهم ، وهكذا يعيشون فى لندن فى جو غير خالص ، ويقضون السنين فى لندن ولا يعرفون شيئا عن الحياة الانجليزية الصحيحة ، بل ويلوكون الانجليزية كما كانوا يلوكونها عندما هبطوا لندن لأول مرة .

وبعض هؤلاء الطلبة المصريين فى لنـدن لا يعرفون الطريق الى بيكر استريت ، ولا يرغبون فى الوجود فيه ! هؤلاء يتغالون كذلك فى وجهة نظرهم ، ويفقدون متعة لا يجدونها فى لنـدن العظيمة الـكبيرة ، الا فى هذا البناء الأحمر فى بيكر استربت ، حيث النادي المصرى . .

..

وفى حجرة المكتبة ، تجد أولئك الذين أغرموا بكتابة الخطابات ، تجد هؤلاء كلما فتحت باب الغرفة يكتبون ويكتبون ولا يملون من الكتابة ولا يرفعون رءوسهم الا ليبحثوا عن الورق الأبيض !

وهدوء هذه الغرفة ، وقماطر الكتب التى بها ، وأثاثها المريح كل هذا يجعلها مكانى المختار، إذ ليس فيها مايثير الأعصاب الا هؤلاء الذين لايملون من كتابة الخطابات الذين يملأون عشرات الصحائف كل يوم، ولا أكاد أتصور ماذا يكتبون؟ هؤلاء الذين لا أحتمل رؤيتهم ، لأننى لا أحتمل أن أجلس هذه الجلسة مثلهم لأكتب « بعد التحية . . أرجو أن تكون والعائلة بخير . . » هذا الكلام المتكرر الجامد .

وفى قاعة الاستقبال الكبيرة ، ذات المسرح المظلل ، الذى اذا نظرت خلف ستائره اكتشفت أكوام المقاعد المغبرة ، فى هذه القاعة تجد قراء الصحف العربية ، وهواة الشطرنج أو الكلام والمجالس .

وفى كل أسبوع ترد الصحف المصرية على هذا النادى مرة أو مرتين ، أو ثلاثة ، ويعرف هؤلاء الهواة هذه المواعيد فينتظرونها بلهفة ، يجمعونها حولهم كومة واحدة ويتبادلونها . وقليل من المصريين فى لندن من يعنى بشؤون السياسة ، لهذا كانت الصحف التى لا تنتمى الى أحزاب ظاهرة أكثر هذه الصحف رواجا فى قراءتها . واذا جاء قارىء جديد ، حمل هذه الكومة من الصحف ووضعها بجانبه ، وبدأ يستعرضها فى سكون حتى يكتشف فيها خبراً طريفا .

وتكبر حلقات الجالسين فى هذه القاعة فى أيام الصيف ، حيث يفد على لندن الطلاب الذين يدرسون فى غير جامعتها ، وترد وفود الزائرين من مصر .

وهذه الطيور الصيفية التى تهاجر من مصر على أنواع ، منهم طلاب لندن القدماء الذين يرجعون الى لندن من حين لحين ، لاستعادة الذكرى أو لاتمام بحث أو دراسة .

ومنهم أغنياؤنا من ذوى الأعمال أو من طالبى الاستشفاء ، أو من المحالين على المعاش من موظفى الحكومة ، وكثير من هؤلاء يزورون لندن على جناح السرعة بعد قضاء الصيف فى باريس .

وفى مثل هذه المجالس المختلطة ، وفى هذه القاعة الرحبة ، وفى شهور الصيف ، كثيرا ما تحتدم المجادلات والمناقشات ، بين طلاب لندن وبين هؤلاء الشيوخ الزائرين يحتدم الصراع بين الشباب المتعلم المثقف وبين فلول الجيل الماضى من المحافظين ، بين أنصار الاصلاح والتجديد ، وبين أنصار القديم .

...

والحجرة الزرقاء الضيقة فى هذا الطابق ، قلما تغص بروادها كما كنا نعهدها من قبل . لقد صار من التقاليد المتوارثة أن تخصص هذه الحجرة للسيدات ، المصريات بالطبع . وهكذا جرى العرف ، اذا ما وفد الطالبات المصريات على هذا النادى ، لقراءة الصحف ، أو للمقابلة أو لحضور مناظرة أو محاضرة أو محفل من محافل السمر .

وكانت هذه الحجرة فيما مضى غاصة بصاحباتها ، حين كان عدد هؤلاء الطالبات فى لندن وفيرا ؛ وكنت اذا مررت بها ، تسمع من خلف بابها المغلق صيحات المتجادلات والمتحمسات ، كم تسمع رنين الضحك ، وكن يعقدن فى هذه الغرفة الزرقاء الصغيرة اجتماعاتهن حين كانت لهن جمعيات منذ سنين . . .

وكن ينقسمن الى طوائف وشعب ، ولا ترى واحدة منهن فريدة ، بل لكل صديقتها القريبة تماشيها وتجالسها وتساكنها . وكن فى محافل السمر وغيرها مما يعقدها النادى ، يجاهدن فى أن يظهرن كما يجب أن تكون الفتاة التى أخذت قسطا طيباً من الثقافة الانجليزية ! لهذا كن لا يتكلمن عادة الا بهذه اللغة ، والكثير منهن يحذقنها جد الحذق . وهذا استعداد نسوى تتميز به المرأة ..؟

. . .

ولقاعة البليارد روادها ، وما من مصرى وفد على لندن الا جرب مهارته فى هذه اللعبة ؛ وترى فى هذه القاعة وجوها لا تكاد تفارقها ، يلعب أصحابها بانتظام كما يلعبون بمهارة ، وترى من يتناول طعامه حول مائدة البليارد دون أن يترك اللعب ، يتناول قطع الساندوتش أو أقداح الشاى والكيك .

. . .

وليس أرذل من حجرة الورق فى النادى المصرى . وليس من حجرة أثارت النقاش والجدل حولها كهذه الحجرة ، وليس من حجرة قسمت أعضاء هذا النادى فرقا كما قسمتهم هذه الحجرة . وهى هى كما كانت من قبل لها روادها وزبائنها ؛ ولا أذكر أننى كنت أدخل هذه الحجرة مرة كل عام ، واذا دخلتها كنت كالغريب التائه . لهذا كنت أكرهها وأكره حتى البحث عن أصحابى فيها . . .

وترى زبائنها كمتعاطى المخدرات ، يقطعون الساعة تلو الساعة فى مقاعدهم لا يتزحزحون ، فى جو مغبر من أنفاسهم ومن دخان التبغ ، وتدخل عليهم فلا يكادون يرفعون أعينهم من الورق ، واذا نظروا اليك نظروا اليك بعيون فارغة ، وفكر مشتت ، ولا تكاد تكلم واحداً منهم ، أو تفضى اليه بأمر أو تطلب منه شيئا .

. . .

وحجرة الطعام عامرة دائما بالآكلين .

لقد صار النادى المصرى فى السنين الأخيرة ، أكثر شرقية من ذى قبل . فاذا ما دفعت الباب الداخلى ، وكان الوقت ظهراً ، هبت عليك رائحة تذكرك ببيت مصرى تدخله فى مثل هذه الساعة .

وفى مثل هذه الساعة يكثر الوافدون من المصريين على هذه الدار الحمراء فى بيكر استريت ، تقودهم هذه الرائحة التى هبت عليك حين دفعت الباب الداخلى . تقود

ذلك الذى يسكن فى أطراف لندن الجنوبية الى بيكر استريت ليتناول طبقا من الارز !

هـذا هو التجديد فى النادى المصرى منذ أن عرفناه من سبع سنين ، وما هو بتجديد ، فنحن لانرحل الى لندن لنبحث عن الارز وغير الارز.

. . .

وفى الساعة الحادية عشرة يقفل النادى المصرى أبوابه ، وكنت ـ منذ زمن ـ ترى ذلك الخادم الارستقراطى « باركر » بملابسه الزرقاء ، يدور حول غرف النادى ينبه اللاعبين والمتسامرين بأن الساعة قد أزفت، وكانت لاتجدي المماطلة معه ، اذ كان يعود ويعيد التنبيه والملاحظة . . .

. . .

وفى الساعة الحادية عشرة تمر على البناء الحادى والسبعين فى شارع بيكر ، فتجد البناء مظلماً الا من حجرة يبص منها النور بصيصا

هذه هى حجرة الورق ، أرذل حجرة فى النادى المصرى الملكى فى لندن . . .

الرياضة

لقد أخذت الرياضة على الانجليز كل طريق وصارت الرياضة مظهراً هاماً للحياة الانجليزية ، بل لعلها صارت أوضح هذه المظاهر جميعاً .

فى كل شيء فى لندن تتلمس أثر الرياضة ، وتتلمس مبلغ تأثير الرياضة على الحيـاة الانجليزية، وعلى تفكير الشعب الانجليزى جماعات وأفرادا. فى الصحف ، فى الـكتب فى المطاعم ، فى دور السينما ، وراء جـدران الجامعة والمدارس ، فى البيوت ، فى الأندية، فى الحدائق والمتنزهات ، فى كل هذه وفى غيرها تلمح أثر الرياضة .

هذه الطبعات العديدة التى تصدرها الصحف المسائية فى لنـدن ، ليس فيها من جديد الا أخبار الرياضة ، وهذا الهامش الذى يترك عادة لأخبار آخر ساعة لا يملأ فى كثير من الأحيان إلا بنتائج المباريات الرياضية ! وهؤلاء الالآف من العمال الذين تراهم فى المساء ، بجانبك وهم بملابس العمل فى طريقهم الى منازلهم ، يقرأون هـذه الصحف المسائية باهتمام ، ولـكنهم لا يبحثون عن الشؤون السياسية أو الاقتصادية بل عن وصف حفلات الرياضة أو نتائج السباق .

وشؤون الرياضة هذه هى التى تشغل بال هؤلاء العمال ، الذين لا يتناقشون باهتمام فى شيء كما يتناقشون عن هذه الشؤون ، وخلف أبواب الحانات تراهم كذلك لا ينقطعون عن الجدل، ولـكن عن الرهان على نتائج مباراة الـكرة أوسباق الخيل! لهذا كان الاهتمام بقراءة ملاحق الصحف المسائية كبيراً .

• • •

ووراء جدران الجامعة ، تجد الرياضة لها مكانتها وآثارها . لوحات الاعلانات والتعليمات فى هذه الكليات لا تكاد تجد بها شيئا اللهم إلا ما هو مختص بشؤون الرياضة ، والمبارزات المستقبلة ، ونتائج المبارات الماضية .

ولا تجد طالبا فى كلية من كليات الجامعة الا وهو عضو فى ناد من هذه الأندية الرياضية،ولا تجد فتاة كذلك الا هى تشترك فى نادى السباحة أو التجذيف أو التنس أو الهوكى . والطالب الأجنبي فى الجامعة ـ لا سيما الشرقى ـ لا يزال أجنبيا نفورا ، حتى يشترك فى احدى هذه الأندية ، وحينئذ فقط نزول الكلفة والاصطناع بينه وبين زملائه الانجليز . وينظر اليه من جديد نظرة حبية صادقة . ولكن مع الأسف قليل من الشرقيين ، وقليل جدا من المصريين من يندمج فى هذه الفرق الرياضية ، ولا شك فى أن المصرى يفقد كثيرا بهذا الانزواء ، ولا يجد الحياة الاجتماعية فى



وفى أيام السباق الختامي تزدحم لندن بالآلاف

الجامعة سلسة رائعة كما لو كان متشبعاً بهذه المبادىء الرياضية .

وليس بدعا أن تجد الأستاذ الكبير فى هذه الكليات أو فى المدارس الانجليزية يلعب مع احد تلاميذه ، أو يرقص مع احدى تلميذاته فى حفلات الكلية الساهرة . والرقص فى نظر الانجليزى لا يخرج عن كونه ضربا من ضروب الرياضة .

. . .

وفى المطاعم تجد آثار الرياضة . حتى قائمة الطعام فى مشارب الشاى الكثيرة فى لندن لا تخلو من ذكر الأخبار الرياضية ، حتى اذا جلس الانجليزى لتناول الغداء أو الشاى ، يجد ما يشبع شهوته الرياضية كما يشبع جوفه الخالى .

ان هذا النشاط الذى تراه متمثلا فى هذه القامات المنتصبة والحركات السريعة ، والوجوه الصبوحة ، لا شك فى أنه من فعل هذه النزعة الرياضية التى نبتت مع الطفل الانجليزى والطفلة الانجليزية منذ النشأة الأولى .

ورشاقة الفتاة الانجليزية العاملة ، لا تجاريها فيها الباريسية الصميمة ، هذه ركنت الى الأزياء والى الدهان لتثير نسويتها ، وتلك الى جسمها والى طبيعتها ، فرفعتها الى الكمال الانسانى ! وهكذا ترى الفتيات العاملات فى الصباح تحمل كل منهن حقيبتها الكبيرة ومعطفها ومظلتها ، وتمشى بقدم ثابتة ، وبوجه صبوح تحت قطرات المطر دون تردد أو احجام .

. . .

وفى دور السينما لابد وأن تشاهد شيئاً من أخبار الرياضة وشؤونها ، واذا توليت الى الحدائق وجدت ملاعب التنس والجولف أمامك ، ورأيت التجذيف والسباحة فى جداول الماء .

الرياضة ، الرياضة فى كل مكان وعلى كل لون !

وأنواع الرياضة التى تجدها فى لندن ليس لى أن أحصرها ، ولكل منها هواته ، ورواده . التنس ، كرة القدم ، الرجبي ، الجولف ، الهوكى ، الكريكت ، سباق الخيل ، سباق الزوارق .

ولندن حافلة بكثير من الملاعب ذات الأهمية العالمية فى كل فرع من فروع الرياضة . ففى ومبلى حيث أقيم المعرض الامبراطورى ، تجد ملعب كرة القدم الكبير الذى يسع نحو مئة ألف متفرج . وفى الدور النهائى لألعاب الكرة السنوية ، تموج لندن بالوافدين اليها من معامل القطن فى لانكشير ومن معامل الحديد فى شيفلد وممن يفدون اليها من ايرلندا ومن اسكتلندا . ولندن ذات الملايين التى تبلع فى محيطها كل جديد ، تعجز عن اخفاء هذه الآلاف من أهل الشمال الذين يجوسون خلال بيكادلى الى منتصف الليل ، يغنون وينشدون حتى يحين وقت قطاراتهم الليلية الخاصة التى تحملهم الى بلادهم .



بائعو شارات جلب الحظ لمتفرجى السباق

وفى جنوبى لندن تجد ملاعب التنس فى ومبلدون حيث تلعب عادة الدورة الأخيرة لبطولة التنس فى العالم ، وفى مثل هذه الألعاب تشترك العائلة المالكة الانجليزية فى مثل هذه المباريات .

والجولف لعبة ارستقراطية ، لا تلعبها الا الطبقة الخاصة فى انجلترا ، اذ تحتاج إلى أجور ليست فى طاقة الانجليزى العادى ، أما الكركت فله أندية كبيرة فى كثير من أطراف لندن ، تجدها عامرة فى أيام السبت والأحد ، حيث يجتمع الشبان العاملون ابان الأسبوع فى هذه الملاعب ·

أما سباق الخيل . فلا ينقطع فى انجلترا · ولكل مدينة أسبوعها فى السباق ، وتجد القطارات الخاصة بأجور مخفضة من لندن ومن غيرها ، تسير بانتظام الى حيث يعقدالسباق.والرهان كاليانصيب ممنوع فى انجلترا الا فى حلبات السباق . وللانجليز جنون بالسباق وبالرهان فيه .

ومواسم سباق الخيل فى لندن مواسم رياضية عالمية ، ومن ذا الذي شاهد سباق الداربى الذى يعقد فى ابسوم فى جنوب لندن ، ورأى هذه الالآف المؤلفة من الانجليز ، من أمرائهم ولورداتهم ، ومن عمالهم وعاملاتهم ، ولا تتضاءل فى مخيلته حفلات السباق التى كانت تقام منذ القدم فى بلاد الاغريق أو فى رومة ؟ وبعد سباق داربى هذا، يعقد سباق اسكوت مجمع فاخر ، معرض للغنى والبذخ والأزياء ، معرض لكل شيء ،يحضره ملك انجلترا فى كثير من الأحيان ·

أما حفلات التجذيف وسباق الزوارق ، فمن ذا الذى لم يسمع بسباق كمبردج واكسفورد التاريخى ، تقاليد رياضية مرت عليها عشرات السنين ، ولا تزال هاتان الجامعتان تحافظ عليها جد المحافظة ؛ وفى هذا السباق الذى يمتد على التيمز ، من باتنى إلى مورتليك«أو ما يقرب من أربعة أميال ونصف» تجتمع على ضفاف التيمز،انجلترا منقسمة إلى حزبين ، الى حزب الأزرق الفاتح ، حزب كمبردج ، والأزرق الغامق حزب اكسفورد ! ولعل هذه الأحزاب ، التى تتوارث مبادئها جيلا بعد جيل فى العائلات ، أكثر أهمية عند الانجليزي من الأحزاب السياسية المتطاحنة ··

جوامع لندن

لا شك أن جامع ووكنج فى لندن تحفـة فنية . تحفة تثير اعجابك ، لدقتها وبراعة صنعها ، ولـكنها لاتثير فيك الاجلال أو الشعور بالعظمة !

ما أبعد الفرق بين جامع ووكنج هذا وجامع باريس ؟ ما أبعد الفرق بين الدمية التى يقلبها الطفل كيف شاء ، وبين التمثال المرمرى المرتفع ؟ وهكذا اذا زرت جامع ووكنج ، تعجب لبراعة صنعه ، وتعتبره تحفة فنية رائعة ، ولـكن هذا كل شىء .

مصلى ،ومنبر، ومآذن ،وقاعة، وأبواب ؛ وهذا المصلى قاعة بل حجرة صغيرة ، ذات قبة كأنها ضريح لايكاد يتسع لصلاة الجماعة . وهـذه المنائر التى تحف به لاتستخدم لاذان أودعاء للصلاة ، هى حلية ليس الا ، والأبواب والجدران ذات هندسة مغولية ، وان كانت منقوشة نقشا عربياً بديعاً .

. . .

وليست ووكنج هذه فى قلب لندن . بل عليك أن تأخذ القطار اليها وتنزح بعيداً الى الجنوب . الى هـذه القرية الساكنة الفاتنة ، ولا تسأل أحدا ، لأن كل من يقابلك يدلك على الطريق الى هذا الجامع الذى صار تحفة تعتز به ووكنج ، وترى صوره معروضة عند بائعى الصحف !

وفى طريق طويل ، ولـكنه جميل فاتن ، تسير الى حيث جامع ووكنج بين أشجار مرتفعة ظليلة وأسوار خضراء ، وحدائق زاهيـة ، ومـلاعب للتنس ،

تسير ، ومن حين الى حين تقابل صبية يلعبون أو فتاة على دراجتها ، أو سيدة قروية تعود إلى دارها ، اذا وصلت الى حيث الجامع واكتشفت قبته من خلف الأشجار الكثيفة ، فانك تسير فى درب طويل مسور بالأشجار ينعطف بك يمنة ويسرة حيث هذا الجامع ، الذى لا أظن أنه يفتح أبوابه الا فى أيام الأعياد !

وأمام هذا البناء فسيح أخضر ، به بيت للضيافة ، ودار لامام هذا الجامع «الخوجة عبد المجيد »



جامع ووكنج

...

وفى أيام الأعياد تفد الوفود الى ووكنج من لندن ومن غيرها ، تفد الوفود الى هذا الجامع مئات . وتصبح ووكنج هذه القرية الهادئة ، كأنها فى عيد . وترى الفتيات يقفن على منعطفات الطريق من المحطة الى الجامع ، يراقبن هذه الوفود الغفيرة ، التى يبدو عليها المرح والاغتباط ، بالاجتماع وبالعيد وبووكنج نفسها .

وترى هذه الأفواج فى ملابسها الزاهية ، ترى جموع الهنود بلحاهم المرجلة وعمائمهم ، والمصريين بطرابيشهم ، والعراقيين بفيصلياتهم ، والافغانيين بقلابقهم وغيرهم فى ألوانهم وأزيائهم ، التى تجعل منظر هذه الوفود نادر الوجود فى لندن

وترى وفود الانجليز : الانجليز المسلمين وغير المسلمين من أصحابهم أو ممن يحضرون لمشاهدة هذا المنظر الرائع النادر فى لندن ، ليشاهدوا مواكب الشرق تحيي تقاليده فى مهجرها .

وفى هذا الفسيح الاخضر ، تفرش البسط والسجاجيد الشرقية الفاخرة وتجلس هذه الجموع فى حلقات ، وحول هؤلاء تجد صفوف المقاعد لمن يريدون الاستماع وهم جلوس عليها ، وفى الساعة الحادية عشرة يبدأ الامام بالتقديم لصلاة العيد ، فتدوى فى هذا السكون آيات القرآن ، بلهجة هندية فيها الامالة والاطالة والغن ، وينصت الجميع يسمعون ، وقد ينصتون لتوافق حروف هذه الآيات ونغماتها ، دون فهم معانيها . ثم يبدأ خطبته باللغة الانجليزية ، خطبة علمية فنية حديثة ، ليس لجوامعنا عهد بها بعد .

فاذا انتهت الصلاة هرعت الجموع الى عشرات الموائد التى تقام فى طرف هذا الفسيح ، حيث اللحم الذي غمس فى الكاريه الهندى ، ثم الارز والحلوى التى لم تنج كذلك من هذه التوابل الحريفة الصفراء !

وهكذا تقضى يوما رائعا فى ووكنج !

. . .

وفى شارع نوتنج هل جيت ، جامع آخر فى لندن ، وماهو بجامع بالمعنى الصحيح، بل هو بيت عادى ذو طابقين ، تعقد فيه اجتماعات اسلامية كل اسبوع ، اذ ان مثل هذه الاجتماعات غير ميسورة فى مكان نازح مثل ووكنج .

وفى هذا المكان كثيراً ما كنا نجتمع لصلاة الجمعة . وكان الوقت المحدد لها الساعة الواحدة والنصف ، لكى يكون ذلك ميسوراً لجميع هؤلاء الذين يعملون فى مثل هذا الوقت فى أنحاء لندن البعيدة . وكان الخوجة عبد المجيد ـ ولا يزال ـ بطل هذه الاجتماعات ، فهو الذى يقرأ جانبا من القرآن قبل الصلاة ، وهو الذى يؤم المصلين ، وهو الذى يقود الابحاث والمناقشات . وهو شخصية طيبة محبوبة ، من المتخرجين فى اكسفورد أو كمبردج لا أذكر ، تراه دائماً بملابسه الرسمية السوداء ، وبالقلبق الأسود ، والمظلة السوداء ، له وجه سمح ولحية مسترسلة ، وحديث مقبول .

فاذا ما انتهت الصلاة ، قاموا الى حيث غرفة الشاى ، حيث يتناولون أقداح الشاى وقطع البسكويت التى يمر بها الخوجة عبد المجيد أوبعض المضيفين من الهنود . وكثير من هؤلاء المترددين بانتظام فى أيام الجمعة هذه من الانجليز ، ومن السيدات الانجليزيات . ومن بين هؤلاء كنت أرقب شاباً انجليزياً عاملا، يحضر هذه الصلاة بانتظام ، ويحضر بملابس العمل ، وفى غير أيام الجمعة تراه يحضر برفقة زوجته الشابة الجميلة فى ملابسه العادية المحترمة .

وبين هذا الجمع تجد جماعة من السيدات العجائز المسلمات أيضا ، ممن لا ينقطعن عن الكلام والملاحظة دقيقة واحدة ، واذا أقبلن على الصلاة وقفن سوياً فى الصف الأخير ، ولففن حول وجوهن لثاماً أبيض كأنهن فى عرفات .

وفى أيام الأحد يعقد اجتماع آخر فى هذا المكان ، تلقى فيه الخطب وتقام المناقشات وتحتدم ، ويحضره كثير من زعماء المسلمين فى لندن من انجليز ومن هنود.

وفى هذا المكان كثيراً ما لقيت لورد هادلى الزعيم الانجليزى المسلم ، وكثيراً ما كنت أرى محمد على الزعيم الهندى الراحل ـ ولكننى لا أذكر ان رأيت أغا خان ـ كما اننى عقدت فى هذا المكان عرى الصداقة باقبال على شاه، الكاتب والرحالة الأفغانى.

...

وفى وستمنستر ، أو فى سنت جيمس، يفكرون منذ سنين فى اقامة جامع كبير يتناسب مع لندن الكبيرة، وقد تمر سنون قبل أن يوضع أساس هذا الجامع ، ولكن مع ذلك سوف لا يفقد مسجد ووكنج الأنيق مكانته الفنية على الأقل ، من أولئك الذين عرفوا الطريق الى ووكنج ، وقضوا صباح عيد الأضحى ومساءه فى تلك البقعة السحرية الجميلة ، التى تذكرنا بالشرق ونحن فى أطراف لندن .

بيكادلى

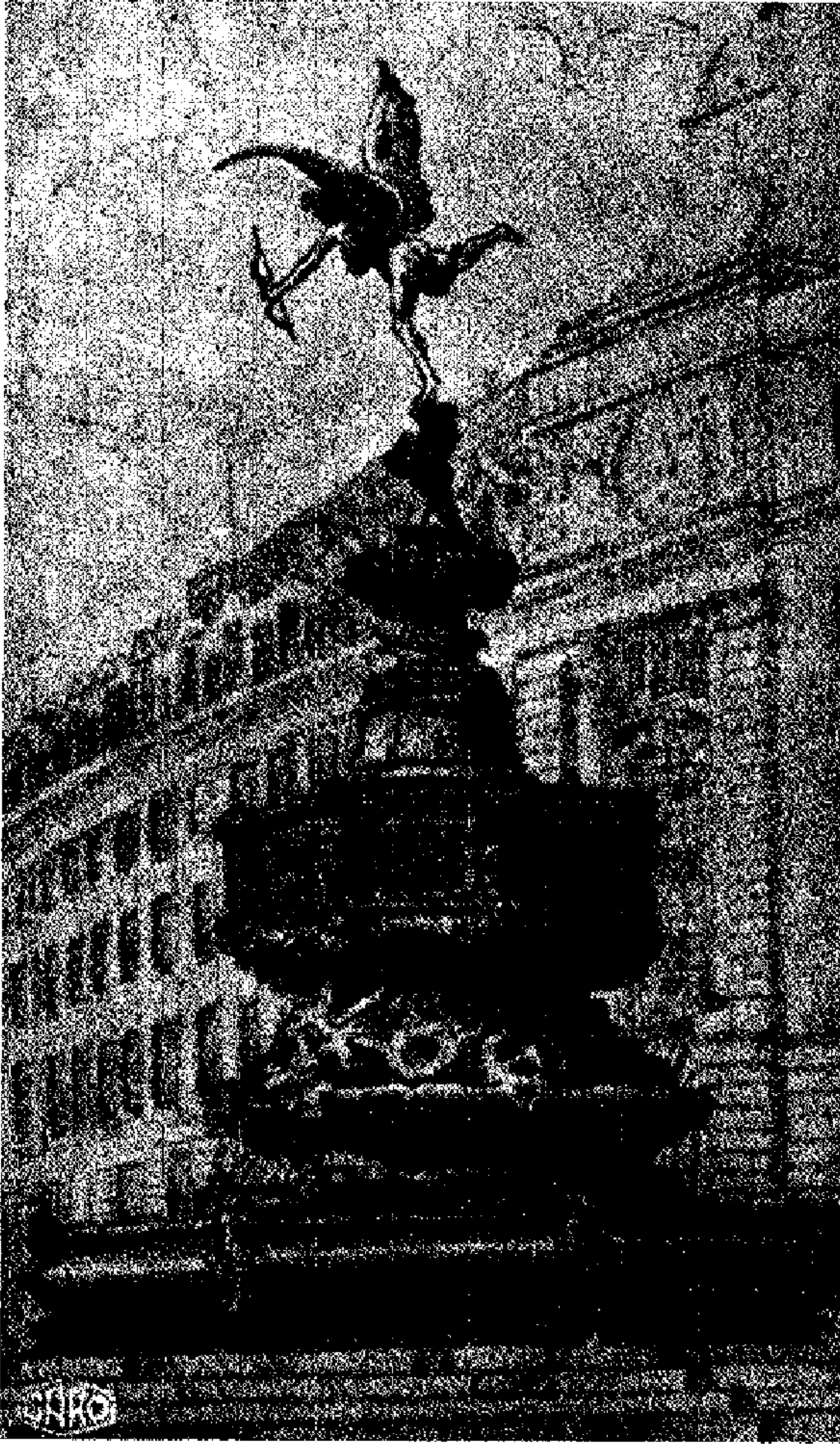
اذا نامت لندن ، أو أقفرت طرقاتها ؛ فان بيكادلى وحده هو الذى يبقى مستيقظا كأنه القلب مركز الحياة ، ومركز العواطف الجامحة ! وبيكادلى حقا قلب لندن الخفوق !

فى الليل يتجلى سحر بيكادلى ؛ وفى الليل تظلم لنـدن ليضىء بيكادلى ، وتسكن ليثور ، وتنام هى ليستيقظ . يحيى الليل حتى هزيعه الأخير . واذا مررت على ميدان بيكادلى فى النهار ، تـكاد تحس بأن جدرانه نائمة ، وأن الوجوه التى تشاهدها على أبواب مسارح بيكادلى أو مقاهيه أو أنديته ، كأنها تجاهد النوم جهادا ، وقد أثقل جفونها السهر الطويل .

وفى هذا الميدان الذى تتفرع منـه شرايين بيكادلى ، يرتفع تمثال كيوبيد ، إله الحب؛ كيوبيد الولد الغرير ، الذى يحمل قوسه وجعبة سهامه ، يرسلها الى كل قلب ! وليس لـكيوبيد أن يجد أبر من بيكادلى وأرحب منه جنابا لصيده وقنصه ؛ فهؤلاء الذين يقومون ولندن نائمة فى الليل ، يقومون خفية الى بيكادلى ، لا يبحثون إلا عن الحب ، إذا كانت قلوبهم خواء ، ولا يبحثون إلا عن السلوان فى الحب اذا كانت قلوبهم مكلومة جريحة ! وهكذا يقف كيوبيد بأجنحته المرفرفة ، وبقوسه وسهامه ، يستقبل وفود الهوى ، تطوف حوله ثلاثا ، وينظر الى ضحاياه وهو باسم كـكل طفل غرير !

...

وفى هذا الميدان المستدير ، حيث تمثال كيوبيد «إروس» تصب عشرات الطرقات الى الشمال والجنوب والى الشرق والغرب ، ويمتـد فوق هذه الطرقات الضيقة التى تتفرع وتتعرج ، سلطان كيوبيد ، بل ان فى ظلام هذه الطرقات يبدو سحر بيكادلى أو على الأصح يبدو سر بيكادلى . وقليل من كشف عن هذا السر !



تمثال كيوبيد فى قلب بيكادلى

وكثيراً ماحاولت أن أكشف عن هذا السر ، اذا ما تقدم الليل أو اذا انتصف فى بيكادلى. فكنت أسير فى هذه الطرقات الساكنة الخاوية ، أعقد معطفى ، وأنزل القبعة على وجهى ، وأضرب فى هذه الطرقات الصامتة، أبحث عن سر بيكادلى الذى لاتكتشفه فى الميدان الهائج المائج ،ولكن كانت لا تزداد هذه الطرقات إلا سكونا وصمتا ؛ وكنت أضحك من نفسى ، وأسخف تفكيرى هذا !

هنا فى هـذه الطرقات التى تحيط ببيكادلى ، يعيش رجال الفن ، رجال الموسيقى والتمثيل ، تعيش الفتيات اللاتى يبحثن عن الشهرة فى استرى أو هوليوود ، مئات من هؤلاء

تراهن يتسكعن حول مكاتب المخرجين ، يترددن عليها كل يوم ، ويقضين الساعات الطويلة، ينتظرن بلا ملل المخرج الذى يبحث عن نجوم جديدة . .

يعيش هؤلاء الفتيات فى عالم من الأحلام ،يعشن بالأمل ؛ فتيات من كل جنس من الروسيات النازحات الى لندن منذ الحرب العظمى ، مئات منهن يملأن بيكادلى ، ومئات من اليهوديات الألمانيات ، وغيرهن من الشرق الأقصى ومن سكان جزائر الجنوب . . يسعون جميعاً حول تمثال كيوبيد ، يسألنه الرحمة !

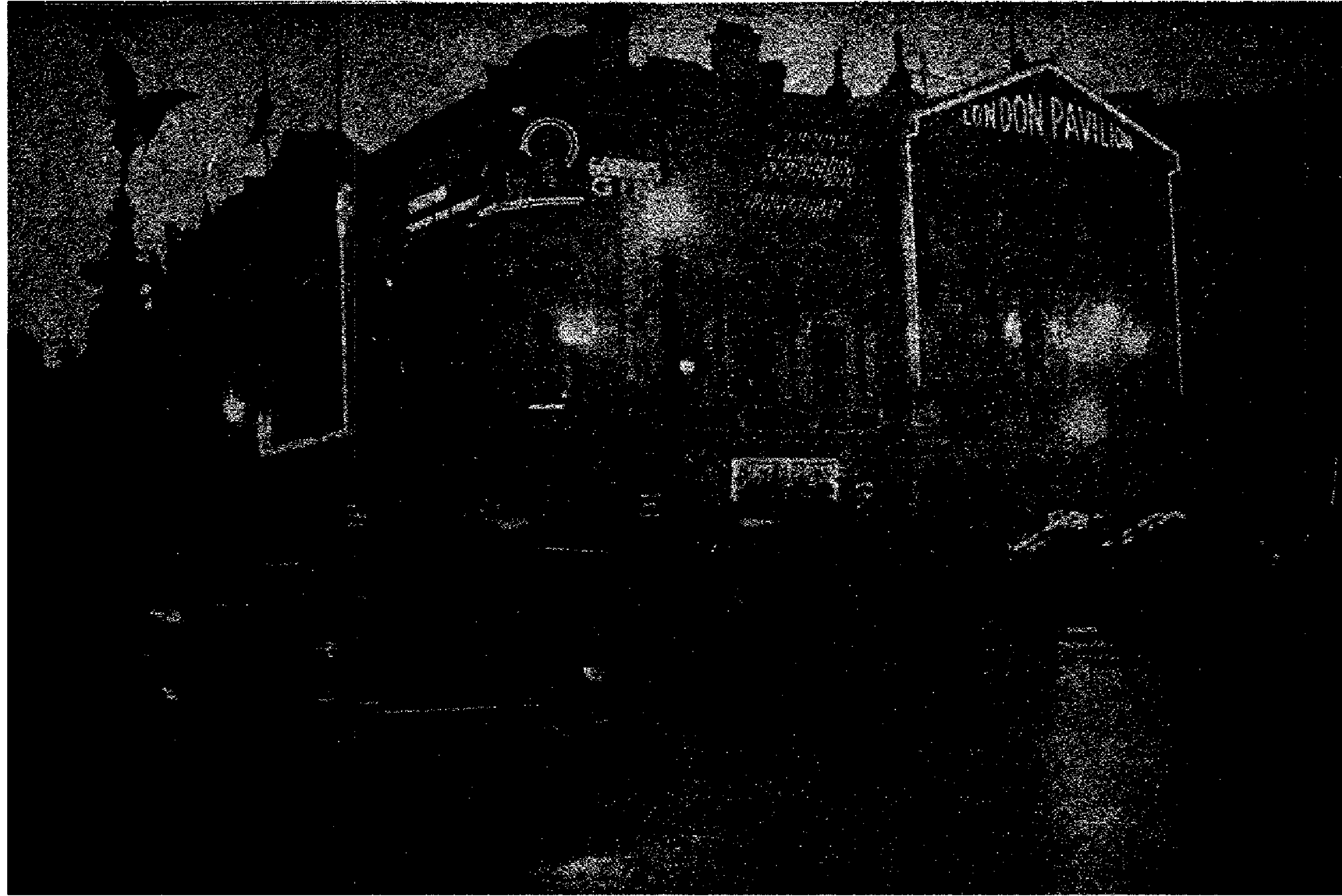
وفى هذه الطرقات تجد الباحثات عن الذهب ، تجدهن فى أركان المخازن المقفلة ، أو أمام نوافذ الأزياء المضيئة ، تجدهن جماعات جماعات ، وتعرفهن بأنوفهن الطويلة المقوسة ، وبأجسامهن الثقيلة السامية !

• • •

وتحت تمثال كيوبيد تجد بائعات الزهور والورد ، تجد صفا منهن ، يستقبلن الطائفين حول هذا النصب ، ويحيين الخارجين من دور المسارح ، أو الداخلين إلى الأندية والمطاعم الليلية ، تجدهن يعملن بجد فى حزم زهور القرنفل ، أو الورد الأحمر ، أو الكاميليا البيضاء. والبائعة منهن تعرف بالمران الطويل ، ما يطلبه كل واحد من زبائنها ؛ وهى تعرف من ملبسه ، ومن حركات وجهه، وممن يرافقه، مقدار ما يدفع ثمنا لبعض هذه الزهور ، وما يصلح له من قرنفل أو ورد أو كاميليا !

وكأن هؤلاء العجائز تحت هذا التمثال ، خادمات المعابد ، يطلقن البخور ، ويجمعن النذور !

ومن الشخصيات التى يكاد ينفرد بها بيكادلى ، الشرطية الانجليزية ! ترى هذه الشرطية فى ميدان بيكادلى فى كل مساء ، بملابسها الرسمية الزرقاء ، وصفارتها المتدلية وأزرارها اللامعة ، ثم بقامتها المرفوعة الممشوقة .



الليل فى بيكادلى

ترى هذه الشرطية تسير على رصيف الميدان من حيث الريجنت بالاس إلى مسرح لندن بافيليون ومن هناك إلى ميدان لستر حيث الامبير : تراها تسير الهوينا توزع نظراتها ذات اليمين وذات اليسار وتنظر بامعان الى جماعات الباحثات عن الذهب ! وكثير منهن من الجميلات ، اللاتى مهما حاولن أن يبدين الخشونة والعسكرية أو يظهرن بمظهر اللاتى لا ينسقن الى عاطفتهن النسوية ، فان وجوههن تزيد هذه المحاولة سحرا وفتنة !



الشرطية الانجليزية

. . .

ويكادلى حى المسارح ودور السينما ، والمراقص والمطاعم ، والأندية الليلية . دور المسارح فى شافزبرى افينيو متلاصقة متجاورة، ولا تجد على أبوابها الأنوار الساطعة التى تراها حول مسارح باريس ، وترى هذا الشارع والطرقات التى تؤدى إليه اذا أقبل المساء قد حفلت بصفوف الجالسين ينتظرون دورهم فى الدخول بحسب تبكيرهم فى الحضور . وقد ترى هذه الصفوف « الكيو » تنعطف من طريق الى طريق، حتى انها لتتقابل ،

فقد حدث أن جماعة جلسوا فى ذيل صف من هذه بعد أن تتبعوه من حيث باب المسرح ، ولكن عندما ابتدأ الدخول ، وتقدم الصف قليلا قليلا ، وجدوا أنفسهم أمام مسرح آخر !

واذا كانت الساعة الحادية عشرة وخرج هؤلاء المتفرجون ، غصت طرقات بيكادلى بالسيارات ، وارتفعت أصوات الأبواق ، وخرج المتفرجون الارستقراطيون بملابس السهرة السوداء والبيضاء ، وبالملابس الحريرية الفضفاضة ذات الذيول الطويلة ، يخرجون من المسرح الى احد المطاعم أو الأندية الليلية ليتناولوا العشاء أو ليقضوا السهرة، أو ليبحثوا عن سياراتهم فى هذا الزحام وهذا الضجيج .



بائعة الزهور

...

ودور السينما الراقية فى لندن تجدها حول بيكادلى ، دور السينما التى تسع الالآف ، والتى تتنافس فى عرض الأفلام الجديدة لأول مرة فى أوربا جميعها . ولا شك أن دور السينما فى لندن فاخرة رائعة ، لاسيما التى تراها حول بيكادلى ، كالبلازا ، والنيوجالارى ، والريلتو ، والامبير ، والكابيتول ، ثم المسارح القديمة التى تحولت الى دور خاصة للسينما كالهمبرا والكارلتون .

والأمبير الذى فتح منذ عهد قريب أفخر هذه الدور فى بيكادلى ، يسع أكثر من ثلاثة آلاف متفرج ، به قاعات فاخرة للشاى والجلوس ، ومزين بتحف فنية رائعة .

...

وانتشرت منذ عهد قريب فى بيكادلى ، مسارح الكباريه، على نسق الفولى برجير والمولان روج فى باريس ، وكثير من هذه الفرق الباريسية تزور لندن بانتظام ، عليها تبدل من الجو الانجليزى المحافظ فتملأه مرحا ، لا يعرفه بيكادلى كما تعرفه منمارتر ..

وفى الليالى الماطرة يصبح بيكادلى غارقا فى الأضواء والأنوار ، التى تنعكس من عشرات الاعلانات المضيئة والمتحركة على الأرض، التى تصبح لامعة مصقولة بفعل المطر .

وتمر على بائعات الزهور اللاتى لا يثيرهن غضب الطبيعة ، وقد فتحن مظلاتهن الكبيرة السوداء ، وأخذن يعملن بجد فى تنسيق باقات القرنفل والكاميليا ، تحت أقدام تمثال كيوبيد ، الذى كأن المطر قد جعله أكثر مرحا ، فراح يرمى بسهامه ذات اليمين وذات اليسار على رؤوس الجموع التى قد التصقت حول الميدان حزعا من دموع السماء . . . !



بين المرضى

طرقت مستشفيات لندن زائراً ، وعرفت عيادات الأطباء فى لندن مريضا .

عشرات من هذه المستشفيات فى لندن، المستشفيات العامة ، والمستشفيات الخاصة. وليس أعرف من المريض بنفسية الطبيب ، وليس أعرف من الزائر بالجو الذى يسود المستشفى الذى يزوره .

هذه المستشفيات العديدة فى لندن مجانية ، يتضافر أهل لندن على الانفاق عليها بسخاء [1] يصرفون عليها ملايين الجنيهات كل عام . ولأجل هذه المستشفيات يقيم طلبة الجامعات الكرنفالات لجمع التبرعات ، ولأجلها تقام أعياد الزهور فى لندن وفى غير لندن ، ولأجلها تجمع أوراق القصدير فى صناديق هذه المستشفيات ! فكرة بعيدة ولكنها فكرة أثبتت نجاحها .

ولتنظيم هذا العلاج المجانى ، يدفع كل عامل مبلغاً زهيداً إلى الشركة أو الجمعية التى ينتسب إليها ، حتى إذا ماجاءه المرض أرسل إلى احدى هذه المستشفيات ليقضى فيها مدة علاجه ويدفع له أثناء ذلك أجر إذا كان معيلا ، أو عاطلا . لهذا أمن كل عامل انجليزى سطوة المرض الطارىء .

. . .

مستشفى سنت بارتلميو ، أو سانت بارت كما يدعوه أهل لندن ، أقدم مستشفيات

(١) راجع مقدمة الدكتور حافظ عفيفى باشا .

لندن جميعها ، وهو أحد المستشفيات التى عدت فيها مريضا انجليزيا ، قضى فى هذا المستشفى نحو شهرين لاصابة ساقه دون أن يدفع أجرا ، بل دون أن يقطع أجره الأسبوعى .

فى بهو طويل صف فيه أكثر من عشرين سريراً على الجانبين، زرت هذا الصديق ووجدته يقرأ بين كومة كتب بجانبه. وابهاء هذه المستشفيات بيضاء زاهية نظيفة جد النظافة ، قد نسقت على طاولتها الوسطى باقات كبيرة من الزهور .

وفى هذا المستشفى القديم كان يعمل كثير من أفذاذ الأطباء، تعرف ذلك من طائفة الصور التى بها ، أمثال هارفى مكتشف الدورة الدموية وغيره . وفى هذا المستشفى وحده يجرى ما ينيف على ستين ألف عملية جراحية كل عام ، ويدخله نحو تسعين ألف مريض غير الزائرين وتصله من التبرعات نحو ستين ألف جنيه . وأمثال مستشفى سان بارت هذا كثير فى لندن، أشيرنج كروس، وجايز، ومدلسكس، وسان توماس ، ووستمنستر وغيرها :

والممرضات فى هذه المستشفيات، يجعلن عائدى مرضاهن لا ينقطعون عن الزيارة ! يحملون لهن ، كما يحملون لهؤلاء المرضى ، الزهور وعلب الحلوى . كانت صاحبة الدار التى أسكن بيتها مريضة ، وكنت اذا زرتها فى مستشفى هايجيت تسألنى أن أتخير زهور القرنفل الحمراء ، لأن ممرضتها الغالية الجميلة تحب هذا اللون ! وكل ممرضة تتباهى بما يحمل إلى مرضاها من الزهور لتنسيقها وتجميلها .

. . .

وأجور الأطباء فى لندن معقولة، معقولة جدا، بل رخيصة. وكنت فى بادىء الأمر ــ قياساً على مصر ــ لا أفكر فى زيارة طبيب إلا فى الضرورة القصوى ، معتمدا على اقتراحات الصيدليات ، ولكنى اكتشفت متأخرا اننى كنت مخطئا .

تمر على عيادة هؤلاء الأطباء المتواضعة ، ذات النافذة العريضة الملونة بالدهان الأحمر

وقد كتب عليها بخط واضح « عيادة » تدخل حجرة عادية بسيطة ، بها بضع مقاعد وطاولة عليها صفوف من الكتب القديمة والجديدة . وقد تلمح على جدرانها شيئا من الصور ، أو شهادة جامعية فى اطار كبير .

وفى حجرة الانتظار هذه ، يدخل هؤلاء المرضى ويجلسون ،ينتظرون دورهم فى صمت أو يقطعون الوقت بالقراءة ، إلى أن يفتح الباب الداخلى وتخرج سيدة تحمل زجاجة ، تعرف من ملامحها أنها المريضة التى كان يفحصها الطبيب . ثم يطل عليك رأس الطبيب نفسه ، بمعطفه الأبيض ونظارته . يدور بعينه حول الجالسين ويحييهم حتى تقع عينه على الزائر الأول فيطلب منه الدخول .

حجرة صغيرة ،بها مقعد وسرير من الجلد وطاولة ورفوف ملأى بالورق والكتب والأدوية ، هذه هى حجرة الطبيب الخاصة. فاذا تم السؤال والجواب وتم الفحص ، كتب لك ورقة الدواء ، ودخل إلى حجرة على بابها ستار حيث يحضر بعض هذا الدواء أو جميعه . ثم تسأله عن الأجر وعن الدواء .

ـ ثلاثة شلنات ونصف !

وقد يقل هذا الأجر كثيراً حتى يبلغ شلنا ونصفا ، ومع ذلك فهؤلاء الاطباء الذين يعملون جانباً من وقتهم فى المستشفيات العامة ، يجمعون ثروة لا بأس بها من هذه الشلنات القليلة التى لا تدل على جشع ـ حمانا الله منه ـ يتنافى ومبادىء الانسانية ، باستغلال المرضى وضعف المريض وحاجته !

وفى هارلى استريت ، طبقة الأطباء الاخصائيين فى لندن ـ ويكفى أن يذكر عن الطبيب الانجليزى أنه من ساكنى هارلى استريت حتى تعرف مكانته ومركزه العلمى والاجتماعى . شارع عادى ككل شارع فى لندن ، ليس فى مبانيه عظمة ما . فى هذا الشارع يسكن كبار الأطباء الانجليز، وعظماؤهم ؛ وفى هذا الشارع لا يتعامل الأطباء ولا المرضى بالشلنات ، ثلاثة جنيهات فقط للزيارة ! ويكفى أن تدفع هذه

الجنيهات الثلاثة لكى تشفى ، ويكفى أن تمر على هارلى استريت لكى يتلاشى عنك المرض !

ولا نذكر المستشفيات والأطباء إلا لنذكر الصيدليات ، ولا نذكر الصيدليات الانجليزية الا لنذكر صيدليات بوتس !

فى كل حى فى لندن وفى كل طريق تجد صيدلية من صيدليات بوتس هذه ، تجدها فى كل بلدة وقرية انجليزية ! وليس أمتع عندى من جولة فى احدى صيدليات بوتس ، تدخل فتجد صفوف الأدوية وعليها أثمانها ، أثمان رخيصة ، تغريك بالشراء وتدفعك الى التفكير فى المرض ولولم تكن مريضا .

وفى كل حى كنت أسكنه فى لندن ، أعرف أول من أعرف فيه عمال صيدلية بوتس ، وكنت أتردد عليها بانتظام أشترى منها فى كل مرة شيئا جديدا وان لم أكن فى حاجة اليه .

ومع وجودهذه الصيدليات الكبيرة ذات الأثمان المقبولة، فانكلاتزال تجد أولئك الخطباء فى أركان أشيرنج كروس أو فى سوق كاليدونيا أو هامستد ، الذين يجمعون حولهم الرعاع ويبيعونهم الأعشاب وغيرها بعد محاضرة فلسفية طويلة !

قوة العلم مازالت قاصرة ، عن قوة المعتقدات . .

اطفال لندن

كم أيد اشتركت فى صنع الطفل الانجليزى ؟

المدرسة وحدها لاتــكفى ، والبيت وحده لايقوم بكل هذه المهمة ، لأن هذاالطفل قد اجتمعت عوامل عديدة على صبغه بهذه الصبغة الانجليزية ، وهو لايزال غضا سهل التــكييف .

الطفل الانجليزى كالرجل الانجليزى له شخصيته المستقلة . يلقن منذ صغره بأن له رأيه وله تفــكيره وله وجهة نظره ، يلقن بأنه طفل ممتاز !

وتجد البرود الانجليزى متمثلا فى هذا الطفل ، لاسيا اذا حاولت اثارة استطلاعه قصــدا ، فلا تراه ذلك الثائر المتوتر الأعصاب رغبةً ، لأنه يدرب على أن يكبت من انفعالاته ، ويدوس من عواطفه .

والطفل الانجليزى يلقن تاريخه بكل الأساليب وبكل الطرق ، يلقن مواضع العظمة فى هذا التاريخ ، فهو يسمع عن ماضيه وعن العظماء والأبطال من أجداده فى القصص والحــكايات ، فى كتبه الخاصة ، فى الروايات التى يمثلها فى المدرسة ، ويراها فى المعارض والمتاحف ، يسمع هذا التاريخ من أمه ومن أبيه ومن إخوانه ومن المعلمين ؛ فينشأ وهو يشعر شعوراً بعيــد المدى بامتيازه وتفوق الشعب الذى ينتسب اليه . وليس أ كثر تأثيراً من التاريخ ، فى تــكوين المثل الأعلى للطفل ، التاريخ القوى الذى يفخر بأسماء الأبطال والعظماء الذين قادوا بلادهم إلى النصر أو إلى الرقى .

والتاريخ الانجليزي حافل بكل هذا ، لذلك كانت التربية القومية لايعتمد فيها على المدرسة ، فالمتاحف والمعارض ، والتماثيل والنصب التذكارية التي يراها في كل ميدان وفي كل حديقة ، وأمام كل بناء عام ، كافية لاثارة هذه النزعة التواقة في نفسه ، كافية لصقله وتكييفه .

ليس في التربية الانجليزية الصرامة والشدة التي نعرفها في الشرق ، هذه الصرامة التي تجعل الطفل يقتل في نفسه النزعة إلى الحرية في القول والفعل ، والتي تجعل علاقته بوالديه شاذة مبنية على خوف لا على حب أكيد، وتقتل في الطفل كل ماندعوه الشخصية .



احدى مدارس بلدية لندن العديدة ذات الابنية الحمراء والبيضاء

والطفل الانجليزى يصارحك بكل شىء ، ويقابلك ولو كنت غريبا عنه بكل ثقة وطمأنينة ، بل إن والديه يدفعانه اليك اذا كنت زائرا دارهم ، وهو لايتوانى عن أن يسألك ويستجوبك اذا رآك أهلا للسؤال وهو لايتوانى عن أن يبدى ملاحظته لك ، اذا وجد فى كلامك ما يدعو إلى مثل هذه الملاحظة ، يبديها ولا يجد ما يقرعه على قولها، اذا كانت صارمة بعض الشىء .



فى كل مكان ! وفى حى لندن الجنوبى . .

وفى البيت يعامل الطفل على أنه مستقل ، ويؤخذ رأيه اذا كان المجال لأخذ الرأى ، وتراه يجلس على المائدة معهم ، ويسأل عما يطلب، وعن كمية السكر أو اللبن أو الحلوى التى تكفيه ، لهذا كله لا ترى الطفل الانجليزى يأكل بلا حساب ، ويسطو على مطبخ البيت يحمل منه الفاكهة أو الحلوى أو البندق اذا تيسر له ذلك ؛ فقد يمر الأسبوع وهذه وغيرها فى حجرة المائدة يمر عليها عشرات المرات ولا يجد الرغبة إلى السطو عليها !

والطفل الانجليزي ، له حجرته المستقلة فى البيت اذا ما بلغ العاشرة ، وله الحرية

كاملة فى هذه الحجرة ، ولا يجد من يفتح عليه بابها بلا استئذان ولو كان أبوه، وهو مسؤول عن تنسيق هذه الحجرة وتنظيمها بحسب ذوقه وميوله ، تجد على جدرانها صوره وشهاداته المدرسية وأنواط التفوق ، وفيها كتبه كما فيها أدوات النظافة ومعدات النوم .

. . .

والمحافظة على الوقت يتعلمها الطفل الانجليزي فى البيت ، والبيت الانجليزى يسير على نظام ثابت كأنه دورة الساعة اليومية لا يختل ولا يقبل التغيير . ومن هذا النظام يستمد الطفل هذه الروح ويتعلم أن الزمن مقسم إلى وحدات اسمها الدقائق ، لاالى الليل والى النهار فقط .

تمر فى الطريق على طفلين انجليزيين كانا يلعبان سويا . وتسمع الواحد منهما يقول لزميله « انها الآن قاربت الخامسة ، لقد حان وقت الشاى ، ووالدتى تنتظرنى الآن على المائدة ؛ وأنت كذلك . دعنا نتقابل غدا فى هذا المكان نفسه ، فى الساعة العاشرة إلا ربعا ، العاشرة إلا ربعا تماما . . . »

ترى كيف يحافظ الطفل الانجليزى على نظامه المنزلى ؟ وكيف يقيس الزمن بالدقائق ، وكم طفلا مصريا يعرف أن هنالك وقتا اسمه « العاشرة إلا ربعا » بهذا التدقيق الغريب ؟

. . .

ويتعلم الطفل الانجليزى الذوق والتأدب فى المعاملة والحديث من كل الذين هم حوله فاذا طلب شيئا وقدمه له أبوه، يرفض اعطاءه هذا الشيء حتى يشكره عليه، وأبوه أو أمه فى رعاية هذه التقاليد صارم لا يعرف الهوادة . واذا أراد الطفل شيئا لقنه أبوه أن يقول « من فضلك » ولو كان ذلك من خادم ، فالذوق لا يعرف الاختلافات الاجتماعية .

والطفل الانجليزى يرى كل من حوله يريد مساعدته ولكن على هذا الأساس ،



هذا الطفل في حي الايست في لندن يريد أن يعرض على زملائه مقدرته على التمثيل الهزلي ، فيجمع حوله الصغار والكبار

التأدب فى الأخذ والعطاء · كنت أسير مرة فى حدائق الريجنت ، وكان أمامى طفل تصحبه والدته ، يلعب بكرته فقذف بها خلف حاجز شائك، ولم يقدر على اجتذابها منه فتقدم شيخ كان يسير بجانبنا ـ وأنا أرقبه من بعيد ـ وتطوع وأخرج الكرة من مكمنها ولم يرد اعطاءها له حتى قال له « أشكرك ياسيدى » وقد نسى الطفل الكلمة فى بكائه ، وهكذا لم يترك الشيخ السائر فرصته لتعليم الجيل الجديد تقاليده الانجليزية !

وليس أبسط لبث روح الديمقراطية من هذه الكلمة ، وليس أروع منها لتقوية النزعة الانسانية ·

وللطفل الانجليزي نصيبه فى كل مجهود قومى ، وله نصيبه فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فى لندن · ويشعر الجميع بأن لهذا الطفل حقوقه الاجتماعية سواء بسواء، فهم يفكرون فيه كما يفكرون فى أنفسهم ·

وفى كل حديقة فى لندن تجد جانباً خاصاً فيها للاطفال ، منطقة لايدخلها غيرهم ، قد جمعت لهم فيها كل مايصبون اليه من أحواض ضحلة للعب فى الماء ، ولتسيير قواربهم ، ومن أجهزة للانزلاق والدوران ومن أراجيح ومن دوامات ·

وتجد حدائق الأطفال هذه فى أيام الصيف، غاصة بهم يستخدمونها كيف شاءوا ، ولا يسمح حتى لأمهاتهم أو مربياتهم باقتحام هذه المناطق ولو لرقابتهم. هم أحرار فيها تمام الحرية .

وفى صحف لندن الكبيرة ، تجد صحيفة خاصة بالأطفال ، مكتوبة بلغة خاصة وبطريقة شائقة ، فيها مادة تثقيفية وفيها الصور والرسوم وفيها القصص والحكايات الجذابة . فترى الطفل يقرأ جانبه من الدايلى اكسبرس أو الميرور، كما يقرأ أبوه جانبه الرياضى أو الاقتصادى فى الجريدة . وعدا هذا فان للاطفال الكثير من الصحف والمجلات الخاصة بهم والتى يشتركون فيها بانتظام ويقرأونها باهتمام وعناية

وللاطفال مكتباتهم وكتبهم ، ففى كل مكتبة كبيرة فى لندن قسم هام لكتب

الأطفال ، يتسع كل يوم بالمؤلفات الحديثة للاطفال . والأب الانجليزى لايجد أثمن من هذه الكتب لاهداء طفله إذا جاء عيد، أو موسم .

وللاطفال فى لندن مسارحهم، وفى أيام عيد الميلاد تعرض روايات خاصة للأطفال على بعض مسارح لندن فيها تقاليد يرعاها الأطفال الانجليز منذ القدم ، يعرضون فى هذه الروايات الكثير من شخصيات الأطفال الخيالية مثل سندرلا .

واذا زرت متحف الشمع فى لندن ، تجد ركنا خاصاً بعظماء الأطفال وأبطالهم له أهميته فى نظر منظم المتحف كغيره من الأقسام،وتشاهد فى هذا القسم روبن هود ومكى ماوس وغيره .

والطفل الانجليزى يتعلم كيف يحمل المسئولية ، فهو يترك له الفصل فى اختيار ألوان ملابسه ، أو فى اختيار مواد دراسته ، وليس أروع من أن تجد جمعاً من الأطفال الصغار راجعين إلى بيوتهم من إحدى مدارس لندن العديدة دون خدم لجرهم أو حمل حقائبهم ، ترى هؤلاء يسيرون فى شوارع لندن ، حتى اذا أرادوا أن يعبروا الشارع المزدحم ، نادوا على الشرطى ليقودهم، ليقود هذا الصف من الأطفال الى الرصيف الآخر . . !



متاجر لندن

لـكل حى من أحياء لنـدن ، نظامه الخاص فى تحديد ساعات العمل فى المتاجر التى تقع فيه ، وكل من يخالف هذا النظام يضع نفسه تحت عين رجال البوليس . لهذا كانت متاجر لندن كأنها المدارس التى تفتح أبوابها بدق الأجراس ، وتغلقها بصلصلة النواقيس .

وكل متجر — الا قليلا معدودا — يقفل يوما ونصف يوم كل أسبوع ، يوم الأحد ثم نصف يوم آخر . ومتاجر الوست اند ، وهو الحى التجارى الرئيسى فى لندن ، تقفل منذ الساعة الواحدة من يوم السبت إلى يوم الاثنين ، أما فى غير هذا الحى فيختلف تحديد هذا اليوم ، فمنها ما تقفل يوم الأربعاء ومنها ما تقفل الخميس .

ومتاجر الوست اند الـكبيرة تقفل كل مساء فى الساعة السادسة أو السادسة والنصف ، وهكذا بقية الأحياء الا فى يوم السبت حيث يتأخر هذا الموعد الى الثامنة والتاسعة .

. . .

والساعة السادسة فى حى الوست اند ، ساعة حركة نادرة لا تجـد لها شبيها فى أية عاصمة أوربية، اذا ما بدأت الشركات والمتاجر فى اغلاق أبوابها ، وبدأ آلاف العمال والعاملات يخرجون الى بيوتهم فى الشمال والجنوب وفى كل أطراف لندن .

قد تقف ساعة أو بضع ساعة ، فى أطراف شوارع الوست اند هذه ، تستعرض

عربات الامنيبوس المزدحمة دون أن تجد مكانا واحداً خاليا . وتنحدر إلى محطة الترام الأرضى ، فتجد المئات من الفتيات والرجال يهرولون كأنهم فى سباق ، يهرولون كأن موجة هستيرية قد مرت على رءوسهم ، يهرولون ولكنهم لا يتدافعون ،



ولا ترى الذى يدل بذراعه أو بقامته المرتفعة ليسبق غيره ممن جاء قبله الى موقف الامنيبوس .

وفى باريس يقطع المنتظر تذكرة بها رقم متسلسل ، ليتأكد السابق من أولويته، أما فى لندن فلا تجد ذلك ، لا تجد الذى يشق طريقه فى الزحام عنوة ، اذ سرعان ما يقفون صفا مسلسلا ، اثنين اثنين ، أمام عربة الامنيبوس أو الترام أو أمام نافذة المحطة دون حاجة الى مثل هذه التذاكر .

. . .

ولبعض أنواع المتاجر فى لندن نظام خاص بها . فالحانات ، والمطاعم التى تقدم فيها الخمور ، تغلق أبوابها أو تمتنع عن تقديم الخمور منذ الساعة العاشرة ، الا فى بيكادلى حيث يمد الأجل الى الساعة الحادية عشرة ، ولا تقدم الا للآكلين . أما فى

يوم الأحد ، فتفتح هذه المتارب ساعتين صباحاً ، وساعتين فى المساء .

والاستعداد لتنفيذ هذه النظم ، ممـا يجب أن يفتخر به الانجليز . فاذا جاءت الساعة العاشرة وكنا فى احـد مجالس بيكادلى ، وطلب أحد الاخوان دورا جديدا ! يأسف الخادم لأن الساعة قد أزفت ، إذ لا تقدم الاقداح الا للآ كلين .

وتدخل أحد المطاعم التى تبيع الخبز أو الجبن ، فتمتنع أن تبيعك شيئا منها ، لأن القسم التجارى فى المطعم مغلق وان كان الباب مفتوحا ، وهكذا تدخل صيدلية بعد هذهالساعة فتجد حانباً من معروضاتها مغطى، فهى لا تبيع بعد هذه الساعة الاالعقاقير ليس إلا ، اما العطور وأدوات الزينة فقد انتهى الوقت المحدد لبيعها .

وللمطاعم فى لندن نظام ، يختلف كل مطعم بالنسبة للحى الذى يقع فيـه ، فترى من المطاعم ما يقفل فى السادسة وما يستمر الى التاسعة أو الحادية عشرة أو الى بعـد ذلك ، فاذا جاءت الساعة المحدودة ، لا يسمح لآ كل بالدخول اطلاقا ، بل تجد الخادم الذى يقف على الباب لتنبيه الداخلين الى ذلك .

ومتاجر السجائر والحلوى لها نظامها ، ولها عادة وقت أوفر من غيرها ليلا ، واذا أغلقت وضعت أماكنها الالآت الاتوماتية لبيع السجائر والـكبريت والحلوى ؛ فقد يكون المـكان مفتوحاً حيث تباع هذه السجائر ، ولـكن البائع يمتنع الا أن يبيعك عن طريق هذه الالآت الاتوماتية .

وفى كثير من أنحـاء لندن — لا سيما المتطرفة — أسواق متنقلة لبيع الخضر والفاكهة والسمك والزهور ، تعقد فى أيام معينة كل أسبوع ، أو فى الصباح من كل يوم عدا أيام الآحاد .

. . .

وبعض متاجر لندن تجمع أكثر من متجر واحد ، فتجد حانوت الادوات الـكتابية والصحف ، والتبغ ، والحلوى فى مكان واحد . وتجد المخبز الذي به مكتب

للبريد ، والصيدلية التى بها مكتبة لاستئجار القصص .

وتجد كثيراً من المتاجر التى تتبع شركات معينة ، تجد مجموعة هذه المتاجر فى كل شارع رئيسى ، فاذا ذهبت غربا إلى وست كنزجتن أو جنوبا الى إلفانت وكاسل وجدت مطاعم ليونس والاكسبرس ديرى واA.B.C ثم صيدلية بوتس ، وفرعا من فروع ولورث وآخر لمحلات مارك وسبنسر، ومكتبة من مكاتب سمث وغيرها، تجدها فى كل مكان ، حتى لا تكاد تشعر بميزة لشارع عن شارع .

وبعض شوارع لندن تشتهر بأنواع خاصة من المتاجر ، ففى أشيرنج كروس تجد المكتبات القديمة ، وفى بوند استريت تجد متاجر أزياء الرجال الراقية ، وفى أشانسرى لين متاجر الأدوات الكتابية .

وأكثر متاجر لندن الكبيرة ، تجدها فى شارع أكسفورد والريجنت



حركة المرور فى شوارع لندن

والاستراند وبيكادلي وهوبورن ، وبعض هذه المتاجر الـكبيرة ، معرض فاخر يستنفد ساعات للجولان فيها ولو لغرض المشاهدة .

وسلفردج أفخر هذه المتاجر جميعها ، لا يبعد الا بضع دقائق من النادى المصري ، بنى على نسق مصرى قديم ، بأعمدة عديدة هائلة . تبحث فى سلفردج عن كل شيء ، ولا تفقد شيئا تطلبه ؛ قسم الأزياء النسوية ، المجوهرات ، الـكتب ، آلات التصوير ، اللعب ، الحلوى ، أدوات الرياضة ، أزياء الرجال ، السيارات ، المطعم ، الأدوات المنزلية ، مكتب للبريد واللاسلـكى وغيرها كثير ، وكل قسم من هذه ، متجر فاخر بنفسه .

وفى أيام الصيف التى لا يقبل فيها الليل بظلامه الا فى الساعة التاسعة والعاشرة ، تمر فى مثل هذا الوقت فى شارع أكسفورد ، فتـكاد لا ترى أحداً ، ولا تجد بابا واحدا من هذه المتاجر الهائلة مفتوحاً ، هذا والشمس لا تزال على الأفق !

النظام ! النظام !

العاملات فى لندن

جاءت الحرب العظمى فدفعت بالفتاة الانجليزية الى العمل فى مصانع الذخيرة ، فى المخازن التجارية ، فى البريد ، فى كل مكان خلى من الرجال · وعندما رجع هؤلاء المحاربون ، عندما رجعوا الى لندن وجدوا الفتاة قد أخذت عليهم الطريق ، ووجدوا نصيرهم بالأمس قد صار منافسهم بل منافسا خطيراً .

وهكذا تسير اليوم فى لندن ، وتبحث عن الرجل العامل فلا تجده ، تبحث عنه فى المطاعم ، فى المخازن التجارية ، فى المعامل ، فى مكاتب البريد ، فلا تجد له آثرا ٠٠

الفتاة العاملة أخذت عليه الطريق !

وفى كل مكان تجد هذه الفتاة العاملة ، فأنت لا تتعامل فى لنـدن الا عن طريق الفتيات العاملات ، فى المطاعم ـ اللهم الا المطاعم الراقية المعدودة ـ لا تجد خدما بل خادمات ، وفى المتاجر العديدة فى لنـدن تجد آلاف الفتيات ، وفى المـكاتب والشركات تجد الفتيات على كل مقعد .

واذا وقفت فى شارع أكسفورد فى منتصف الساعة التاسعة صباحا ، وراقبت جيوش الخارجين من محطة الترام الأرضى ، وجدت الفتيات بالمئات يطرقن كل باب من أبواب المخازن التجارية المغلقة .

وهكذا دفعت الفتاة الفتى العامل الى البطالة . هكذا صنعت الفتاة الانجليزية بيدها هذه الجيوش الغفيرة من الشبان العاطلين ، الذين تجدهم حول ميدان البورصة ، وفى

هايد بارك يقطعون الوقت فى الجدل والمناقشة .

وهكذا تدفع الحكومة الانجليزية بضع ملايين من الجنيهات لهذا الجيش المسرح من العاطلين ، الذين حط عليهم الكسل وخويت عقولهم وقلوبهم من البطالة ، فراحوا يصرفونها حول البارات أو فى الرهان على سباق الخيل والكلاب . . .

• • •

وليس عجيبا فى لندن أن تجد اليوم الزوج العاملة والرجل العاطل ، ليس غريبا أن تجد اليوم فى لندن المرأة التى تحمل على كتفيها مطالب الحياة المنزلية والزوجية . لقد عرفت فى لندن العائلة التى تخرج الزوجة فيها الى العمل من الصبح، وتترك طفلها الصغير الى زوجها العاطل ، الذى لايجد مناصا من العمل فى البيت ، فى العناية بهذا الطفل الرضيع ، فى طهى الطعام وتنظيم الحجرات ، وانتظار زوجته مساء ، وقد جهز لها الشاى !

• لقد رأيت فى لندن المرأة العاملة التى اذا رجعت الى البيت ولم تجد زوجها ، راحت تبحث عنه فى الحانات وفى أركان الشارع ، لتجره بيدها الى البيت !

ولكنك مع ذلك لاتجد الفتاة التى تستبد بزوجها العاطل ، ذلك لأن المرأة الانجليزية تفهم واجبها كأم وزوجة ، وتعرف معنى الحياة ومشاكلها الاجتماعية والاقتصادية المعقدة .

هذه لاشك حياة شاذة ؛ ولكنها ليست غريبة فى لندن جد الغرابة ، تجدها اذا بحثت عنها بين عائلات العمال الكثيرة فى لندن .

ولماذا المرأة العاملة ؟ ذلك لأنها تتناول أجرا هينا معقولا لايرضى به الرجل ، آلاف من العاملات فى لندن لايزيد أجرهن الأسبوعى عن جنيه واحد ، ولكنك لاتجد الرجل الذى يرضى بهذا الأجر وان كان يرضى بالبطالة .

ومن هذا الجنيه تجمع هذه الفتاة الانجليزية العاملة الجنيهات بحرص، فى مكاتب البريد أو فى الجمعيات التعاونية ، حتى اذا انتصف عقدها الثالث ، وجدت فى يدها ثروة تستقبل بها زوجها !

هذا الزوج الذى قد تخونه قوانين الاقتصاد بعد زواجه فيترك عمله ويصبح عاطلا ، الا من بضع شلنات يأخذها من مكتب العمل .

لندن فى أسبوع

كيف أرى لندن فى أسبوع واحد ؟

هكذا يسائل نفسه الزائر ، الذى يهبط لندن وقد ضاق به الوقت وتقاص ، حتى لا يكاد يفرد الا أسبوعا واحداً لزيارة لندن العظيمة ، ذات المئات من الأماكن التى تستنفد الأسابيع الطويلة لزيارتها ولاستيعاب ما تحويها ٠

ومع ذلك فهو ولا شك قد سمع عن الكثير فى لندن ، سمع عن وستمنستر وعن البرلمان وعن المتحف البريطانى ، ربما سمع عن هايد بارك وعن بيكادلى ٠ وهو لا شك يعرف دون سؤال أن فى لندن عشرات المسارح ودور التمثيل ، تستحق المشاهدة ، اذا كان من عاشق الملاهى ؛ وهو ولا شك يعرف أن لندن تحوى العشرات من المتاحف والمعارض دون أن يستجوب أحدا اذا كان من محبى الفنون ؛ وهو ولاشك يعرف أن فى لندن جامعة عظيمة عتيدة ، وأن فيها مئات المدارس والمعاهد والمكاتب والمكتبات ، جميعها تستحق النظر هذا اذا كان من طلاب العلم ، ولكن . . ؟

ولكن كيف تراه يوفق بين هذه الرغبات جميعها ، وليس لديه الا هذا الأسبوع الواحد لكى يرى لندن ؟ وان كان ليس أجدى من أن ترى لندن فى أسبوع واحد ، ولو كنت عازما على قضاء شهور أو أعوام فيها ! لأن كثيرين يقطعون هذه الأعوام أسابيع وشهورا يعللون أنفسهم بأنهم سيرون لندن يوماً من الأيام ، وتنقضى هذه الأعوام وهم لا يعرفون الا الطرقات التى يسيرون فيها حيث يعملون . .

ثم كيف تراه يبدأ هذه الزيارات ؟ أين قلب لندن ؟ وهل لمدينة كلندن قلب واحد لندن ذات العشرة آلاف شارع ، التى تمتد خمسة أميال من الشرق الى الغرب ، وثلاثة من الشمال الى الجنوب ؟ لا ، ليس للندن قلب واحد .

وهكذا سنفرض له فى كل يوم من أيام أسبوعه هذا قلبا للندن ، سنختار له بيكادلى هايد بارك ، البورصة الملكية ، الجامعة ، النادى المصرى ، ميدان ترافلجار . ماأكثر قلوب لندن . .

. . .

اليوم الاول : الساعة التاسعة فى ميدان ترافلجار ، يزور المعرض الأهلى للصور ، يسير فى شارع هوايت هول ، ويمر على قبر الجندى المجهول ، ثم على شارع دوننج حيث يسكن رئيس الوزارة الانجليزية فى المنزل العادى المرقوم برقم ١٠ من النحاس اللامع ، ثم يمر بالوزارات الانجليزية ثم بدار البرلمان .

ثم اذا كان بعد الغداء ، يزور دير وستمنستر ، ويسير حول البرلمان الانجليزى وعلى ضفة التيمز حيث يزور معرض التيت ، ثم يرجع الى كبرى وستمنستر ويشاهد دار بلدية لندن واسكتدلاند يارد على ضفة التيمز الأخرى ، وفى المساء يقضى الليل فى احدى المسارح فى ميدان لستر .

اليوم الثانى : يبدأ من هايد بارك ، ويقضى جانباً من الصباح فى الحديقة وعلى ضفاف السربنتين ، ثم يخرج الى شارع أكسفورد مارا بالقوس الرخامى ، زائرا سلفردج أفخر مخازن لندن التجارية، ثم يتابع السير الى توتنهام كورت رود حيث يتناول الغداء فى الكورنر هاوس . ثم الى المتحف البريطانى فى رسل اسكوير حيث يقضى اليوم .

اليوم الثالث : يقضى هذا اليوم فى سوث كنزجتن حيث يزور جامعة لندن

ومتحف الحرب ، والمتحف الامبراطورى ، ومتحف فكتوريا ، ومتحف الفنون الطرزية، ومتحف العلوم ، ومتحف التاريخ الطبيعى. ويخرج من هذا الحى الى حدائق كنزجتن حيث يتناول الشاى

يقضى المساء فى احدى دور السينما فى بيكادلى

اليوم الرابع : يبدأ هذا اليوم من النادى المصرى فى بيكر ... سير على الأقدام الى حدائق الريجنت ، ومنها الى حدائق الحيوان ، ثم يعود الى النادى المصرى للغداء ثم يزور متحف مدام توسود ، ويتناول العشاء ويشاهد السينما والرقص فى نفس البناء .

اليوم الخامس : يبدأ من بيكادلى حيث يمر باكاديمية الفنون الملكية ، ومن هناك الى الاستراند سيراً على الأقدام ، معرجا على مسلة كليوباترة فى اشيرنج كروس على التيمز ، ثم يسير الى فليت استريت حيث ادارات عشرات الصحف، ماراً بكلية الملك، ومحكمة الجنايات، ثم الى كنيسة سنت بول، ومنها الى البورصة،وبنك انجلترا ويتناول الغداء فى احد مطاعم الستى ، ويسير أو يأخذ الترام الأرضى إلى برج لندن

يقضى المساء فى احد مطاعم بيكادلى

اليوم السادس : يقضى هذا اليوم على التيمز يزور قلعة ونسور وقصر هامدن كورت فى رتشموند ، ويزورحدائق الكيو وحدائق النباتات . ويقضى المساء فى احدى دور السينما

اليوم السابع : يقضى هذا اليوم فى جنوب لندن حيث يزور القصر الزجاجى ومطار كريدون ثم غابة ابنج ثم أحواض لندن . ويعود فى المساء حيث يقضى السهرة فى بيته من التعب والمشى والاعياء . .

...

انقضى الأسبوع ، ولم ير من لندن الا القليل ، ولندن ليست المدينة التي ترى في الأسبوع ، ولا التي ترى بهذه العجلة ، التي ولا شك أنها من الشيطان ، بل ومن الشيطان الرجيم ...

من الغرب إلى الشرق

محطة فكتوريا الليلة ، ككل مساء من أمسية الصيف ، مزدحمة بالراجعين من مصايف الجنوب بعد قضاء اليوم ، أوالذاهبين اليها لقضاء السبت والأحد . ومزدحمة بالساكنين فى ضواحى لندن الجنوبية بعد أن انتهوا من عملهم اليومى فى لندن .

عشرات من القطارات الكهربائية والحديدية تصل ، وعشرات تغادر أرصفة المحطة العديدة . ومئات من الفتيات العاملات ، ومئات من العمال وغير العمال يخرجون أفواجا من محطة ترام تحت الأرض وينتشرون بين هذه الأرصفة ، كل يحمل صحيفة من صحف المساء ، أو يختطفها من باعة الصحف الذين ينتظرون فى كل ركن من أركان المحطة العظيمة .

. . .

ولكنها الليلة ليست فى نظرى كما كنت أراها من قبل ، لم أجد فى أنوارها القوية الزاهية تلك الغبطة التى كنت أجدها قبل ذلك ، ولم أجد فى ازدحامها تلك السلوى . فلست فيها الليلة مودعا صديقا ، ولست فيها مسافرا الى برايتون أو بورموث لقضاء يوم على شاطىء البحر .

انى أودعها الليلة كآخر ما أراه من لندن ، كآخر صورة تقع عليها العين من صور العاصمة العظيمة التى عشت فيها طالباً ردحاً من الزمن والتى رجعت اليها عاما بعد عام

ومن يدرى فقد تكون هذه آخر ذكرى عندى للندن ؛ وقد يكون هذا الوداع وداعا لا لقاء بعده . أوقد يكون اللقاء بعد أعوام واعوام ، وقد سلخت عهد الشباب ونسخت شيخا مل الحياة والأحياء ؛ أرجع اليها غريبا من جديد لا يذكر وجها كان يعرفه من قبل ، ولا صديقا يأنس اليه ، ولا مكانا يتردد عليه ويألفه .

وتكون لندن اذ ذاك فى نظرى عاصمة مهجورة ، عليها مسحة الكآبة والحزن، صامتة وكأنها كانت تغنى فى عهدى الأول بها؛ عابسة جادة وكأنها كانت لاهية طروبا عندما كنت أتردد عليها من قبل .

ستكون اذ ذاك لندن غير لندن ، وسوف لا أجد فى شبابها ما أجده اليوم من صبوة ومن حب للحياة ، فنحن لا نرى الا نفوسنا منعكسة على ما يدور حولنا من مظاهر الحياة ، فاذا كنا عابسين فاننا نسمع رنة الحزن حتى فى خرير الماء ، واذا كانت قلوبنا مرحة لاهية فاننا نلمح هذا المرح فى حفيف الشجر وفى سقطات المطر على الأرض .

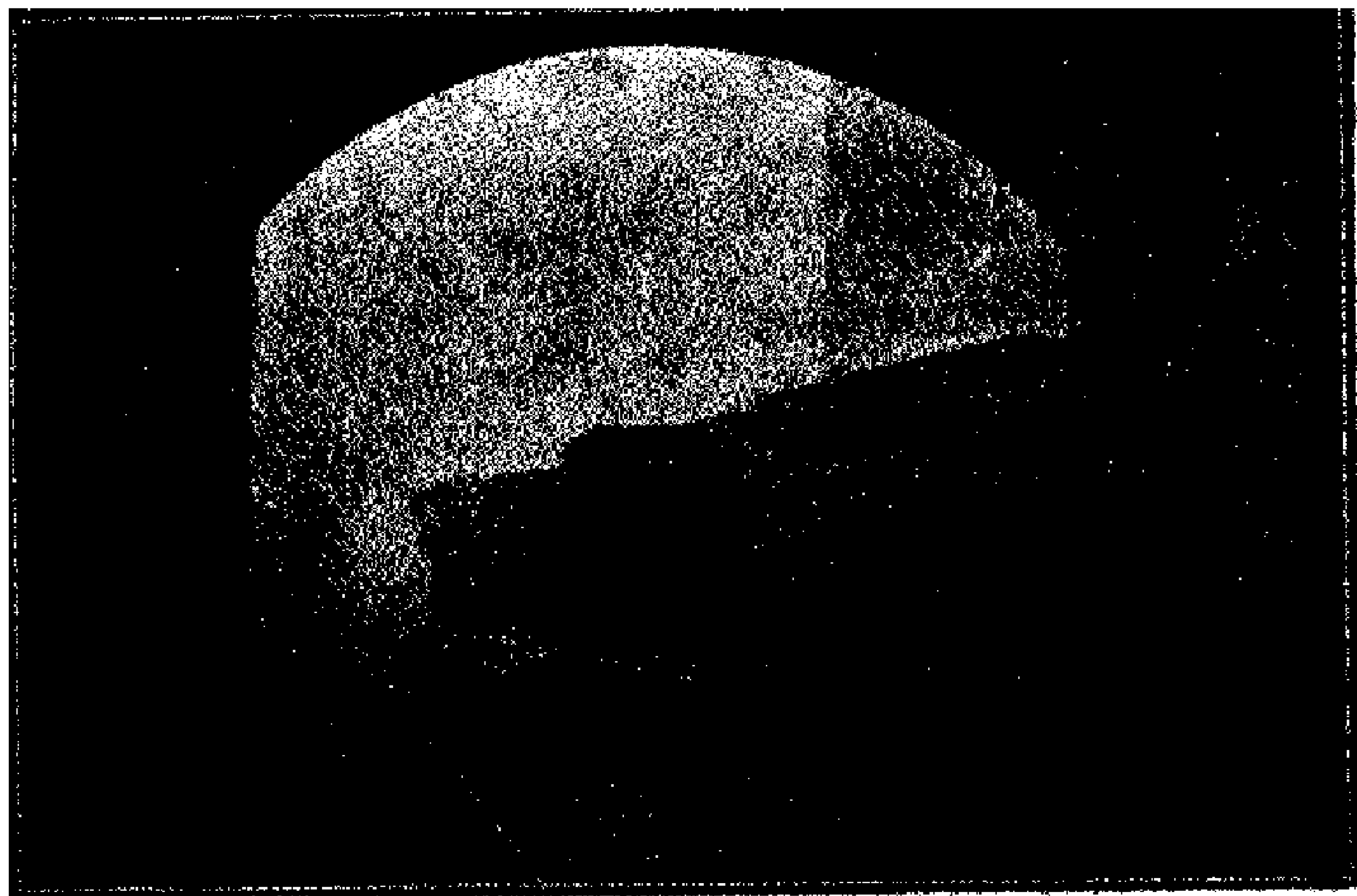
. . .

فهذه الأبنية السوداء الجامدة التى مر عليها أكثرمن قرن، وهى فى مكانها فى لندن قد لا تتغير بعد عشرين عاما ، ولكن قلوب الشباب التى ترقص اليوم سوف تسكن فى خلال هذه السنين العشرين ، وهذه الوجنات الفاتنة التى تفيض من حسنها على أبنية لندن الحجرية القاسية سوف تذبل وتذوى بعد قليل ، وتبقى هذه الأبنية قائمة كأنها معابد وادى الملوك .

ستكون لندن موحشة مهجورة .

وستكون أبنية لندن جرداء قاسية .

وستكون لندن صامتة سا كنة .
لأن قلوبنا هى التى ستكون مهجورة ،
ولأن قلوبنا سوف تكون جرداء ،
ولان قلوبنا سوف تسكن فيها نبضة الشباب .
وداعاً . . !



فهرس هجائى

فهرس هجائى